سحلس

ع ـرات ق
. أكتوبر
جرة

بيانات

روية

سلمات

ت

هـــدى

العريق سواء فى المدن أو القرى قد استأنف سيره نحو ما يصبو إليه من الأهداف الجديدة الرامية لتحقيق السلامة الاجتماعية والعدالة الاجتماعية وتحقيق شخصية الفرد وذاتيته .

١٥ اغسطس ١٩٥٥

الأراضى القاحلة، ولأول مرة يجرى تنظيم الخدمات الصحية على نطاق ومدى قومى. وتبذل أقصى الجهود لتعويض القرويين عما فاتهم من نعيم بسبب الاهمال الذى عانوه لقرون.

فلقد بدأ الريف الهندى يتحول ويتبدل أمام أعيننا بفضل الوسائل الحديثة الرامية لتحسين طرق الزراعة والرى والسهولة فى المواصلات والنقل والشئون الصحية والتعليمية.

إن هذا التقدم يعتبر مهما فى حد ذاته إلا أن ما يكسبه أهمية على أهمية ما يبديه أفراد الشعب من نشاط للواجبات والمسؤوليات الجديدة. وصحيح أن الدولة هى التى أخذت على عاتقها فى كثير من الأحيان إعداد المشاريع الانشائية والشروع بها، ولكن المهم فى الأمر أن تجاوب الشعب معها وتعاونه كان رائعاً فى نطاقه. وقديماً كان الشعب دائماً أبداً يتطلع إلى الدولة ويعتمد عليها فى كل خطوة من خطوات الاصلاح. أما اليوم فإن الشعب نفسه كثيراً ما يتولى زمام المبادرة، سواء فى إعداد مثل هذه المشاريع أو فى تنفيذها. إن نهضة جديدة فى مختلف نواحى الحياة اجتاحت المدن والمناطق الريفية على السواء. ووقفت على ذلك الجمود الذى كان يلازم القرويين ويسيطر عليهم. وها هو الشعب الهندى

المتزايد بأن عالمنا الحاضر يفتقر أشد الافتقار إلى هذا الطراز من المجتمع .

إن ما تم من التقدم السياسى والاقتصادى لعلى جانب من الأهمية . والنهضة التى حققتها الهند فى الميادين الفنية والحرفية ، انها بعثت نشاطاً كبيرا فى شتى النواحى والميادين الأخرى . وأعمال إحياء الاتصالات الثقافية القديمة جارية العمل ، لاقامة اتصالات جديدة أخرى . وأن أكبر برهان على نهضة الهند الحديثة يتجلى فى الجهود التى تبذلها لاعادة بناء الحياة الريفية وتنظيمها . ولم تكن قد وقع أى تبديل فى القرى منذ قرون . فقد كانت الأحوال السائدة فى المناطق الريفية قبيل عهد الاستقلال آنفاً ، لاتختلف أحيانا فى شيء عن الأحوال والظروف التى كانت تخيم على الريف الهندى منذ ثلاثة آلاف من السنين . أما الآن فهناك مساع جبارة لقلب طراز الحياة الريفية رأسا على عقب . من ذلك الجهود المبذولة فى سبيل بناء طرق جديدة فى أماكن لم يك فيها طرق من قبل . ولأول مرة فى التاريخ الهندى المقيد بدأت المدارس تبنى وتقام فى أماكن بعيدة نائية . وهناك مشاريع الرى التى توفر المياه وتؤمن إحياء الملايين من الأفدنة من

المؤسسات الفردية . فالهند عاملة فى سبيل إقامة جهاز اقتصادى مزدوج يعتمد على المجهودات العامة والمجهودات الفردية ، كما أنها تقوم بتجارب لاستنباط الطرق والوسائل التى يتسنى معها الجمع بين الصناعات الصغيرة والصناعات اليدوية فى ظل نظام يؤمن إنتاج الأشياء اللازمة فى جو صناعى معملى .

ومن الناحية السياسية فان الهند قد اختارت لنفسها نظاما جمهوريا ديموقراطياً . وقد ضمن لجميع الرعايا حرية القول والعمل والتفكير والاعتقاد . وأنها تعمل جاهدة للقضاء على الفوارق المبنية على الامتيازات . وإلى أن يتسنى لها تحقيق المساواة فقد أقدمت الهند على بعض التدابير للنهوض بأفراد الطبقات المنبوذة والأخذ بيدهم . أما مجموعة الشعب فان شعورها بكرامتها ومسئولياتها أخذ بالازدياد . وتجـــهد الدولة من ناحيتها لتقديم الخدمات لخير الشعب مع ضمانة الحرية الفردية . ومن مميزات سياســة الهند الداخلية عنايتها بالمصلحة العامة على نفس النحو الذى تعنى به بتأمين الحرية الفردية . والواقع أن محاولتها للجمع والتوفيق بين المبدئين تعتبر من أجل الخدمات التى أسديت للسياسة الخارجية . ذلك أن الأهمية الدولية التى اكتسبت الهند مردها إلى الادراك

التى قامت فى العهود الغابرة ما زالت نشطة فعالة. وقد كان التسامح الذى كانت الهند القديمة تبديه يحمل على محمل الخنوع والاستسلام. أما الهند الحديثة فتحدوها رغبة كمينة بخلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر. والجو يبشر ببوادر عهد جديد.

وعمل إعادة تنظيم الجهاز الاقتصادى الهندى من أسسه، قد بدأ. فبدلا من النظام الاقتصادى السائد فى البلاد إلى الآن مع كل ما يلازمه من القلة، بدأت الهند تبذل جهدها بقيام نظام اقتصادى يؤمن لها الوفرة بحيث يمكن لكل فرد من أفراد المجتمع أن يساهم فيه وفقاً لكفاءته وطاقته ويجد جزاءه وفقاً لاحتياجاته. لقد أفادت الهند من الاختبارات التى اكتسبتها أوربا الغربية فى تطبيقها بمبدأ حرية التجارة والعمل به، كما أفادت من أوربا الشرقية وأنظمتها الدكتاتورية المركزية. والهند تعمل جاهدة على إقامة نظام اقتصادى متوازن يتيح مجال العمل لخطة الشعب والنشاط الشخصى على السواء. وستخضع عدد كبير من الصناعات الأساسية تحت سيطرة الدولة وإشرافها بصورة تدريجية. أما الصناعات الثانوية والأخرى التى تعتبر من الدرجة الثالثة التى تتولى إنتاج سلع الاستهلاك فستترك ادارة العدد الأكبر منها إلى

لولا أنها قد أدت بالتالى إلى تقسيم البلاد وقيام دولتين منفصلتين عن بعضهما بعضاً .

إن الثورة الصامتة التى كانت اختمرت فى الهند خلال المأية عام الماضية فأكثر ، قد أسفرت بالتالى عن بلوغ الهند درجات الاستقلال السياسى . وقد امتازت هذه الفترة من تاريخ البلاد بكليتها بالاضطرابات والغليان . وفى حين أن هذه النهضة كانت تتجلى وتعبر عن نفسها بالتمرد والخروج على المعايير والقيم القائمة ، إلا أنها أحياناً ما عبرت عن نفسها فى ازدهار وانتعاش فى الميادين الفنية أو حركات الاصلاح الدينى أو الاجتماعى . ومن المظاهر المشتركة فيها جميعاً حب الاستطلاع أو النزعة إلى الثورة إن هذا التبرم جاء فى حد ذاته برهاناً على أن البلاد بدأت تبعث بعثاً جديداً .

إن الغليان والاضطراب والانحلال زادت حدته وتفاقمت منذ حصول البلاد على استقلالها . ذلك أن الهزات النفسية التى حققت للهند استقلالها لم تهدأ . ولم يتسن لها بعد ، إيجاد توازن فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهناك ما يوحى بأن عمليات التوفيق والتنسيق البارزة بين القوى والعناصر المختلفة

ملحق

ما كادت الهند تتبوأ مراتب الاستقلال حتى بدأ فصل جديد من قصتها الطويلة. ولقد استمر نمو الهنادكة والمسلمين زهاء تسع قرون، على وجه التقريب، قائما على عوامل الاتصال والامتصاص والتوفيق. وكان أول عامل دخول الغرب أن بدأت الاتصالات تنقطع بين الطائفتين. فكأن الثقافة التى اشترك فى بنائها الهنادكة والمسلمون فى بحر ألف عام غدت مهددة بالانحلال. وقد قامت كل طائفة من الطائفتين من ناحيتها بمجادلات لاحياء الأساليب والنماذج الأصلية لثقافتها. ولاقت هذه الحركة أحيانا عن قصد — ولعله كثيرا ما عن غير قصد — تشجيعا من جانب حكام البلاد البريطانيين. ولكن ما أخذ عهد الحرية والاستقلال يدنو ويقترب حتى بدأت آمالهم وخشياتهم تتعاظم، ولا تجدنا فى حاجة إلى التعرض إلى تلك الفترة المضطربة المؤسفة من تاريخ البلاد التى كانت مزحومة بالتناحر والمؤامرات فى السنين الأخيرة. وكفانا

دورها اللائق فى هذه العملية . وعليها أن تحافظ على كل ما هو غال وثمين من حضارة الماضى المتداعية مع العمل فى نفس الوقت على جمع وتحديد ما تتطلبه الحضارة العالمية المنبثقة من مطالبات، وعلى عواتقهم تقع المسؤولية فى تحقيق عملية تنسيق جديدة ما بين تراث العالم بعهوده القديمة والمتوسطة والحديثة وتكسبه ثروة على ثروة.

يوليو ١٩٤٦

هذه الحضارة فى دور الانحلال أو الثقافة فى دور الصهر فليس لنا أن نتوقع للفلسفة أن تنمو وتزدهر. وعندنا أن ندرة الانتاج الفلسفى خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة إنما يقيم البرهان على ما تعرضت إليه الثقافة والحضارة الهندية فى هذه الفترة من ضحل وعقم.

إن هناك الآن بوادر حركة بعث جديد فى جميع النواحى والمرافق. ذلك فان الغليان والاضطراب الذى يضطرم فى جميع نواحى الحياة الهندية وفكرها إنما يرمز ويوحى بقيام عهد جديد. ولا بد للاجرام أن تصطدم وتتفتت إلى أجزاء صغيرة لكى يتسنى لشمس جديدة تأتى فى حيز الوجود. كانت الهند القديمة رائعة فى خلق جو من التنسيق والوفاق. أما العالم العصرى فتحدده رغبة كمينة بخلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر. إن الآثار القديمة اكتسحت مع حياة موحدة حركة تطالب بتحقيق المساواة والعدالة. ولا مندوحة للقيم القديمة والحديثة أن تصدم قبل أن تشهد الهند قيام إنسانية جديدة. إن هذا المهد القديم للعالم قد تحولت مرة أخرى إلى ميدان الصراع بين قوى وعوامل متناقضة متباينة، وواجب للشبيبة الهندية فى مثل هذه الأحوال أن تلعب

الزوال إلا أنه ليس هناك ما يضمن قيام بعث جديد.

إن الهند العصرية تمكنت فى الميادين الفنية من بلوغ شأو جدير بماضيها التليد. والفنون هى فى الصميم طلب الفرد فى أرجاء روحه الوحيدة المتقفرة. والفن المعمارى والتمثيلى، حيث الفن ما زال قائماً على اعتبارات طائفية، لم يولد بعد. وحتى فى ميدان الرسم والشعر فان الروح التى تكتنفها الوحدة الموحشة سرعان ما يعتريها الكلل والملل، إذا لم توفق إلى تجديد قواها وحيويتها بما تستمده من أعماق الفكر القومى. إن فن الرسم والشعر الهندى فى نموه أشبه ما يكون بشجر الصبير الذى ينمو فى أكناف الجبال على تربة قاحلة ليست عميقة الغور. فهى رغم روعتها تبقى دخيلة لا تنفذ إلى روح الشعب.

ولعل ميدان الفلسفة هو أكثر الميادين برهانا على إخفاق الهند أن تحقق ما هو جدير بها. ذلك أن الفلسفة من عادتها أن ينظر إلى ادعاءات المعتقدات السائدة. فهى تخضع قواعد المدنية المتفق عليها إلى عملية من التدقيق والتمحيص. وصفوة القول أنها تقيد المرء لما تضمنه دينه. فلا مندوحة من وجود حضارة وثقافة عريقة ليتسنى للفلسفة أن تنتعش وتزدهر. وإذا ما حدث وكانت

هذه الناحية مصدر عدوى للعالم الخارجى . فالهند المتمتعة بالحرية والسلام بمثابة معقل من معاقل السلام العالمى . فهى تساعد على ضبط الغليان فى القارتين الآسيوية والأفريقية وكبح جماحه فحسب، بل سترمى قوتها الجبارة مع القوى العاملة من أجل السلام العالمى .

إن الهند بما يتوفر لها من ثقافة هى مزيج من ثقافات مختلفة مستمرة تجمعت لها عبر القرون ، فى وسعها أن تغذى العالم بالغالى النفيس ، فقد أيقظت المؤثرات الغربية الهند من سباتها العميق وأخذت دم الشباب الجديد يسرى فى عروقها . كما أن مشاكل جديدة أخذت تحرك وتثير وعيها من أعماقه . ناهيك عن أن الصراع القائم بين الآراء الشرقية والغربية قد بعث فيها يقظة دينية واجتماعية جديدة . ولا تقتصر هذه النهضة على تحرى الحقيقة الروحية والسعى وراءها فحسب ، بل تتعداها إلى التخفيف من حدة النظم الاجتماعية الاستبدادية القديمة . ولقد شاهدت الهند خلال القرن التاسع عشر ظهور عدد من رجال الاصلاح وإن كانت تاثيراتهم قد بقيت سطحية لم تتغلغل إلى أعماق الحياة الهندية . ويلاحظ أن نفس القصة تتكرر فى الميادين السياسية والاقتصادية أيضاً . ومع أن الأنظمة والتعاليم القديمة كانت قد آلت إلى

أن تفكك وتنهار فان نظم الحياة التى يفترض فيها أن تصونها من العبث تغدو مهددة أيضاً. وإن ما قد يبدأ كصراع طائفى قد يؤول فى النهاية إلى حرب أهلية. والحروب الأهلية سرعان ما تنتقل إلى الحروب المللية. ومع أسلحة الفتك والتدمير العصرية، الحروب المللية تنذر بالقضاء على الحضارة البشرية نفسها.

وعلى ذلك فان قضية حصول الهند على استقلالها وسيادتها لا تعبر من المشاكل التى تهم الهند فحسب، التيارات العالمية بلغت شواطئها وأرغمتها على السير فى طريق الوحدة والتنسيق التى كتب عليها أن تسير فيه. إن خضوع الهند سياسياً للسيطرة الأجنبية يجعل دورها سلبياً للقوات العالمية أكثر منه عملياً على مسرح العالم. وفى هذا ما فيه من أخطار لا تهددها فحسب، بل وتهدد العالم أيضاً. فخضوع الهند للسيطرة الأجنبية يهدد السلام العالمى لأن ما تتعرض إليه من السيطرة والاستغلال قد يشجع دولا أخرى غير الدولة التى تستغلها أن تجرب حظها فى عملية الاستغلال. وهى مهددة بالأخطار لنفسها. لأنه يحول بينها وبين تقدمها ونموها نمواً حراً طبيعياً. فهى بحكم ما ترزح تحته من اضطهاد وما يحز بنفسها من ألم فهى فى نزاع دائم مع نفسها، بل هى من

الفرد والجماعة اول وسيلة يجدونها حولهم . أما أرباب المصالح الثابتة فنى وسعهم تأمين ترفهم وانتزاعه من فم العهد القائم . فنى مقدور المليونير مثلا ، من أى جنس أو لون كان ، أن يتمتع دائماً بخيرات الحياة وأطايبها . أما الهتافات والصيحات الطائفية فتحول أنظار الطبقات المستغلة عن عدم المساواة الفاحشة . إن الطائفية بالنسبة إلى أرباب المصالح هى آخر معقل من معاقل الدفاع .

وقد يمكن تحويل الأنظار هكذا من البليات إلا أن هذا لن يساعد على حل المشاكل . فالنفرات الطائفية باقية مستمرة تغلى وتعمل عملها فى الصدور . أما الروابط الاجتماعية فآخذة بالانحلال . وأصبحت قواعد النظام والكياسة القديمة التى شيدت بعد قرون من الجهود وضبط النفس مهددة بالخطر . وإن المجتمع المدنى هو أشبه ما يكون بالخزان الذى يحبس مياه التيار . وطالما بقى الخزان قادراً على الصمود كلما كان غليان التيار عديم الجدوى والفائدة . أما إذا نجح التيار من إحداث ثغرة مهما كانت ضئيلة فان الأخطار الناشئة لن تقتصر على الخزان نفسه فحسب ، بل تتعداها إلى المناطق التى يفترض فى الخزان وقايتها من أخطار الفيضان . وهكذا مسئلة الحجزات التى وضعتها الحضارة . فاذا ما قدر لها

عجز الاستعمار رغم الجهود التى يبذلها للتراضى عن تحقيق توازن دائم . إن الاستغلال الاقتصادى وما يلازمه من شعور الأذية ، هما جزآن متلاصقان بطبيعة الاستعمار . ولا يمكن تجريدهما منه إلا بالغاء الاستعمار نفسه . إن مبادى العدالة واعتبارات البقاء تلتقيان فى الدعوة إلى إعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة .

أما الخطوة الأولى لاعادة التنظيم فهى تحقيق استقلال الهند . فالهند التابعة ليست بهند محقرة فحسب ، بل هى هندكئيبة كذلك . ويعنى ذلك عدم الانتفاع من مصادرها الانسانية والمادية الجبارة . إن النظام الاقتصادى القائم على العسر ، من شأنه أن يؤدى إلى قيام مجتمع مضطرب . إن ما يلازم المجتمع الهندى الحاضر من عوامل الالتهاب إنما يرد إلى العسر الاقتصادى . وإن ما يتراآى لنا فى الظاهر بأنه حزازات طائفية واختلافات إقليمية لهى فى الواقع محاولات ومجهودات لتأمين البقاء . إن الصناعات الهندية قد دمرت والزراعة الهندية لا تقدر أن تعول السكان المستمرين فى التزايد وغدت الوظائف السبيل الوحيد الذى يضمن للفرد راحته ومستقبله . وهذا ما سبب منافسة غير طبيعية للحصول على الوظائف لأجل البقاء . وفى هذا النزاع للبقاء يمسك

بدورها طابعاً عالمياً. وقديماً كان تدهور حضارة ما لا يتعدى تدهور طبقة معينة فى أى بلد من البلدان، ولكن رغماً عن تدهور هذه الطبقة لم تفقد الآمال بقيام طبقات أخرى فى ذلك البلد أو غيره على الأقل، تتولى حمل شعلة الحضارة وتعمل على المحافظة على تقدم البشرية، ولكن قد فقد هذا الامكان نظراً لتغلب الانسان المتزايد على عالم الفضاء والزمن، والانقلابات الثورية التى طرأت على وسائل الحروب والهجوم، ونظراً إلى التبدل الذى طرأ على وسائل ونطاق الانتاج وتوزيع البضائع وتكميل الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية فى مختلف البلدان والمناطق فى العالم. إن عالماً موحداً هو الآن فى طريقه إلى التأسيس إن لم يك قد تأسس فى الواقع. العالم وقد قدر لمصيره أن يكون واحداً كذلك. أن تقدم العالم شانه شأن الحرية والسلام أصبح الآن جزءاً لا يتجزأ.

تنشأ المشاحنات بشعور الأذية. فاذا لم يبادر للعمل على إزالة أسباب المشاحنات تعرض كيان الحضارة العالمية بأسره إلى الانهيار. إن الحربين العالميتين اللتين شاهدتهما البشرية فى بحر خمسة وعشرين عاما تذكرنا بتلك الخطرة. فلقد برهنتا على

إلى استعباد الانسان . لقد أخذ أصحاب العقول الحادة المثقفة من رجال ونساء يحلمون بنظام اجتماعى جديد . وإن هذا الحلم أخذ يتبلور ويتحقق نتيجة لتغلب الانسان على قوى الطبيعة .

ولما تم للانسان التغلب على الطبيعة انفتحت أمامه آفاق جديدة لم يحلم بها من قبل قط . وآية ذلك أن أشد أفراد المجتمع فقراً يتوفر لديه اليوم من الموارد ما كان ليحلم أو ينعم بها سابقاً أعاظم الحكام فى العالم . ففى وسع الرجل العادى الآن أن ينعم بمستوى من المعيشة لم يكن فى متناول أقوى السلاطين فى العالم . وأصبحت اليوم الأشياء التى كانت تعتبر فى الماضى فى عداد الكماليات من أبسط الضروريات . ويمكن الحصول على كل هذا على نطاق عالمى حتماً . واتساع المجالات والفرص لا يقتصر وجوده على داخل البلاد فحسب ، بل على ما بين الدول كذلك . فالأشياء التى كانت فى يوم من الأيام حكراً على طبقة معينة من طبقات الشعب فى بلد من البلدان أصبحت اليوم فى متناول البشرية بأسرها .

وبقدر ما توسعت الحضارة وغدت فى عصرنا الحاضر على نطاق عالمى فان النكبات والأخطار التى تهددها قد اكتسبت

ولكنه قلما شاهد قيام حضارة عالمية. فثقافة الهند القديمة كانت موضع اهتمام الهنود فحسب. والثقافة الرومانية فقد اقتصرت على حوض البحر الأبيض المتوسط. وكذلك الحال فى الحضارة الصينية لم تكن لها سمعة تذكر خارج حدودها، حتى الحضارة العربية، فهى رغم عن أنها كانت أعم انتشاراً، إلا أنها كانت إقليمية أكثر منها كونية. والواقع أن الظروف المادية الضرورية لقيام حضارة عالمية بالمعنى الصحيح لم تتوفر بعد فى ذلك الحين، على أن تغلب الانسان على الطبيعة وقهره لها قد أوجد وخلق للمرة الأولى ظروفا لحضارة قد تعمل على أسس عالمية.

إن أهم العوامل المميزة للحضارة الكروية تتجلى فى حنينها وتعطشها لتحقيق العدالة الاجتماعية، فهى إلى جانب التحدى لنفوذ الاستعمار والاستغلال. فهى تهاجم على عدم المساواة وتندد بانعدام العدالة فى مصدرهما. أما السلاح الذى تستخدمه فى هذا السبيل فهو الماكينة التى تطلق قوى البشرية وتهىء الفرصة لكل فرد للتمتع والترفيه عن نفسه. ولأول مرة فى التاريخ يلاحظ أن استعباد الطبيعة قد أدى إلى عدم حاجة الانسان

مصممة على التخلى عن الروابط القديمة . أما الانقلابات التى وقعت فى الهند خلال القرنين الأخيرين، وعلى الأخص ما وقع منها خلال الثلاثين والأربعين الأخيرة، فانها تختلف اختلافا كلياً عن سابقتها . فترى كأنها لا صلة لها بالماضى وتحمل فى طياتها جميع بوادر بداية جديدة بالكلية .

ومن الخطأ أن نعتقد بأن كل ما هو حديث جديد بالمرة ذلك أن المراحل الحالية هى نهاية بل خاتمة لعملية بدأت من زمن بعيد واستمرت عبر القرون . ومع كل ذلك، فلا سبيل للانكار بأن هذه الانقلابات أدت إلى تخلى هنود عن ماضيهم. وإن وقوع مثل هــــذه التطورات لا يختص بالهـــند فقط . فالانقلابات التى وقعت خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، قد أحدثت تغييرات فى الحياة البشرية والثقافة على وجه لم يسبق له مثيل فى التاريخ المقيد . والواقع أن سرعة الانقلاب قد زادت إلى حد مخيف منذ أوائل القرن الجارى .

إن العهد الحديث فى الهند لم تشهد انقلابات سريعة فحســب بل شاهدت أيضاً عمليات التوحيد على مدى ونطاق لم يعهد به من قبل . ولقـــد عرف العالم فى المـاضى حضارات متعددة،

من أركانها وأصبحت السنة القديمة القائمة على التسليم غير صالحة كأساس للحياة الاجتماعية الهدية . والضمانات القديمة لتأمين مستقبل الفرد تلاشت بدورها ، وتلاشت معها المبادىء القديمة المعروفة . والترابط القائمة من الشئون العالمية واتصالها مع بعضها بعضاً قد جعل المحاولات الرامية للمحافظة على العزلة والانطواء غيرممكنة . ذلك أن فريقاً من الناس ممن ليس لنا بهم أى اتصال أو ممن لا مجال لنا للاتصال بهم هم الذين يحكمون بمصير حياتنا . كما أن بعض القرارات التى لا تمت بصلة ما لأمانينا ومطالبنا قد تكون بمثابة الموت والحياة بالنسبة إلينا . فلا غرابة ، والحالة هذه ، أن نلمس مظاهر الاضطراب والفوضى تعم الشعب على جميع طبقاته .

ويستدل من كل هذا أن حالة عدم الاستقرار والغليان هما من العوامل المميزة للهند المعاصرة . فشعبها العريق فى قدمه سائر قدما إلى الأمام ، ورغماً عن أن الهند الحديثة لم تحدد مبادئها بعد ، إلا أنك تلمس بوادر حركة بعث جديد فى كل مكان . لقد تعرضت الهند فى عصورها القديمة والوسطى إلى الانقلابات ذات أثر بعيد . على أن هـــذه لم توح بأن الهند

٨ — النهضة وحركة البعث

إن ما وقع فى الهند الحديثة من خلط بين القومية والاتجاهات المبهمة الغامضة طالما استرعى الأنظار، ولعل الظاهرة الأخرى التى تمتر أشد مدعاة للاستغراب هو الجمع بين اشتراكية نظرية وطائفية متشيعة متطرفة. إن المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية هى الدعامة التى تقوم عليها جميع النظريات الاشتراكية، ولكن فى الهند قد جردت الاشتراكية من هذا وصرفت لتوافق الفئة ذا مصالح ثابتة التى تستغل الطائفية لخدمة مآربها. والدعوة إلى الشيوعية لم يعد لها تلك القوة التى تجمع بين الفئات المختلفة من الطبقات الكادحة المستغلة. فقد أصبحت بدلا عن ذلك وبفضل ما تسرب إليها من عوامل واعتبارات دينية خارجية، أداة للمحافظة على مساوى النظام الاجتماعى القائم.

ولذلك فان النهضة وحركة البعث تسيران فى اتجاهات متعاكسة فى الهند العصرية. فقلاع التقاليد القديمة قد قوضت

على المساواة العقلية عن أن يلازمه عوامل الاضطراب والثورة.

وعندنا أن هذا التحول من حال إلى حال إنما هو نتيجة حتمية لعملية طويلة من الانقلابات والتغييرات الانتقالية. ولم تأت الانقلابات والتغييرات مفاجاة ولم تكن وليدة الصدف، فقد سبقها فترة طويلة من الاستعدادات، ومضت نحو أهدافها بصمت وهدوء دون أن تسترعى انتباهاً أو تلفت نظراً. أما الصدمة التى أحدثها هذا الانقلاب فاقتصرت على اولئك الذين قد كانت تحجرت عقولهم وعاداتهم. على أننا لانسوغ لأنفسنا المبالغة فى مدى هذه التغييرات. إن العادات الاجتماعية دائمة التغير والتبدل إلا أن المعتقدات الاجتماعية بقيت إلى حد بعيد على ما هى عليه لم تتحول ولم تتبدل. وحركة النقد وتدقيق الأمور على أضواء العقل والمنطق لاقت انتشاراً أكثر من اكتسابها شدة. وإنه لمن العجب أن الاتجاهات الفكرية العصرية اختلطت وتمازجت بأحاسيس بالية قديمة. إن الهنود المعاصرين يفكرون ويتحسسون ويعملون على مسطحات عديدة فى آن واحد. فيرون الماضى والحاضر والمستقبل فى طراز عجيب يخيب عمل التحليل والوقوف عليه.

الحديثة أو الأجنبية. وكذلك اصطدمت القوى السياسية بالقوى الاقتصادية، فأحدثت اختلالا جديداً بالتوازن. ومع أن الاستعمار الجديد كان يسعى لخلق طبقة متوسطة كبيرة الحجم، إلا أنه لم يشجع على قيام رأسمالية محلية. وظهر هذا التناقض الجوهري في التبرم الذي أبدته الأقلية المثقفة المتيقظة ضد الأوضاع السياسية. وهذا سرعان ما عم المجتمع بأسره، وتحول إلى قلق عام وميل إلى نبذ القيم القديمة.

وحالة الغليان الموجودة في الهند الآن، هي صورة معبرة عن الحالة السائدة. إن القوى التاريخية التي تتحكم في مصير الهند تقف موقف التحدي من أسس المجتمع والتعاليم المبنية على السلطة. وكما أن الثورة الأولى من ثورات التحرير الفكرى تؤدى عادة إلى الاقدام على أعمال متطرفة عنيفة في شتى النواحي والميادين. فإن رد الفعل الذي تحدثه يكتسب عادة نفس الطابع من الحدة والعنف، وقد استمرت على ذلك عملية التأرجح والتردد بين طرفي النقيض ومضت دون أن تقف عند حد. ولا مندوحة في مثل هذه الأوضاع والظروف لقيام فترة انتقال بين عقلية تقوم على أساس الطاعة للسلطة وأخرى تقوم

ملحوظاً في هذه الاتجاهات. ذلك أن الاكتشافات العلمية قضت على القديم من وسائل الانتاج وتوزيع البضائع على الأسواق. وكذلك فان استخدام الانسان للآلات أسفر عن زيادة كبيرة في الانتاج واستطاب أسواقا بعيدة. وقد أسفر الانقلاب الذي طرأ على وسائل الانتاج عن ثورة أخرى في وسائل المواصلات والاختلاط. كما أن الاتجاهات الدينية والثقافية اكتسبت نفوذاً واسعاً جديداً. ولما تزايدت حركة التنقل بين المدن والقرى أخذ نفوذ المدن بالنمو المتواصل. وبما أن المدن بطبيعتها هي المصدر لعمليات الاختمار والتغيير، فقد أدى تعاظم أهميتها في بعث قوة ديناميتية متينة جديدة في المجتمع. وتيسر للاتصال والاختلاط الذي تم بفضل السكك الحديدية ودوائر البريد والمطابع إزالة الحواجز الدينية والاجتماعية وكما أضعف من نفوذ السلطة.

وفي نفس الوقت فان نمو الطبقة المتوسطة قد أشاع جواً مفعما بروح التمرد والفوضى، وقد أدى هذا بدوره إلى مزيد من المعارضة لسلطة التقاليد القديمة. وإن الأهلين وعلى الأخص الجيل الجديد من بينهم، أصبحوا أكثر تجاوبا مع التأثيرات

انتشار الاسلام بفضل قيام سلطة المسلمين فى دلهى . وفى الأوانى الأخيرة جاءت المسيحية على أعقاب النجاح الذى صادفه البريطانيون فى بسط سيطرتهم على الهند .

إن الاسلام أو المسيحية فى تسريبها إلى الهند لم يعتمدا على مساندة عسكرية . على أنهما لم يجدا مكانة هامة فى البلاد إلا بعد النجاح الذى لقيه أتباعهما فى بسط سيطرتهم العسكرية ، وكان نتيجته التعسة أن اختلطت التأثيرات الروحية والمادية . والواقع أن المكائد السياسية التى كان الملوك المسلمون المتنافسون يحيكونها ضد بعضهم بعضاً ، قد حجبت التعاليم الجوهرية فى الاسلام . وكادت المسيحية بدورها تعرف بأخلاق الطبقات البريطانية الحاكمة ، وعلى ذلك أصبحت الديانات منخرطة فى سلك حكومة إمبراطورية ، ولا تترك حكومة إمبراطورية مجالا لأى وجهة نظر عقلية نقادة أن تنمو وتترعرع . إن التعليم يصوغ عقول الناس ويحدد طبائع الفرد والمجتمع على السواء . فقد عمد النظامان الامبراطوريان إلى إقامة التعليم على أسس التسليم المحض ومقاومة حركة النقد والاستطلاع .

بيد أن السنوات الأخيرة شاهدت تغيراً خفياً ولكن

الاسلام تمكن بفضل ديمقراطيته الثورية أن يهز دعائم نظرية المصادقة والوحى إلا أنه لم يوفق إلى هدمها. على أن تأكيد الاسلام لخاتمية الوحى شجع بدوره على قيام روح الاستبداد فى نفسه، وكانت الاتجاهات الرجعية والاستبدادية أكثر تجلياً فى المسيحية. وخلاصة القول فان جميع الديانات الهندية قد تضافرت معاً فى المساعدة على تحكيم النظام الاجتماعى المستبد. وطبيعى لكل من شب وترعرع فى بيئة كهذه أن تمر به الانقلابات والتغييرات الهادئة التى كانت تجرى من حوله دون أن يعيها أو يشعر بها. ولم يكن مثل هؤلاء أن يشعروا بالتطور إلا بعد أن قرب اكتمالها، وعندها بدأوا يدركون فى كثير من الدهشة الفرق الذى طرأ ما بين العهد القديم والعهد الجديد.

وهناك تعليل آخر للاستكانة التى تلازم وجهة النظر التقليدية الهندية. إن الاستعمار لا يتفق مع النزعات الراميــة لتحدى السلطة. وكلما دخلت ديانة جديدة فى الهند فقد لازمتها دائماً أبداً قيام امبراطورية جديدة. ففى العهود الهندية كان انتعاش البوذية والبراهمية أو زوالها، يتوقفان على ما يصيب أية أسرة إمبراطورية منافسة من نجاح. وفى القرون الوسطى ازداد

الشعب والخروج على النظام الذى يستدعى الأسف أو يحملهم على التنبوء بالمستقبل الرهيب المظلم الذى ينتظر الهند. ومهما كان الأمر فان موقف أفراد الجيل القديم ليس له ما يبرره أو يسوغه إذا ما قيس على أضواء الاعتبارات التاريخيـــة بدلالة أن الأفكار السياسية القديمة قد انهارت، والقيم الاجتماعية القديمة فقدت سيطرتها على النفوس، وأخذ النظام الاقتصادى القديم بالتداعى والانهيار إلى آخر الدرجة. وكذلك الديانة لم تعد مصدر عزاء أو سلوى كما كانت فى السابق. والقلق والريبة والتردد استحوذت على أفكار الناس وأعمالهم فى كل ناحية. وليس بالمستغرب الغريب بعد أن تلاشت القيم القديمة وانهارت أن الخديعة الهندية أصبحت قلقة حائرة وأحيانا ميالة للشغب.

وما أبداه الجيل القديم من قلق إزاء التطورات لم يكن غير متوقع أو غريب فى بابه، ذلك لأنهم عاشوا وترعرعوا فى بيئة تقوم أســسها على الطاعة للسلطة. وكانت الحيثية تحكم العلاقات السياسية والاقتصادية. والحيثية كانت ثابتة كثبات قوانين الطبيعة نفسها. وحتى الأديان فانها بفضل تأكيدها على أنها موحاة ومصدقة ساعدت على الاحتفاظ بالحالة السائدة. ورغماً عن أن

٧ — الشباب الثائر

من خصائص الهند الحديثة التي تسترعي الانتباه، موقف التحدي الذي يقفه أبناء الجيل الجديد، وهذا لا ينحصر في طبقة أو طائفة أو منطقة معينة. فإن موجة ثورية جامحة اكتسحت البلاد وتركت أثرها في الرجال والنساء من كل بيئة. والذلة المشهورة التي تنفرد بها طبقة الملاحين إما أنها زالت أو أنها في طريق الزوال السريع. وطبقة العمال الهنود دأبت على المطالبة بمستوى إنسانيـة من المعيشة والمعاملة، وكثيراً ما تمكنت من الحصول عليه. وطبقة الطلبة لم تعد تدين بالطاعة والاحترام للآخرين. وحتى النساء فقد أخذن يناضلن في سبيل مساواتهن في الحقوق مع الرجال. وقصارى القول فان قافلة الجيل الجديد بدأت تسير قدماً غير حافلة أو عابئة بحدود العهد الماضي وامتيازاته.

أما الشيوخ أو رجال العهد القـديم ومن بينهم رجال الحكم فكثيراً ما ينظرون إلى تحدى الشباب للسلطة، على أنه نوع من

تستمد أسسها من النشوة الفردية. أما الهندسة المعمارية فمكتوب لها ومحتم عليها فى جميع مراحلها أن تعتمد على الاعتبارات الاجتماعية.. ذلك أن إقامة وتشييد أثر معمارى فخم تستدعى تضافرا وتعاونا من عدد كبير من الأشخاص. ولا يكفى للمعمار الرئيسى أن يكون حاملا الشعور الفنى فحسب، بل ولا بد لزملائه أن يكونوا مثله. كما تقتضى أن يكون المجتمع بأسره مشبعا بوحدة الأهداف والأغراض. ويلاحظ أن أروع ضروب الهندسة المعمارية فى التاريخ وأضخمها إنما شيد وأقيم عندما بلغ المجهود المشترك الجماعى أقصى حدوده. وما الكنائس التى بناها القوط فى أوروبا والهياكل المحوتة فى الصخر التى تشاهد فى جنوب الهند أو المساجد العظيمة التى أشادها العرب إلا رمزا يعبر عن مجتمع موحد ينعم بالطمأنينة والسلام، والثابت أنه كلما تعرض التضامن الاجتماعى إلى الزعزعة فان الهندسة المعمارية كانت فى طليعة الفنون التى تضررت. وكذلك الحال فى التمثيل فانه للأسباب نفسها ما عرف انتعاشاً وازدهارا إلا حينما كان المجتمع متأثرا بمبادئ وأهداف مشتركة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفن الهندى فى جميع مظاهره العصرية جاء خلوا من عظمة الهندسة البنائية، ويضاف إلى ذلك من عظمة الدراما. على أن هذا لا يرجع إلى نقص فى طبيعة الهنود، فان آثارهم المعمارية القديمة تشهد بتذوقهم الذهنى للجمال. إن طابع التعقيد الذى يتجلى لنا فى مبانى المعابد فى جنوبى الهند يضارعه ما تعكسه هذه المبانى من متانة وعظمة. كما أن خطوط البناء التى تتجلى فى أضرحة الأباطرة المغول قد قصر وعجز عن تحقيقها وبلوغها عباقرة المهندسين المعماريين فى العالم أجمع. والواقع أن إخفاق الهنود فى التعبير عن ضخامة البناء وجسامته على وجه لائق ممتاز هو حديث العهد. ويعود السبب فى ذلك إلى طبيعة الهندسة المعمارية نفسها. وما ينطبق عليها ينطبق أيضاً على فن الدراما، وهو الميدان الذى لم يتسن للهنود فى الأعوام الأخيرة أن يحققوا ما سبق لهم أن حققوه فى الماضى من روائع.

إن الهندسة المعمارية تنفرد من جميع الفنون باعتمادها على التذوق الاجتماعى للجمال. إن فى وسع الشاعر أن يسبح فى عالم الفردية سعيا وراء فكرته، وقد يتسنى للرسام أيضا بلوغ درجات الكمال فى عزلته. كما تتعالى الموسيقى عن الفرد، ولكن كانت

بعيدا عن أقرانه وحسب بل وغريبا عن نفسه أيضاً. على أن انعدام التنسيق والترابط هذا لم يكن ليقتصر على الأشعار البنغالية فحسب، ولكنه يتجلى فى مختلف ميادين الفن الهندى المعاصر.

إن الاهتمام بالفرد يؤدى إلى تفكك الروابط الاجتماعية على عكس التقاليد والعادات، فهى تساعد على تراث المجموعة وتماسكها. وإن الشرط الضرورى لتأمين التماسك الاجتماعى فينحصر فى خضوع الفرد لأهداف المجموعة. وأما إذا ترفع الفرد عن المجموعة عند ذلك تبدأ الأنظمة الاجتماعية القديمة بالانهيار. وكثيراً ما تنعكس ظاهرة الانحلال الاجتماعى فى انبعاث الآداب والفنون بصورة عفوية. وذلك أن الفنون على أنواعها هى فى الواقع تعبير عن ذاتية الفرد. وقد يكفى للانتقاص من تحفة فنية والطعن فى جودتها أن يقال فيها أنها من نتاج عادى أو عام. يستنتج من هذا أن البيئة الاجتماعية التى تضحى فيها التقاليد على مذبح الفردية كثيراً ما تهيئ الجو لانتعاش الفنون وازدهارها. وأول ما لازم توسع الطبقة الوسطى فى الهند فى محاولات وتجارب فى ميادين الفن المختلفة لم يأت عفوا ولم يكن من باب الصدف

فى ملكيته منازع. وهذه الفردية هى أيضا من الصفات الملازمة للطبقات المتوسطة، وكما لا يخفى فى ذلك فان الحضارة البريطانية هى أيضاً بورجوازية على مستوى الطبقة الوسطى.

إن توسع الطبقة الوسطى بصورة غير طبيعية قد أوجد الظروف التى أدت بدورها إلى انهيار الأنظمة الاجتماعية الهندية القديمة. فقد شهدت البلاد قيام نزعة فى الجيل الجديد للحرية وميل للثورة على السلطة والتأب عليها. وأخذت الطبيعة القومية تنكشف عن روح جديدة من قوامها الفردية والاثارة والتشكك. وقد وجد الجيل الجديد ضالته فى الأشعار الانكليزية التى جاءت معبرة عن أمانيه بحكم إبرازها لحرية الفرد وتأكيدها لها. وكان هذا الغليان الفكرى أشد وأقوى ما يكون فى الاقليم البنغالى. إن الأشعار البنغالية بدأت منذ قدوم الأوروبيين تعكس طابع الفردية والاثارة والتشكك. وجذور الفردية هذه تغلغلت واستأصلت فى هذه الأشعار لدرجة أصبح معها الشاعر وحيداً فى عالم غريب. وتعتبر أشعار طاغور بما يتخللها من شجن وانكماش خير معبر عن هذه الروح. وقد استمرت هذه العملية إلى أن بلغت مرحلة غدا معها الفرد ليس

فوائده . فقد اقتصرت على الميادين الفنيـة بفضل ما كان له من أثر فى بعث روح الخلق والابتكار . إن الطبقــة المتوسطة فى البنغال بعد توسعها قد أنجبت نخبة من الأدباء قلما نجد لهم مثيلا فى الهنــد الحديثة وفى مقدمتهم الشاعر رابندرناث طاغور بشخصيته العالمية .

وقد ساعد هيجان المعرفة بالشعر الانكليزى على إنعاش الآداب البنغالية . على أنه من المغالاة أن نقرر هنا أن النهضة الحديثة مردها إلى هــذا الهيجان فقط . والواقع أن التربة كانت قد تهيأت وأصبحت صالحة بفضل الانقلابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحدثتها غزوة الرأسمالية الأوربية . ويعتبر تأثير الأشعار الانكليزية حاسما فى هذا المظهر الخلق فقط . ولقد سبق لنا وأن نوهنا بطابع العنف الذى يلازم الاختبارات والتعبيرات اللطيفة الانكليزية . إن الشعر الانكليزى يتميز بابرازه للعواطف والأحاسيس الشخصية أكثر من تميزه بالاتزان والكتمان ، وهما العاملان اللذان يعتبران محكا للكياسة والنظام الاجتماعى . إن الفردية التى ينفرد بها البريطانى لتتجلى فى نواح أخرى أيضا . فالبريطانى عادة ينظر إلى منزله كحصن لا ينازعه

بلغوا حظاً كبيرا من العرفان والفصاحة. وملحمة «رامايانا» التى وضعها تولسى داس[1] ما زالت تحتل مكانتها عند الأسر الهندية. وجلى ما فعله البريطانيون أنهم أطلقوا العنان لقوى اجتماعية جديدة وأسرعوا فى بعث أدب جاء أوسع مدى وجديدا فى روحه.

وقد ساعدت الانقلابات فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية على هذا الاتجاه. فقد سبق لنا وأن شاهدنا ما تعرضت إليه طبقات المجتمع فى البنغال من هزات كان لتعاظم الطبقة المتوسطة واتساع نفوذها أن ازداد الفراغ. كما أدى هذا التوسع بدوره إلى تأمين الطلب والفرصة للفنون. وإن نظام الملكية الدائمة قد أوجده طبقة متوسطة دائمة النمو والتوسع. وقد ألحق هذا النظام أضراراً بالغة فى إقليم البنغال من الناحية الاقتصادية، وبفضل ما ألحقه من شلل للنشاط الفردى وتحويل وسائل الاستثمار من التجارة والصناعة إلى الزراعة. أما فى الناحية الاجتماعية فقد خلق طبقة من أصحاب المصالح الثابتة التى اعترضت بدورها تقدم البلاد بأجمعها. وفى الناحية السياسية أقام هذا النظام حاجزا ما بين الطبقات الفقيرة والمستعمرين المستغلين. أما

1 Tulsidas

المكبوتة هذه تجـد لها منفذاً فى فنونهم . والواقع أن العاطفة تحلق عاليا لتبلغ أسمى الدرجات، حتى أصبح الشعر الانكليزى من أعطف ما عرف فى العالم.

وقد ساقتنا خصائص البريطانيين هذه وفنونهم إلى فهم القيم الأدبية على غير حقيقتها ، ذلك أن العاطفة الانسانية لمى جزء من العناصر الجوهرية بالنسبة إلى الآداب ولا تعتبر غاية فى حد ذاتها . ولا يوجد فى الآداب الانكليزية الوضوح الذى يميز آداب اللغات اللاتينية . فقد أثر هذا بدوره على تفاعلنا مع الشعوب الأخرى من غير البريطانيين . وآية ذلك أننا نحكم على حرارة الأمريكيين وإخلاصهم فى ضوء المعايير الاجتماعية عند البريطانيين . كما أننا نتوقع أن يتوفر الأسلوب المطلق عند الفرنسيين أو القانون الفنى عند الصينيين بنفس الوفرة من العاطفة التى نجدها فى الشعر الانكليزى .

إن الآداب المحلية كانت قد بدأت تنمو وتتطور حتى قبل حلول البريطانيين . ففى العهدين الباتانى والمغولى بلغ الشعر البنغالى مستوى عالياً من النضوج ، وكذلك فان الأشعار الروحية عند « الماراتيين » تتمتع بقيمة وإعجاب خالدين . كما أن كبيرا [1] وأتباعه

1 Kabir

تبعدها عن الطابع البريطانى، فان محاولاتنا لتقويمها ووزنها بمعايير الانجليزى قد باءت بالفشل، وإننا نسعى أن ننظر إلى الآداب الشرقية بالعيون الانجليزية. وكانت النتائج أحيانا مزرية تدعو إلى الرثاء، كأننا قد نسينا أننا لن نقدر أن نصبح إنجليزيين كاملين فى أفكارنا وشعورنا ووجهة نظرنا. وإن جل ما نستطيعه من هذا السبيل هو أن نصبح إنجليزيين نقليين، ولا يسمح للنقالين حقوق أبناء بلد العالم.

وجدير بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ناحية خاصة من التأثير البريطانى. إن البريطانيين من جهة تقاليدهم الاجتماعية وعلاقاتهم الذاتية أصبحوا أكثر شعوب العالم تحفظا وانكماشا. الرجل البريطانى العادى بفضل ماينفرد به من برودة الطبع والميلان قدأصبح مضرب الأمثال. إن الحيطة وعدم الاستعجال لهى من العوامل التى تتحكم فى حياة الفرد البريطانى الشخصية والاجتماعية. والواقع أن البريطانى له قدرة عجيبة على ضبط عواطفه بل وكبتها. ولقد ذهب نابليون[1] فى وصفهم إلى حد القول بأنهم مجموعة من أصحاب الحوانيت الذين يزنون الأشياء بالميازين الدقيقة، على أن هذا الوصف صورة لجهة واحدة، لأن عواطفهم

1 Napolean

التراث الهندي

همايون كبير

مجلس الهند للروابط الثقافية

الانتساب

أهدى هذا الكتاب فى تقدير ودى

إلى

جواهر لال نهرو

الذى كمثل « اشوكا » و « أكبر »

ساعد على اكتشاف وتمويل

التراث الهندى

—

مجلس الهند للروابط الثقافية

الرئيس : البروفيسور همايون كبير

يهدف المجلس — كما ينص دستورها — إلى إنشاء وإحياء وتعزيز الروابط الثقافية بين الهند والبلاد الأخرى بالوسائل التالية :

(١) التوسع في معرفة وتقدير لغاتها وآدابها وفنونها
(٢) إنشاء الروابط الوثيقة بين الجامعات والمعاهد الثقافية
(٣) اتخاذ جميع التدابير الأخرى لتنمية الروابط الثقافية

طبعه خليل شرف الدين بمطبعة «ق»، ٢٦، شارع ميمن وارا، بمباى ٣ (الهند)
بأمر السيد إنعام الرحمن
سكرتير مجلس الهند للروابط الثقافية، آزاد بهون، دلهى الجديدة

كلمة سفير الجمهورية العربية المتحدة

يسعدنى أن أرى « التراث الهندى » بين أيدى رواد العلم والمعرفة فى العالم العربى . إنه الكتاب القيم الذى يتناول الثقافة الهندية ببحث على رصين لا أثر فيه لنزوة العاطفة أو العصبية الاقليمية .

والسيد همايون كبير صاحب هذا الكتاب والوزير للشؤون الثقافية والأبحاث العلمية لحكومة الهند المركزية ينحدر من أسرة تميزت بما أنجبته من العلماء الأفذاذ ورجال الفكر ، فجده لأبيه هو خان بهادر امير الدين احمد من العلماء الذين برزوا فى اللغتين الفارسية والعربية وأحاطوا بأسرارهما ، وشغلوا من الدولة مناصبها الرفيعة . أما والده خان بهادر كبير الدين احمد فعدا المناصب الهامة التى تبوأها ومن بينها منصب القضاء كان من العلماء الذين يعتد بهم ويرجع إليهم فى المعضلات من الأمور .

فى هذه البيئة العلمية الخيرة ترعرع صاحب الكتاب وانطلق يعب من مناهل الغرب بعد أن أتم دراسته فى جامعة كلكتا .

المحتويات

وخروجها من هذا كله بثقافة موحدة تامة .

شرح لنا فى أسلوبه العلمى الممتع كيف تناولت عمليات التنسيق مختلف النواحى الثقافية والاجتماعية والفنية . ولم تفته الاشارة إلى إخفاق الهند فى تحقيق وحدتها السياسية آن ذاك ، رغماً عما بذلته من جهد متواصل فى هذا السبيل .

وامتاز المؤلف فى عرضه للحقائق وأثرها عرضاً اتسم بالنزاهة والتجرد ، فكانت أحكامه أرفع من أن يعلق بها هوى فى النفس أو اندفاع فى العاطفة . لقد فصل مدى تأثير الاسلام فى الاتجاهات الفكرية الهندوكية ، ولكنه لم يتردد فى التنوية بما تركته هذه الاتجاهات من آثار فى بعض المذاهب الاسلامية . وكان الكاتب جد موفق فى تتبعه للحركات التحريرية التى تمخض عنها الضمير الانسانى القلق . وكيف اتخذت تلك الحركات فى الهند أسلوبا فريداً مستمداً من روحانيتها المسالمة لاسترداد حريتها المغصوبة واسترجاع استقلالها السليب .

دافع المؤلف دفاعا مجيدا عن حرية بلاده وبين بكل وضوح وجلاء ما تتمتع به الهند من قيم عالية تمكنها من المساهمة مع

عرفت فيه جامعة اكسفورد الطالب المتفوق كما عرفت فيه جامعتا إيدرا وكالكتا المحاضر الكفء والأستاذ النابه القدير. وفى عام ١٩٢٧ انتخب عضواً للمجلس التشريعى ومستشاراً لشؤون التربية والتعليم فى الحكومة المركزية. وخلال هذه الفترة تكشفت للرأى العام ما يتحلى به من أدب رفيع وعلم غزير. وعندما رشحه إخوانه للدورة النيابية كان فى طليعة المجلين، وكانت حياته النيابية الحافلة بالدراية والحكمة والعمل المثمر خير حافز لولاة الأمور على إسناد منصب وزارى إليه.

إن السيد همايون كبير جمع فى إنتاجه الأدبى بين محاسن الثقافة الشرقية فى روحانيتها الصرفة وبين روائع الثقافة الغربية فى نهجها العلمى فكان لانتاجه طابع خاص تلاقى عنده ما فى الأدب من جمال وما فى العلم من جلال.

استعرض المؤلف الثقافة الهندية فى تطورها وتفاعلها مع الثقافات المتعددة المتباينة التى حملتها إلى الهند الغزوات المتتالية من الخارج، فأثبت على وجه لا يقبل الطعن والشك التوفيق الذى حالفها فى الإبقاء على شخصيتها وذاتيتها وقدرتها على التنسيق والتأليف بين هذه الثقافات واقتباسها منها ما ينسجم وطبيعتها،

تقـــديم

لآلاف السنين تدفق النفوذ الخارجى على الهند من الدول المجاورة لها مباشرة ومن الدول التى تبعد عنها بكثير ، كما انصب النفوذ من الهند وأثر على حياة الملايين الذين ربما ليسوا على علم بمصدر هذا النفوذ. ولقـــد ساهم اتساع أراضيها واختلاف مناظرها الطبيعية وأجوائها وتاريخها العريق، مع هذا التبادل بالبلاد الأجنبية ، لتكسب الثقافة والحضارة الهندية ثراء وتركيباً لا يضاهيه فيه إلا الشاذ القليل . ولقد صدق ما ورد فى كتاب هندى قديم أن كل ما يوجد فى عالم البشر موجود فى الهند .

ولدينا شواهد تدل على اتصالات بين الهند والشرق الأقصى ، وبينها وبين دول غرب آسيا منذ بداية التاريخ المقيد . وهناك تقاليد أقدم للتبادل التجارى والتعاون فى ميادين الفكر والثقافة بين الهند القديمة ومصر القـديمة. وتشترك التقاليد والتاريخ أيضاً بالنسبة إلى الاتصالات مع الصين القديمة . وعلى هذا يحق القول إنه منذ العصور الأولى لتاريخ الهند امتدت وتوسعت اتصـالات

المجموعة العالمية فى بناء عالم أفضل فيما إذا قدر لها أن تتحرر من يد الاستعمار. وقد شاهدت الأيام أن يرى وهو على قيد الحياة أصالة رأيه وبعد نظره وصدق إيمانه بقيم شعبه. فلم تمض على نشر كتابه هذا بضع سنين حتى فازت الهند بسيادتها وأخذت تعبىء قواها الضخمة فى دعم السلام وفى بناء عالم أفضل وأسعد يقوم على احترام كرامة الانسان.

وإنه لمن دواعى سرورى أن أزف هذا السفر العلمى إلى قراء العربية ليتزودوا من مادته الغزيرة وليتعرفوا من خلالها إلى تاريخ هذه الأمة الخالدة.

عمر أبو ريشة

الاتصالات فحسب، بل أخذت جذورها تتعمق على مر العصور، كما دعمت الاتصالات التجارية بين الهند وبين البلدان العربيـة قبل الاسلام. ولدينا براهين على أن التجار العرب جاءوا إلى الهند برسالة الرسول بعد ظهور الاسلام مباشرة، ودخلوا بهذه الرسالة إلى تلك الجهات البعيدة فى شبه القارة الهندية كـ «كاليكوت[1]» و «تشيتا جونج[2]» ولا نسرف إن قلنا إن الهند قد ساهمت فى النهضة العربية التى جعلت من الشعوب العربية روادا للحضارة البشرية ومنورى الطريق لها لأكثر من أربعمائة عام. وبما يمتاز به العرب من كرامة النفس، فقد اعترفوا بما يدينون به للهنـد باطلاق أسماء الأعداد الهندية على أعدادهم، كذلك بتسمية أنواع خاصـة من الفولاذ المصنوع فى البلدان العربية بالحديد الهندى.

ولقـد زادت الاتصالات بين الهند والدول العربيـة فى العصور الوسطى زيادة مستمرة ولم يجلب انتشار العقيدة الاسلامية فى أول يقظتها دراسة القرآن الكريم فحسب، بل جلب أيضاً فلسفة العرب وعلومهم وآدابهم. ولأكثر من ٨٠٠ عام ظلت

1. Calicut 2. Chitagong

إلى المحيط الهادى شرقا وإلى المحيط الأطلسى غرباً .

ولقد أسفرت التنقيبات الحديثة عن الشواهد التى تدل على أن الاتصالات بين الهند وغرب آسيا كان أوثق مما كنا نعتقد سابقاً . ولأزمان بعيدة كما تدلّ أن إيران والهند ما زالتا فى التأثير المتبادل منذ نحو ثلاثة آلاف سنة ، فى حين أننا وقفنا أخيرا على أن الاتصالات بين الهند والدول الواقعة فى غربها ترجع إلى أجيال أبعد ، وهى أكثر نفوذا . وسرعان ما أمكن التعرف على العلاقة والامتزاج بين ما عرف عن حضارة وادى الاندس وبين الحضارة السومارية . ونحن نعرف اليوم بأن حضارة وادى الاندس لم تقتصر على وادى الاندس فحسب ، بل امتدت إلى أقصى الشرق وإلى الجنوب . والحقيقة أنه تبين لنا بوضوح تام أن نفس الحضارة أو مثيلاتها من حضارات قد انتشرت انتشارا متواصلا ما بين شواطئ نهرى الدجلة والفرات إلى الشاطئ الغربى فى الهند على أقل تقدير إلى سورت[1] الحديثة فى الجنوب .

فالاتصالات بين الهند وبين ما يعرف حاليا بالبلدان العربيـة ، قد بدأت قبل فجر التاريخ المقيد ولم تستمر هذه

1. Surat

وتقدم المعمورة جمعاء.

طبع كتاب «اندين هيريتيج»[1] (التراث الهندى) أولا قبل أن نالت الهند حريتها. وقد أضفت إليه بابا يحتوى على المقدمة وكذلك تعليقا فى الأخير. ولكنى فى نفس الوقت تركت النص على ما هو الآن. فهى محاولة لوصف نماء الحضـارة الهنـدية والثقافة كمزيج من عناصر اختلفت عدتها. ومن بين هذه العناصر التى تعتبر أغنى وأكثر ابتكاراً، الأفكار المركبـة والمؤسسات التى ساهم فيها الشعب العربى أيام أوج مجدهم. وعلى هذا إنى مسرور أن توجد الترجمة العربية لدراساتى عن مصادر وطبيعة الثقافة الهندية. ولى وطيد الأمل أن يقدم هذا لأصدقائنا فى الدول العربية علما عن السعى المتواصل من أجل التعاون والامتزاج الذين كانا عنصرين أساسيين للروح الهندية على مر العصور.

وإنى مـدين بالشكر لسيادة الدكتور عمر أبو ريشـه والذى كان حتى الآونة الأخيرة سفير الجمهورية العربية المتحـدة لدى الهند، حيث أن إحساسه واهتمامه كانا السببين الرئيسيين لهذا النص

1 Indian Heritage

فلسفة العرب ولغتهم وآدابهم من العناصر الهامة الرئيسية فى مجمل التعليم الهندى. وتداخلت المدنيتان العظيمتان الهندية والعربية الواحدة مع الأخرى وعلى مستويات عديدة وأضافتا بكثير إلى ثراء وتركيب التعاليم البشرية.

وللأسف أن هذه الاتصالات الوثيقة ضعفت فى بحر المائة والخمسين عاما المنصرمة تقريباً. ورغما على أن الاتصالات بالحضارة والثقافة الأوربية قد درت على الهند بأرباح كثيرة إلا أنها أثرت على الثقافة الهندية، وأدت إلى نوع من الافتقار، وذلك عن طريق قطع اتصالاتها مع جاراتها فى الشرق والغرب. وتطلعت الهند بوجه عام لأكثر من ٢٠٠ عام تقريباً إلى أوروبا وإلى بريطانيا بوجه خاص. ولقليل من الزمن، نسيت الهند تلك الثروة والكنوز التى تبادلتها مع العرب والدول الأخرى فى آسيا وأفريقيا. وفى العقود الأخيرة حاول طاغور إرجاع بعض هذه الاتصالات، ولكن قد تم استرجاع اتصالاتنا مع العرب والدول المجاورة بالكلية بعد أن نالت الهند حريتها. والواقع أنها لم تسترجع فحسب بل زادت وكبرت. وأصبح التعاون والصداقة بين الهند والعرب عاملا هاما لصيانة السلام

التراث الهندي

العربى لمؤلفى. ولم يشرف سيادته على تعريب الكتاب فحسب، بل ضاعف من دينه على باضافة مقدمة مملوئة لطفا وجمالا. ولقد كان مقام سيادته طيلة أيامه فى الهند ممثلا حقيقيا للروح العربية لحب التعليم والمعرفة والتسامح والجود. وبكونه شاعراً وفيلسوفا منقطع النظير، فسر نشاط الروح العربية للهند كما بلغ رسالة الهند للواطنين العرب. وتشهد أشعاره على المواضيع الهندية بأنه حبيب حميم للهند وروح حرية الفكر فيها. فترك بعده أحلى ذكريات الود والتأكيد فى أنه مهما ذهب فانه سيعمل ليوطد الصداقة الهندية العربية كحجر أول نحو صداقة بين شعوب العالم بأسره. وإنى سأعتبر ما قمت به من عمل قد أثمر إذا ما ساهم «التراث الهندى» ولو مساهمة بسيطة، فى الوصول إلى هذا المأرب.

دلهى الجديدة ٤ سبتمبر ١٩٥٩ همايون كبير

المقدمة

لعل فى إيراد ملخص لتاريخ الهند السياسى ما يساعد على تفهم ما تم فى الثقافة الهندية من عمليات التوحيد والتنسيق ، وهى موضوع دراستنا ومعالجتنا فى هذا الكتاب . ولما كان تاريخ الهند يرجع إلى خمسة آلاف عام خلت ، فمن الطبيعى أننا لا نتمكن فى النطاق المحدود من صفحات هذا الكتاب أن نأتى بعرض واف للأحداث التاريخية التى تعاقبت فى تلك الحقبات من التاريخ . وعلاوة عن ضيق المجال ، فان الوقت لم يحن بعد لوضع تاريخ مفصل شامل لحياة الشعب الهندى من الناحيتين السياسية والاجتماعية

أن هذه الحضارة كانت مقتصرة على منطقتى « موهنجودارو »[١] و « هرابا »[٢]، وإن كان قد عثر على بعض آثارها فى الحقبة الأخيرة فى وادى نهر « الستلج »[٣] فى « جيسلمير »[٤] من أعمال « راجستان »[٥]. وامتدت هذه الحضارة إلى أبعد من ذلك جنوباً حتى « لوتال »[٦] الواقعة على مقربة من « أحمداباد »[٧]. وقد غدا من الواضح الآن أن هذه الحضارة القديمة لم تنحصر فى وادى الاندس، بل انتشرت شرقاً وجنوباً وشمالاً نصف شبه القارة الهندية.

ولا يمكن الفصل بصورة قاطعة فى حقيقة السكان الذين استوطنوا منطقتى موهنجودارو وهرابا أو التثبت من الأماكن التى نزحوا إلى الهند منها، لكن البقية الباقية من آثارهم تشير إلى وجود تشابه مدهش بينهم وبين سكان « سومر »[٨]. وللمؤرخين فى هذا التشابه تعليلات شتى، فيرى بعضهم أن هذه الحضارة امتدت من حوض الاندس باتجاه غربى حتى بلغت شواطىء دجلة والفرات. واعتقد البعض الآخر بأنها وصلت إلى الهند من « سومر ». ومهما كان الأمر فإن هذه الحضارة كانت قد بلغت درجة من النضوج

1 Mohenjodaro
2 Harappa
3 Sutlej
4 Jeisalmer
5 Rajasthan
6 Lothal
7 Ahmadabad
8 Sumer

وقد شرع المؤرخون قبل خمسة وعشرين عاما فى سرد أحداث الهند التاريخية إلى نزوح الآريين إليها، والواقع أن معلوماتنا عن الحقبة التى سبقت العام ٦٠٠ ما قبل الميلاد ما زالت حتى يومنا هذا محدودة غير كاملة، كما أن الصعاب التى يجابهها المؤرخ من هذه الناحية لا تقتصر على العصور القديمة، وتجاوزها إلى الفتح الاسلامى، بالرغم من وجود بعض الوثائق والمستندات عنها. أما الفترة المنسوبة بالعهد البريطانى، القريبة العهد منا فانه ما لدينا من وثائق عنها لكثيرة. وبما أن هذه الأحداث لا تزال قريبة العهد منا فلا تمكننا من أن نقوم لها بتحليل نزيه بعيد عن الهوى، وجل ما نحتاج إليه إيفاء للغايات المقصودة من هذا الكتاب، هو رسم صورة عامة للأحداث. وأملنا أن يكون هذا العرض الخاطف مرجعا أساسا للقراء الذين ليسو على إلمام بتاريخ الهند.

وتدل الاكتشافات الأخيرة على قيام حضارة راقية منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد فى المناطق الشمالية والشمالية الغربية من الهند. وهى الحضارة التى كثيرا ما تعرف بحضارة وادى الاندس[1] وكانت البراهين القائمة حتى المدة الأخيرة توحى

1 Indus

ويؤخذ من إحدى النظريات أن أهم أثر لهذه الحضارة يتجلى في مزايا الهنود وطبائعهم أن لم يعرف عن الآريين الذين عاشوا في أنحاء العالم الأخرى أنهم كانوا أمة ذات نزعة سلمية. والواقع أنهم اشتهروا بنزعتهم إلى الحروب وميلهم إلى القتال. ومما ليس من المشكوك فيه أن موقف الهنود المعروف حيال الحرب والعنف يرجع في أصله إلى أرومة آرية. أما النزعة السلمية التي تجلت في سكان منطقة موهنجودارو وهارابا، فكانت في رأى بعض المؤرخين من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى اندحارهم أمام جحافل الآريين. ولعل الآريين إذا ما قيسوا بمعايير الحضارة كانوا دون سكان منطقتي موهنجودارو وهارابا تمدنا، على أن ما عرف عنهم من شدة البأس المران في الشؤون الحربية، أتاح لهم النصر والغلبة على خصومهم.

وبقدر ما تصل إليه معلوماتنا من مدى فإن الآريين أخذوا يتوافدون على الهند حوالى العام الألفين قبل الميلاد. إلا أن هجرتهم هذه لم تكن على نطاق أوسع، ولم تنطو على حركة تنقل واسعة. والمفهوم أن جماعات منهم شقت طريقها عبر المناطق الجبلية التي تحمى الحدود الشمالية للبلاد الهندية. ويجب ألا يغرب عن

حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. ولذا يجوز لنا أن نقرر أن بدايتها ترجع إلى ما وراء ذلك التاريخ بخمسمائة عام.

وتعتبر حضارة وادى الاندس من أول العناصر المؤسسة فى تكوين الثقافة الهندية. ولقد استمرت آثار هذه الحضارة إلى يومنا هذا، الأمر الذى حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنها هى الأم للهند الحديثة. وقد يكون هذا الادعاء مبالغا فيه بعض الإغراق ولكنه حقيقة واقعة. ونحن نعرف ثقافة الهند التاريخية من عدة وجوه عن [illegible] ويبدو أن حضارة موهنجو دارو وهركبت فى مدن [illegible] الحياة الهندية تنهج عموما على مر القرون من اليسير [illegible] الأمر، ومن آثارها ما [illegible] يكشف لنا من الحياة التى يحياها أفراد الشعب. والواقع أن الأزياء والأدوات المنزلية والأوانى الفخارية التى ما زالت تستعمل حتى يومنا هذا إنما يرجع أصلها إلى عهد موهنجو دارو. وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن بعض المعتقدات الدينية القائمة فى الوقت الحاضر كالاعتقاد بالأم الإلهة وتقديس [illegible] وعبادة شيفا[1] إنما ترجع فى أصلها إلى تلك الثقافة القديمة.

1 Shiva

بالخالق والتعاليم الفيدية وبفلسفة تقمص الأرواح لا تزال وحدها أساساً للعقيدة الهندوكية على وجه التقريب. ومن أبرز آثار الآريين فى البلاد، تقسيم المجتمع الهندى على أساس المهن إلى أربع طبقات، وتقسيم حياة الفرد إلى مراحل أربع. ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن المجتمع الآرى الحديث الذى وجد فى الهند ما بين العام الألف والعام الألف والخمسمائة قبل الميلاد لا يزال حتى يومنا هذا يعتبر أساساً للحياة عند الهنادكة الذين تتألف منهم أغلبية السكان.

ولا تتوفر لدينا مصادر تاريخية مضبوطة تميط اللثام عن المراحل الأولى لاستيطان الآريين للهند، على أنه من الميسور رسم صورة عن حياة السكان فى تلك الحقبة من بطون الملاحم وغيرها من المصادر الأدبية الهندية. وأهم هذه الملاحم ملحمتى رامايانا ومهابهارتا. ويؤخذ من رواية رامايانا أن هناك حقبة أقدم من هذه، لم يتمكن خلالها الآريون من بسط سيطرتهم على الهند بأسرها. ويميل بعضهم إلى اعتبارها سجلا لتسلل الآريين إلى المناطق الجنوبية من الهند. وقد وردت عدة إشارات إلى قيام الآريين ببناء المدن، ولكن من الواضح أن أهم المدن وأعظمها شأناً قد بناها واستوطنها أناس من غير الآريين. ذلك أن أغلبية العناصر

البال أن عملية العبور هذه قد استغرقت عشرات من السنين، إن لم تستمر طوال القرون. وكانوا قوما رحلا والماشية من أهم مصادر الثروة عندهم، وإن ورد فى شعرهم القديم ما يشير إلى اهتمامهم بالزراعـــة. ومما لا يستبعد أنهم برعوا فى استخدام الحديد وترويض الخيل، على عكس ما كان عليـه سكان منطقـة «موهنجودارو»، وذلك مما ضمن لهم التفوق عليهم فى ميادين الحرب ومهد السبيل إلى الانتصار الآرى.

وقد حط الآريون رحالهم فى القرى، وبعد أن استقروا فيها أخذوا يعملون على تنمية ذلك النمط من الحياة الريفيـة الذى استمر إلى يومنا هذا دون أن يطرأ عليه تغيير أساسى. وتأثرت مؤسساتهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية وأساليب عاداتهم بما كان يسود الهند فى ذلك الحين من معتقدات وطقوس، إلا أنهم بدورهم تركوا أثرا فى حيـاة سكان البلاد الأصليين. وليس من الثابت ما إذا كان الآريون حملوا الأسفار الفيدية معهم أم قاموا بتأليف التراتيم الفيدية بعد وصولهم إلى البلاد. وسيان أكان الأمر هذا أو ذاك، فإن هذه الأسفار أصبحت بالنسبة إلى أغلبية سكان الهند مصدرا للمعتقدات الدينية. والواقع أن الايمان

بعنصرهم ويؤكدون في المراحل الأولى من استيطانهم البلاد يتفاخرون بلونهم المميز. وفي احتقارهم وامتهانهم لأعدائهم من ذوى البشرة السمراء. ومصادر خطيرة لذلك العصر من الذين يتعصبون للنظرية القائلة بتفوق الجنس الأبيض. أما الأسباب التى حملتهم على الاعتراف بـ«راما» و«كرشنا» كأبطال وآلهة فما زالت سرا من الأسرار، وإن كان في الإمكان تفسيرها وتعليلها بأنها حركة دبلوماسية بارعة من هذه الآريا الجديدة في كسب ود سكان البلاد الأصليين.

وما إن استقر بهم الحال حتى غدت نظمهم الاجتماعية أشد صرامة، كما أن التقسيم المحقق السائد للمجتمع مهنيا وهو التقسيم الذى كان متبعا منذ العصور السالفة أخذ يتحول إلى تقسيم على أساس الطبقات. وشهدت البلاد لمدة طويلة نزاعا لانتزاع السلطة والسيادة بين طبقة البراهمة أو القساوسة الهندوك وبين طبقة «الكشتريين»[1] أو طبقة المحاربين. وقد نجح البراهمة مع مرور الزمن في بسط سيطرتهم على المجتمع الهندى بأسره، كما أخذت الديانة الفيدية البسيطة تنهار أمام ديانة البراهمة التى كانت تهتم بإقامة طبقة من الأكليروس وتعنى بطقوس العبادة. ويلاحظ أن

1 Kashattriya

الآرية قد آثرت الانصراف إلى الشؤون الزراعية رغماً عن اتساع المجال للقيام بنشاط ارتيادي على أطراف المستعمرات التي أقاموها.

وفي عهد مهابهاراتا خضعت الهند بأسرها للنفوذ الآري. ومع أن الآريين أقاموا وشيدوا بأنفسهم عدداً من المدن الفخمة إلا أن أغلبيتهم استمرت تعيش في المناطق الريفية. أما نمط الحياة الذي اختاره الآريون لأنفسهم فلا يختلف كثيراً عن نمط الحياة السائد في الوقت الحاضر. وفي عهدهم شهدت التجارة انتعاشاً وراقت الأسواق رواجاً. ولكن مما يجدر بالملاحظة أن الآريين مع ذلك كانوا يعتمدون على غيرهم من البنائين والمهندسين العاديين في تنفيذ مشاريعهم الجبارة.

ويلاحظ أن شخصيتي «رام»[1] و«كرشنا»[2] تسيطران على هاتين الملحمتين، وإن كانت الفترة التاريخية التي عاشا فيها لم تعين بعد. وليس من الثابت حتى الآن إذا كان رام شخصاً واقعياً أم أنه في عداد الملوك المتألهين. وما يحيط به من شكوك تحيط أيضاً بشخصية كرشنا. والجدير بالملاحظة فيما يتعلق بهما أنهما كانا من ذوي البشرة السوداء، في حين أن الآريين كانوا من ذوي البشرة

1 Rama 2 Krishna

نظريات التصوف، فقد حث على حسن المعاملة أو السلوك كما رسم طريقا ذات المبادئ الثمانية التي يتسنى بواسطتها للانسان أن يعيش مع أخيه الانسان بسلام واطمئنان.

وخرج بوذا عن جادة الطقوس وصرامة النظام الطبقي التي غدت طبيعة ملازمة للمجتمع الهندي في ذلك الحين ولم يكن نفوذه يقتصر على الهند فحسب بل تعداها مع مرور السنين إلى العالم بأسره.

وتعتبر غزوة الاسكندر للهند في عام ثلاثمائة وستة وعشرين ما قبل الميلاد أول تدوين وتقويم للتاريخ الهندي، وعلى الرغم من أن الاسكندر لم يمض في التوغل داخل الأراضي الهندية. غير أن غزوته للهند يسرت للعالم الغربي معلومات جمة عنها. فقد اصطحب الاسكندر إلى البلاد عددا من العلماء والفلاسفة والمؤرخين اليونان، وقد قيل إن أرسطاطاليس أعرب عن رغبته في مناقشة أحد الفلاسفة الهنود في النظرية الهندية المتصلة بموضوع ما وراء الطبيعة. ويؤخذ من بعض الأساطير أن الاسكندر تحقيقا لرغبة أستاذه ومعلمه أرسطاطاليس عند مغادرته للهند كان قد اصطحب معه عددا من العلماء الهنود. ومن الثابت أن الاتصالات القديمة التي قامت ما بين غربي آسيا والهند قد تعززت أكثر فأكثر بفضل هذه الغزوة.

المجتمع الآرى القديم كان يقوم على أســاس الانتخابات وفى جو نظامهم الاجتماعية الديموقراطية. وقد أخذ هذا النظام الاجتماعى مع مرور الزمن يتحول إلى أمارات ملكيـة ومجتمعات كهنوتية فى روحها وشكلها.

وبقيام عهد «بوذا»[1] و«مهافيرا»[2] دخلت الهنـد فى عصرها التاريخى، فالمعروف أنه حوالى القرن السادس قبل الميلاد شهــد العالم إذ ذاك انتعاشا ثقافيا وروحيا. وكان المعلم الصينى «كونفيوشس» والمصلح الايرانى «زردشت» من الشخصيات المعاصرة لبوذا، كما أن نفس الحقبة شاهدت بعثا روحيا عند بنى إسرائيل فى فلسطين. ومهما كانت العوامل التى أدت إلى هـذا الانتعاش الروحى، فان الحركات الدينية التى نتجت عنها وتبلورت فيما بعد، كان لها تأثيرها البعيد فى تاريخ البشرية. ولسنا معنيين فى هذا العرض المقتضب بازاء ما خلفـه كونفيوشس وزردشت وراءهما من آثار، ولكنا سنكتفى بالاشارة إلى أن آثار بوذا كانت من أعظم الآثار فى تاريخ الانسان. ولعله أول من حاول تعليل سر الوجود على وجـه منطق دون الرجوع أو الاعتماد فى ذلك عـلى

1 Buddha   2 Mahavira

الاقتصادية والسياسية.

ويتولى «أشوكا»[1] حفيد «شندرجبتا» الحكم، خضعت الهند بكامل أجزائها تقريبا «للامبراطورية المورية». وقد خلف أشوكا وراءه نهجاً قويا وعدة مراسيم فى مختلف أنحاء البلاد تتضمن نصائحه وإرشاداته لشعبه. والمفهوم أنه اضطلع بحرب واحدة عندما غزا «كالنجا» المعروفة حاليا بولاية «أوريسا» وتغلب عليها. والمعتقد أن إمبراطوريته كانت أعظم اتساعا وشأنا من الامبراطوريتين اللتين أسسهما والده وجده. ولا تتوفر لدينا أية وثائق لتعليل الأسباب التى أدت إلى توسع هذه الامبراطورية، وامتداد أطرافها. ويعزو البعض هذا التوسع إلى النظام الاتحادى الذى قامت الامبراطورية على أساسه. ثم إقبال الولايات الصغيرة المتاخمة لها على الانضمام إلى هذا الاتحاد بمحض إرادتها واختيارها.

أما حكم أشوكا فيمكن وصفه بأنه حكم أبوى عادل، فقد كان يعتبر نفسه وصيا وقيما على شعبه لا فيما يتصل بثرائهم ورفاهيتهم المادية فحسب بل فيما يتصل أيضا بشؤونهم الأخلاقية والروحية،

1 Asoka

وكانت أول إمبراطورية عرفتها الهند قد شيدت بعد انسحاب الاسكندر على الفور. وهناك أساطير كانت تشير إلى قيام امبراطوريات حققت وحدة البلاد، إلا أن هذه الأساطير لم تخرج عن نطاق الخرافة وليس ما يثبت صحتها. ومن الناحية الأخرى فقد كان «شندرجبتا موريا»[1] شخصية تاريخيـة نجحت فى تشييد إمبراطورية امتدت أرجاؤها من أفغانستان حتى حدود البنغال. وكان يحتفظ بجيش مجهز كامل العدة، ويعود إليه الفضل فى استحداث نظام حكومى تتولاه وترعاه هيئات معينة، والمعروف أنه عهد إلى لجان وهيئات خاصة القيام بأعمال إدارية واضحة المعالم كما اتخذ إجراآت معينة لتنمية الزراعة والتجارة والصناعة. وكان يستقبل فى بلاطه مبعوثين عن الملوك الأجانب. ونجد فى رواية «ماجستانيس»[2] اليونانى أول عرض يقوم به أجنبى لحياة ومعابد البلاد فى تلك الفترة. ويدعى بعضهم أن التجديدات المتعددة التى أدخلت على الجهاز الحكومى إنما تحققت بفضل «شانكيا»[3] رئيس الوزراء الذى أجمعت المصادر التاريخية على وجوده وعلى وجود «كوشليا»[4] صاحب أول رسالة هندية فى الشؤون

1 Chandragupta Maurya 2 Magasthenes 3 Chanakya
4 Kautilya

كانت تقاوم النزعة الحربية مهما كانت أسبابها ودواعيها. ومهما كان الأمر، فالمعتقد أن أول غارة قام بها «البكتريون»[1] على منطقة البنجاب وقعت حوالى سنة ٢٠٠ ق.م. على أنه يجب أن لا يفهم من هذا أن البلاد لم تبد مقاومة فى وجه الغزاة. فهناك من الأدلة ما يثبت أن «بوشيامترا»[2] قد صد أحد الملوك البكتريين اليونانيين ورده على أعقابه، وإن كانت مقاومته هذه موقتة. ومما يثبت ذلك قيام عدد من الأمارات اليونانية فى النواحى الشمالية الغربية من الهند فى هذه الفترة. ومن بين الذين اكتسبوا شهرة واسعة من الأباطرة اليونانيين الهنود ملك يسمى «ميندر»[3] وهو الذى يعرف فى الأساطير البوذية باسم «ميلندا»[4].

أما فترة الحكم الواقعة ما بين سقوط الامبراطورية المورية فى القرن الثانى ما قبل الميلاد وقيام امبراطورية «جبتا»[5] فى القرن الرابع بعد الميلاد فقد تميزت بالفتن والاضطرابات على الأقل فيما يتصل بشمالى الهند. وبتداعى النفوذ الامبراطورى استمرت القبائل الجديدة تتدفق على البلاد. وجاء على أعقاب حكم الأباطرة

1 Bactrians
2 Pushyamitra
3 Menandar
4 Milinda
5 Gupta

وكان أشوكا أشد الحكام تحمسا للبوذية والداعين إليها. وقد بذل كل ما فى وسعه لنشرها داخل البلاد الهندية وخارجها على أنه دأب على عدم التمييز بين البوذيين وأصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى. ومن أقواله المأثورة التى وردت فى إحدى مراسيمه «إن المؤمن الورع يحرص على احترام جميع الأديان». وواقع الحال أن انتشار البوذية إلى ما وراء الشواطىء الهندية إنما يعود فى الدرجة الأولى إلى رعايته وتشجيعه لها ويستدل من بعض السجلات والوثائق أن أشوكا قام بإيفاد بعثات تبشيرية إلى سيلان وغرب آسيا ومصر. ويقال إن هذه البعثات توجهت أيضا إلى بورما والصين واليابان.

وبعد وفاة أشوكا أخذت الامبراطورية المورية فى التصدع والانهيار. أما العوامل التى أدت إلى انهيار سلطة الموريين فليست معلومة على وجه التعيين. ويذهب بعضهم إلى تعليل هذا ورده إلى الغزوات الجديدة التى تعرضت لها الهند من حدودها الشمالية الغربية فى وقت كانت تعانى فيه ضعفا من الناحية العسكرية. ويرد هذا الضعف إلى حد ما إلى فترة السلام الطويلة التى شهدتها البلاد فى ظل العهد المورى، وإلى حد ما إلى تأثير التعاليم البوذية التى

شهدت توطيد الامبراطورية وتدعيمها بانتعاش ثقافى، مما حمل البعض على وصف عهد «جبتا» بالعهد الذهبى فى تاريخ الهند. والواقع أن استتباب الأمن والنظام فى عهد «جبتا» بعد فترة الاضطرابات والقلاقل التى سبقته قد جاء بشيرا بالخير والرخاء. فانتعشت التجارة والزراعة كما نعمت البلاد بفترة من السلام والرفاهية. وازدهرت فيها الفنون على مختلف أنواعها وأشكالها. والمعتقد أن أروع ما أنجبته الهند فى عالم النحت والرسم يرجع إلى هذا العهد فقد كان هذا العهد عهد انتاج وانتعاش للشعر السنسكريتى. وذلك لأن «سمندر جبتا»[1] لم يك مجرد فاتح عظيم فحسب، ولكنه اختص العلوم والموسيقى برعايته وعطفه. أما «شندر جبتا» الثانى الذى كان يعرف «بشندر جبتا وكرمادتيا»[2] فانه يعتبر من أعظم ملوك الهند القدماء، والمعتقد أن أشهر شعراء السنسكريتية «كاليداس»[3] كان شاعر بلاطه.

وبسقوط الامبراطورية المورية أصيبت البوذية بنكسة. والواقع أنها فى عهد أعضاء أسرة «جبتا» المالكة لم تعد الديانة

1 Samundra Gupta
2 Chandra Gupta Vikramadittya
3 Kalidas
4 Fashen

«اليونانين البكتريين»[1] على التوالى الأباطرة «الهنود البرثينيون»[2] فـ «السكيون»[3] و «الكنشيون»[4]. وعندما أسس «كانيشكا»[5] إمبراطوريته فى عام ٧٨ ما بعد الميلاد نعمت البلاد بفترة قصيرة من السلام النسبى، وبنصيب من التدعيم والتوطيد. والمعروف أنه كان بوذيا واتخذ «برشابور»[6] أى مدينة «بشاور»[7] الحالية عاصمة له، وقد ساس إمبراطورية واسعة امتدت من آسيا الوسطى حتى أواسط الهند، ومما تحلو مشاهدته تمثال لـ «كانيشكا» وقد ارتدى زيا يشبه «الأشكن»[8] و «البيجاما»[9] فى عصرنا؛ وهذه أول دالة يعثر عليها بصدد إدخال هذا النوع من الزى على الهند.

ولما انهارت إمبراطورية «كانيشكا» دخلت البلاد فى فترة امتازت بالحروب التى وقعت بين الأمارات الصغيرة. ومع أن بعض هؤلاء الأمراء أو الحكام كانوا دخلاء على البلاد. إلا أن المجتمع الهندى ما لبث أن امتصهم. على أن فترة الحروب المتواصلة والفوضى آلت إلى نهايتها عند ما قام «جبتا» بتأسيس إمبراطوريته. وقد امتاز هذا العهد شأن العهود السالفة التى

1 Graeco-Bactriaen
2 Indo-Parthian
3 Sakas
4 Kushanas
5 Kanishka
6 Purushapura
7 Peshawar
8 Achkan (Sherwani)
9 Pyjama

وقد أدى ذلك إلى إضعاف السلطة المركزية أكثر فأكثر. ومع أن هذه الغزوات صدت أحياناً وبصورة مؤقتة، إلا أن الغزاة استمروا يتدفقون رغماً عن مقاومة الولاة والحكام المحليين. والمعروف أن الحروب الداخليــة المتواصلة لم تضعف هؤلاء الملوك فحسب، بل حالت أيضا دون تأليف جبهة موحدة ضد العدو الدخيل.

وفى أوائل القرن السابع تمكن الملك «هارشا»[1] من جديد من إقامة إمبراطورية موحدة فى المناطق الشمالية من البلاد. على أن محاولاته الرامية إلى بسط نفوذه إلى المناطق الجنوبية صدت من جانب «البولاكشين»[2]. وهكذا قامت فى البلاد إمبراطوريتان جبارتان إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب، واهتمتا باستتباب الأمن والسلام وبعث الطمأنينة فى نفوس الأمة. ولما استتب الأمن وعم النظام عادت الفنون إلى الرواج والانتعاش. ولقد لازم انتشار السلام انتعاش اقتصادى فى جميع أرجاء الهند. ومع أن البوذية فقدت سيطرتها، ولكنها استمرت تتمتع بانتشار عظيم. وكان «هارشا» يرعى البوذية والبرهمية على السواء، كما

1 Harsha 2 Pulakeshin

السائدة فى البلاد ، ومع أن أعضاء هذه الأسرة المالكة شملوا الهندوكية برعايتهم إلا أنهم لم يضطهدوا البوذيين . فكان هؤلاء الملوك وشعوبهم ينظرون إلى قديسى البوذية ونساكها بنفس الاجلال الذى ينظرون به إلى قساوسة الهندوكية وآلهتها . أما الحياة فى عهدهم فامتازت ببساطتها وكانت الدولة هى التى تتولى السهر على الأمن والنظام والمحافظة عليها . على أن القوانين كانت خفيفة الوطأة على كاهل الأهالين . ولقد ورد وصف ممتع لنمط الحياة فى ذلك العهد فى مؤلفات « فاهيان »[1] أول الحجاج الصينيين المتعددين الذين زاروا الهند بوصفها مهدا للبوذية .

إن إمبراطورية « جبتا » كغيرها من الامبراطوريات آلت بدورها إلى الانهيار والتفكك ، ويرجع ذلك إلى الانحلال الداخلى من ناحية ، ومن ناحية ما إلى الغزوات التى شنها عليها من الخارج . وانقسمت الهند من جديد إلى عدد من الولايات والأمارات الصغيرة . وعزا البعض انهيار امبراطورية « جبتا » إلى غارة « هونا »[2] على الهند . ونظراً لانعدام وجود سلطة مركزية موحدة فى البلاد تتمكن من صدهم أخذ المغيرون يتدفقون على البلاد أفواجاً .

1 Fahien 2 Huna

« راجبوت » فتصرف حرفيا إلى أداء معنى « أنجال الملوك » . وكان تبجح هؤلاء بأرومتهم ورفيع نسبهم وإصرارهم على أن نسبهم يتصل بأبطال الأساطير ، موضع نقاش وجدل . ويذهب عدد كبير من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن القسم الأعظم من هؤلاء هم من سلالة القبائل التى جاءت إلى الهند بعد سقوط إمبراطورية « جبتا » . ونظراً لكونهم حديثى العهد بالبلاد فقد عنوا وحرصوا على إثبات عريق نسبهم ، وكذلك فإن تحولهم فى العصور الأخيرة إلى طبقة حاكمة جعلهم أشد اهتماماً بإثبات صحة هذا النسب . ومهما كان الأمر فإن « الراجبوت » منذ القرن التاسع بعد الميلاد حتى نهاية العهد المغولى قد لعبوا دورا هاما فى التاريخ السياسى للمنطقة الشمالية من الهند

وغنى عن القول إن التاريخ ليس بعلم بالمعنى المفهوم ولا يسمح بكثير من التعميم ، ولكن رغما عن كل ذلك ففى وسعنا أن نشير إلى اتجاهين عامين يعتبران من العوامل المميزة لتلك الفترة القديمة من تاريخ الهند . أما الاتجاه الأول فينحصر فى العملية الرامية إلى جعل الهند بلداً آرياً بصورة تدريجية ، ففى تيسير للآريين إخضاع سكان وادى الاندس الأصليين وابتلاعهم مرة

أنه رحب فى بلاطه بـ «هيون سانج»[1] أعظم وأجل الحجاج الصينيين الذين زاروا الهند وقد خلف وراءه سجلا طريفا وصف فيه «هارشا» والحياة التى كانت تخيم على الهند فى تلك الأيام.

ويلاحظ أن تاريخ الهند فى جميع العصور حتى العصور الأخيرة سار على وتيرة واحدة، فكانت البلاد تتعرض من جديد إلى غزوات قبائلية كلما ظهر الوهن والضعف فى السلطة المركزية. على أن هذه القبائل لم تلبث أن اصطبغت بصبغة المجتمع الهندى. والواقع أنه لم يتمكن أحد من القبائل المتسللة من مقاومة تيارات الهندوكية ونفوذها إلى أن جاءت الطائفة الفارسية (أتباع زرداشت) إلى الهند فى القرن الثامن بعد الميلاد. وذلك لأن كثيراً من هذه القبائل لم تكن تنعم بثقافة خاصة بها، كما أن تقسيم المجتمع الهندى إلى طبقات على أسس مهنية وحرفية سهل عليهم من الناحية الأخرى أن يندمجوا وينخرطوا فى المجتمع الهندى. ومنذ القرن التاسع فما بعده نعثر على إشارات ورد ذكرها باستمرار عن جماعة من الناس عرفوا «بالراجبوت»[2] فقد أخذ هؤلاء يحلون تدريجاً محل «الكشتريين»[3] كطبقة حاكمة محاربة. أما لفظة

1 Hiuen Tsang 2 Rajputs 3 Kshattriyas

القرون الوسطى. ومع أن القسم الأعظم من هؤلاء الحكام كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة من «الراجبوت» إلا أن بعض الأمراء كانوا من المسلمين. وشأنهم شأن المسلمين فى خارج الهند، فقد جمعوا فى بلاطهم عدداً من المؤرخين وعشاق التاريخ الذين خلفوا وراءهم وثائق محكمة عن الأحداث السياسية فى ذلك العصر وعن الأحوال التى كان أفراد الشعب يعيشون فيها. والواقع أن المؤلف الشهير المؤرخ الكبير البيرونى هو أول سجل كامل عن الهند يوجد فى أية لغة من اللغات وهو ليس بكنز زاخر بالمعلومات القيمة فى أحداث هذا العصر وعاداته فحسب، بل نجد فيه محاولة لتفسير الحضارة والثقافة الهندية وشرحها. وقد عقب البيرونى على تعدد المذاهب والعقائد القائمة فى الهند وتباينها وهى تتراوح بين عقيدة التوحيد الخالص والاعتقاد بالأوثان التى كان يعبدها عامة الناس. وكان المجتمع مقسما إلى طبقات وانعدمت فيه الروح الوطنية سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية.

ودخول المسلمين إلى الهند كان على فترات امتدت إلى عدة قرون على نحو دخول الآريين إلى هذه البلاد. وكثيراً ما نعد الغزو العربي لبلاد السند فى أوائل القرن الثامن الميلادى أول ظهور

انتشروا فى طول البلاد وعرضها وطبعوهم بطابعهم الآرى. أما اتجاههم الثانى فيتجلى فى المحاولات المستمرة التى ترمى إلى توحيد الهند سياسيا. وإذ تتفحص تاريخ الهند منذ عهد الأسر المالكة التى ورد ذكرها فى الأساطير، فاننا نلمس جهودا متواصلة لبناء امبراطوريات تتفق وحدود الهند المترامية الأطراف. والمعروف أن «الموريين» وأعضاء أسرة «جبتا» المالكة حاولوا إقامة مثل هذه الامبراطورية ونجحوا فى مهمتهم ولو لمدة قصيرة. على أن الأحوال المادية الضرورية لاقامة هذه الوحدة لم تتوفر. ولعل فى هذا ما يفسر لنا الحقيقة القائلة بأن النجاح الذى أحرزوه كان قصير الأمد.

وتصبح معالم التاريخ الهندى أجلى وأظهر خلال العصور الوسطى، وإن لم يطرأ تغير ملحوظ على الوتيرة التى سار عليها هذا التاريخ. فلقد شهدت الهند بعد وفاة «هارشا»[1] و«بولاكشين»[2] صراعا بين ثمانين أميرا من أمراء الولايات المختلفة فى سبيل الجاه والسلطان. واستمرت هذه الأحوال وتكررت نفس الرزية خلال

1 Harsha 2 Pulakeshin

وأدى تبادل السلع التجارية إلى تبادل الأفكار والنظريات، وذهب بعضهم إلى القول بأن الانتعاش الدينى والفلسفى الذى شهدته هذه المنطقة الواقعة فى أقصى الجنوب فى القرن الثامن والقرون التى تلته يعود إلى المؤثرات الأجنبية الجديدة فى الثقافة المحلية.

وما عدا هذين المركزين من مراكز النفوذ العربى، فان أغلبية المسلمين الذين وفدوا على البلاد كانت إما من الترك والأفغان، على اختلاف أنواعهم، وإما من الفرس. ولما كان عدد كبير منهم حديثى العهد بالاسلام فقد أخذوا بقشور الدين وأهملوا لبه، على أن هذا لم يمنعهم أن يعتبروا أنفسهم حملة لواء الدين الاسلامى. وكان بعض المعابد الهندوكية تزخر بثروة طائلة إلا أنها تحولت فى بعض الظروف إلى قلاع وحصون تمتاز بأهميتها الاستراتيجية، فكان احتلالها ضرورة عسكرية. كما أن ثرواتها كانت مصدر إغراء للغزاة الفاتحين. ويستنتج من كل هذا أن اقتحام المعابد وإخضاعها كان لأسباب متعددة.

وقد اجتذب غناء الهند وثروتها الخيالية القبائل من أفغانستان وما وراءها من البلاد. ومما لا شك فيه أنهم استغلوا الدين

للمسلمين على مسرح الهند . وفى عام ٧١٢ بعد الميلاد تحولت السند فى تلك الحقبة إلى مقاطعة تابعة للخلافة فى بغداد . وظلت هذه المقاطعة كغيرها من المناطق الأخرى التى احتلها العرب فلم تعرف الاضطهاد الدينى ولم تشهد أى تدخل منهم فى حياة الأهلين العادية على أن سيطرة الخلافة على السند لم تعمر طويلا وإن كانت البلاد بقيت خاضعة لسيطرة الحكام المسلمين زهاء قرنين .

إن المسلمين كانوا قبل مأة عام من هذا التاريخ أنشأوا أول مركز إسلامى لهم فى المقاطعات الجنوبية . ولعل العرب لم يقوموا بمحاولات معينة مركزة لغزو البلاد عسكريا وإن كانوا قد أغاروا على « تهانا »[1] الواقعة على مقربة من مدينة « بومباى » .[2] ولقد كانت الموانىء الغنية الواقعة على الشواطىء الغربية من الهند محط أنظار العرب جاءوها تجاريا ثم استوطنوها وأقاموا لأنفسهم عددا من المستعمرات على سواحل « مالابار » .[3] ومما يسلم به على وجه التعميم أن الغرض العاجل من وراء غزو العرب للسند هو حماية طرقهم التجارية مع الهند الجنوبية و « سيلان » .[4] على أن العرب ما لبثوا أن أصبحوا قوة لا يستهان بها فى هذه المناطق على مر الأيام وكر الليالى .

1 Thana 2 Bombay 3 Malabar 4 Ceylon

وإن أول محاولة جدية من جانب أحد الحكام المسلمين لتأسيس مملكة فى الهند قامت فى أواخر القرن الثانى عشر. وذلك أن الأحقاد الداخلية والضغائن الكامنة بين عدد من الأمارات الصغيرة لم تفسح المجال لمقاومة مشتركة منسجمة، ورغما عن كل هذا فان مهمة الفاتحين فى شق طريقهم إلى الهند لم تتحقق بصورة هينة لينة. ولئن كان نصيب شهاب الدين الهزيمة فى المعركة الأولى إلا أنه استطاع التغلب على ملك دلهى فى المعركة الثانية، وقد وقعت هذه المعركة على مقربة من «بانى بت»[1] على مسافة ستين ميلا تقريبا فى الناحية الشمالية من دلهى. فكانت إحدى المعارك الحاسمة فى تاريخ الهند.

أما قطب الدين الذى كان مملوكاً فى أول الأمر والذى أصبح فيما بعد قائدا لشهاب الدين ونائباً له، فقد شيد أول سلطنة له فى دلهى عام ١٢٠٦م. وقد تمكن بالتعاون مع قواده من إخضاع قسم عظيم من شمالى الهند. غير أن الأوامر الصادرة عن دلهى بقيت نافذة ما بقى الجالس على العرش فى دلهى متمتعا بقوته ونفوذه. وكان من البديهى أن يكون الحكم أتوقراطيا إن لم يك

1 Panipat

وصفوا غاراتهم السلبية بصبغة من الاجلال والتقديس مع العلم بأن طبيعة هذه الغزوات تناقض وتكذب ما كانوا يدعون. قام هؤلاء بغزوات خاطفة على المعابد والحصون أعقبتها عمليات سلب ونهب لكل ما كان فى إمكانهم حمله ونقله. وهذا بالاضافة إلى ما وقع من غزوات متقطعة متفرقة، ولطالما شهدت البلاد قيام محاولات لتأسيس إمارات صغيرة. وكان السلطان محمود الغزنوى فى مقدمة الغزاة المسلمين. وقد قام بعدة غزوات للبلاد الهندية. ويظهر أن همه الوحيد كان الحصول على أموال وثروات طائلة وتعزيز نفوذه وسلطانه فى داخل مملكته. ولم يكن من أهدافه العاجلة أن يتوخى، بحال من الأحوال، إقامة إمبراطورية هندية أو نشر الاسلام فى الهند. حتى أن ضمه مقاطعة البنجاب إلى بلاده يعتبر لدوافع عسكرية أكثر من أى دافع آخر. وكان هذا خلو البلاد من سلطة مركزية وانهماك الامارات الصغيرة فى محاربة بعضها بعضاً أن سهل على الفاتحين مهمتهم نسبيا. ومع ذلك فقد أبدى سكان البلاد أحيانا مقاومة منظمة وإن كان تفوق الغزاة فى القيادة واستعمالهم للجياد الأصيلة ما رجح كفتهم فى المعارك الحاسمة التى خاضوها.

كالبغال وجيرات ، فكثيرا ما نفضت عن نفسها غبار سلطة دلهي كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ومع أن سلطان دلهي انتحل لنفسه لقب «شاه عالم» ومعناه ملك العالم أو المهيمن على شؤون العالم، وقد وصفه أحد المهرجين في البلاط بأنه «شاه بالم» أي ملك «بالم» ومعنى ذلك أن حدود نفوذه لا تتجاوز هذه القرية المسماة بـ «بالم»،[1] وهي تقع في ضواحي دلهي حيث مطار بالم المعروف.

ويعتبر علاء الدين الخلجي الذي نودي به سلطانا في عام ١٢٩٦م. أول إمبراطور مسلم في الهند. والواقع أنه بسط نفوذه وسلطانه على المناطق الشمالية من الهند بأسرها كما تغلغل بعيدا في المناطق الجنوبية. وما ان مضت عدة قرون حتى قامت سلطة مركزية كانت كلمتها مسموعة وقوانينها نافذة في القسم الأعظم من البلاد. وقد طرأ تغير ملموس على طبيعة الادارة، فكان علاء الدين يهدف إلى إقامة حكومة مركزية موطدة، وتحقيقا لهذه الغاية فانه طالما تجاهل مشورة رجال الدين كما تجاهل سلطتهم ونفوذهم. والواقع أنه أقام جهازا إداريا صارما قصد من ورائه تعزيز سلطة الملك وكان في ذلك كالملك هنري السابع في بريطانيا الذي

1 Palam

عسكريا بالمعنى الصريح . وكانت المواصلات صعبة ولم يكن هناك نظم إدارية محكمة . وكان فى تعاقب الحكام والأمراء على البلاد ما حال دون وداء الشعب وولائه لأية أسرة من الأسر المالكة . وكثيرا ما كان الملك يعتمد فى تأمين ولاء الشعب له على قوته العسكرية ، ولتحقيق غايته هذه كان مضطراً الاعتماد على قواده . وفى معظم الأحيان كان ولاء هؤلاء القواد للملك اسميا فقط ، وكان كل منهم يحكم كأمير داخل دائرة نفوذه . ويمكن وصف هذا النظام الذى ساد البلاد فى تلك الفترة بأنه نظام إقطاعى يتولاه الملك مع عدد من الاقطاعيين المتساوين فى المرتبة .

وتلى ذلك شرذمة من الحكام الذين ينتمون إلى أسر حاكمة مختلفة . وفى فترة الثلاثمائة والعشرين عاما التى قامت فيها سلطنة دلهى ، طالبت تسع من هذه الأسر بحقها فى السيطرة على الهند ، وإن كانت حقوقها فى ذلك أحيانا اسمية . وكان هم هؤلاء الحكام الوحيد هو تأمين نفوذهم العسكرى بدلا من نفوذهم السياسى . ولكن هذا الاتجاه كان يختلف باختلاف الملوك . وفيما عدا فترة قصيرة من الزمن فإن مناطق واسعة شاسعة من جنوبى الهند كان يحكمها حكام مستقلون فى حين أن الأقاليم المترامية الأطراف

داخل الهند وخارجها. وبعد أن تم إنشاء إمارات إسلامية فى الهند أخذ الطابع الدينى لهذه الحروب يتضاءل ويزول شيئاً فشيئاً. وتدل الأرقام أن من بين المعارك حوالى ١٣٠ التى دارت رحاها فى الهند بين عام ٧١١م وعام ١٧٠٠ بعد الميلاد فان ما يربو على نصفها كانت معارك بين المسلمين أنفسهم.

والذى حدث بعد تأسيس السلطنة فى دلهى أن القواد المسلمين الذين عهد إليهم بإخضاع بعض الولايات النائية وحكمها، انتهزوا أول فرصة سنحت لهم لاعلان استقلالهم وانفصالهم عن دلهى. ولما لم يكن من الميسور لهم توطيد نفوذهم إلا بتأييد السكان المحليين فانهم تعاونوا وتفاهموا معهم. وقد أرغمهم منطق الحوادث أن ينهجوا على سياسة الحياد الدينى إن لم يستطيعوا سبيلا إلى سياسة يكون قوامها التسامح. وقد ظهرت معالم هـــذه السياسة حتى فى العصور الأولى. حيث أصدر قطب الدين أول سلطـــان على دلهى مرسوما حظر فيـــه التدخل والتعرض إلى الأعياد الدينية الهندوكية، وهكذا فانه على مر الزمن وبفضل إنشاء ممالك جديدة فقد تسنى لقوى التسامح أن تنتشر وتعزز. غير أن هذا لم يحل دون وقوع بعض الحوادث الأليمة التى تركت فى النفوس أثرهـا

كان همه الأكبر زيادة سلطانه وتعزيز نفوذه. أما الوسائل التى اتبعها لتحقيق هذه الغاية فتتجلى فيما عمد إليه من وضع الحد لحرص الشعب على جمع الثروة وتعزيز الجاه. ولم يك فى محاولته هذه يميز أو يفرق بين المسلمين والهنادكة من رعاياه. والحقيقة أنه كان أحيانا أشد بطشا بالمسلمين لاعتقاده باحتمال تمردهم عليه أو إحداث الفتن والقلاقل فى البلاد. ومع أنه لم يعمد إلغاء نظام الاقطاع إلا أنه وفق توفيقاً عظيما لتحديد سلطة النبلاء تحديدا صارما.

وعلى نحو ما وقع فى عام ١٢٠٠م.، فان عام ١٥٠٠م. شاهد انقسام الهند إلى عدة إمارات وولايات صغيرة. ولعل الفارق هو أن الفترة الأخيرة شاهدت عددا أكبر من الحكام المسلمين. وسواء أكان هؤلاء الأمراء والحكام من المسلمين أم من الهنادكة فانهم حاربوا بعضهم بعضا بشدة وحرارة لأتفه الأسباب وأحقرها. وقد بينا فيما سبق أن حب المال والسلطان — وليس الايمان بالرسالة — هو الذى جذب الغزاة المسلمين إلى الهند. وواقع الحال أن صراع الحكام والولاة قلما كان له صلة تذكر بالدين. وقد جند السلطان محمود وغيره من أوائل الفاتحين عددا من الهنادكة للعمل فى جيشه ومحاربة خصومهم من المسلمين فى

المجتمع الهندوكي كان ينظر بعين الازدراء إلى الأسرى المسرحين. وكثيراً ما حدث أن هؤلاء لم يجدوا أمامهم سبيلا للخير سوى الدخول في حظيرة الاسلام. وكان امتصاص الاسلام للهنادكة على نطاق واسع، إلى أن أخذت طبيعة المجتمع الاسلامى تتغير تدريجياً. وحتى أولائك الذين وفدوا على البلاد من الخارج أصبحوا يعتبرون أنفسهم هنوداً. وكثيراً ما حدث أن المسلمين من أهل الهند والهنادكة تعاونوا وتحالفوا لصد بعض المسلمين ممن أغاروا على البلاد من الخارج.

ونرى أن النفوذ الاسلامى لم تتوطد دعائمه وأركانه إلا بعد أن نجح «بابر» في تأسيس إمبراطورية بفضل انتصاره في معركة في «بانى بت»[1] عام ١٥٢٦. وعلى عكس من سبقه من الفاتحين كانت له آراؤه الخاصة في حقوق الملك وواجباته. وقد ادعى بحكم انتسابه إلى «تيمور» و«شنجيز» بأنه الوارث الشرعي للهند بأسرها. ونظراً لما اشتهر به من براعة كقائد، لم يحاول أن يقوم بفتوحات واسعة قد يتعذر عليه فيما بعد إدارتها والمحافظة عليها. ويلاحظ أنه لم يقم بأية محاولة لاخضاع «راجبوتانا»[2] لحكمه حتى بعد أن

1 Panipat 2 Rajputana

البليغ والتى ما لبثت أن تبدد ذكرها بعد أن ألف من جديد الحب والتسامح بين شتى الطوائف على مر الأيام. وكان المحافظة على الأمن والنظام مهم إدارة الحكومة الأكبر. وما دام الملك جواداً كريماً وبارعا فى الشؤون العسكرية كانت البلاد تنعم بالازدهار والرخاء والرفاهية.

أما ونحن فى صدد دراسة للحكام المسلمين فى الهند فلا بد لنا من أن نقرر أن المسلمين جاءوا إلى الهند بموجات متوالية. وكانوا فى أكثر الأحيان من المحاربين الذين لم يصطحبوا أزواجهم واتخذوا لأنفسهم أزواجاً هنديات. ونرى فى كثير من الأحيان أن أسرى الحرب من أهل الهند لم يكن أمامهم سبيل إلا التخيير بين عبودية دائمة أو اعتناق الاسلام. وعندنا أن هذه الحقائق، مضافا إليها أعمال التبشير، أدت مع مرور الأيام إلى قيام طائفة إسلامية لها شأنها وخطورتها. ومن ناحية أخرى فان العادات الاجتماعية عند الهنادكة قد ساعدت على زيادة عدد المسلمين. والذى حدث أن فريقاً من المنبوذين وجدوا فى الاسلام فرصة للمحافظة على كرامتهم. أما ذوو الحساسية الفائقة من الطبقات المخلوطة فقد استهوتهم ديموقراطية الاسلام. ناهيك من أن

أما «أكبر»، وهو أعظم أباطرة المغول فقد استكمل البناء الذى وضعه «شيرشاه». والمعروف أنه لم يكتف بتطبيق نظام الدخل الذى وضعه «شيرشاه» بل أدخل عليه بعض التحسينات، كما ألغى نظام إقطاع مناطق زراعية من الأراضى إلى القادة العسكريين والزعماء الاقطاعيين. واستعاض عن هذا النظام باقامة إدارة مسؤولة مباشرة أمام الحكومة المركزية، ولعل أهم الخدمات التى أسداها إلى البلاد هى القضاء على التمييز بين الرعايا على أساس الدين. ثم ما قام به من تأمين الفرص المتكافئة للعمل والترقية لجميع أفراد الرعية. وينطبق هذا القول بصورة خاصة على الامارات التى أقيمت وأسست فى أماكن نائية بعيدة. وامتاز إقليما «البنغال» و«الجيرات» بعدد من الملوك الذين أبدوا تسامحا رائعا تجاه رعاياهم من غير المسلمين، وما يقال فيهم يقال أيضاً فى «المملكة البهمنية»[1] وغيرها من إمارات الجنوب. ولعل عظمة «أكبر» تتجلى لنا فيما وفق إليه من النهوض بسنة التسامح.

وكان قلبه يفيض بشعور التقدير والاجلال لجميع الديانات كغيره من أعاظم أباطرة الهند القدماء. وكان فى طبيعته ميل

1 Bahmani Kingdom

تمت له الغلبة على «سنجرام»[1] وقهره. واكتفى ببسط سيطرته الحازمة على مقاطعة البنجاب والمناطق المحيطة بدلهى. على أنه لم يعمر طويلا ليقوم بمهمة توطيد أركان الامبراطورية، مع العلم أن المبادئ التى قامت عليها سياسة أباطرة المغول إنما استمدت وحيها مما كان يتحلى به من صفات التسامح والانسانية. ويستدل من النصائح التى أسداها إلى نجله «همايون» أنه أوصى بضرورة معاملة جميع رعايا المملكة على قدم المساواة، واختص بالذكر معتقدات الهنادكة الدينية وحث همايون على احترامها.

وشاهدت البلاد فترة جديدة من حكم «الپاتان»[2] عندما نجح «شيرشاه» فى إعادة السلطة إلى دلهى. وكان قد جمع تحت رايته قسما عظيماً من المسلمين والهنادكة. والواقع أن انتصاره على الملوك المغول يعتبر غلبة للهنود على الأجانب. وليس من المستبعد أن اهتمامه بمصالح رعيته وحرصه عليها يعود إلى شعوره المتأصل بهنديته. ومهما كان الأمر فلقد أحدث تعديلات هامة فى جميع الدوائر الحكومية كما تمكن خلال عهده الزاهر القصير من وضع الأسس للمواصلات الهندية الحديثة وإدارة الدخل.

1 Sangram 2 Pathan

يحتفظ فى يده سلطة تدبير سياسة الدولة قد خول سلطات أخرى عديدة إلى موظفيه، وأقام إدارة البلاد على أساس من الثقـة. أما «أورنج زيب» فانه لم يكن ليثق حتى بنجله، ولم يكتف بمراقبة السياسة العامة والاشراف عليها بنفسه، بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بالتفاصيل الادارية. ويختلف «أورنج زيب» اختلافاً جوهريا عن «أكبر» فى موقفه من الرعيـة، فبينما كان «أكبر» يعامل أفراد رعيته على قدم المساواة ويتيح لهم الفرص المتساوية لخدمة الدولة، فإن «أورنج زيب» لم يوفق حتى إلى تأمين المسـاواة بين المسلمين أنفسهم، وذلك لأنه اختص أفراد الطائفـة السنية بعطفه ورعايته.

يستنتج من كل هـذا أن سياسة «أورنج زيب» لم تصلح كأساس لامبراطورية ثابتة الأركان فى زمن من الأزمان، كما أن ما شهده الشعب من تسامح فى عهد «أكبر» جعل حكم «أورنج زيب» أقل قبولا. وكان «أورنج زيب» قبل أفول نجمه قد أثار عداء عدد كثير من طبقات الشعب تقريبا. وأشد مقاومة لاقاها كانت من «الراجپوت»[1] الذين كانوا منذ عهـد «أكبر»

1 Rajput

شديد إلى التصوف وكان «أكبر» حاكماً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى. ولعل حكمه يمثل لنا أول محاولة واعية لاستنباط نظرية الدولة العلمانية. وقد نهج على سياسة اجتماعية ودينية حرة هدفت إلى دمج العناصر المختلفة التى يتألف منها الشعب الهندى فى ذلك الحين وصهرها فى بوتقة واحدة. والواقع أن أكبر يمكن اعتباره، من نواح عدة، واضع أسس الهند الحديثة وبانيها.

ولو أن الأسرة المغولية لم تنجب أحداً سوى «بابر» و«أكبر» لكفاها ذلك فخراً. فكيف وقد أنجبت خلال فترة تمتد إلى حوالى ستة أجيال من عمرها رجالا امتازوا بمقدرة وكفاءة عظيمتين. ولعل فى هذا ما يفسر توسع الامبراطورية المغولية وازدهارها لمدة طويلة ومدى تأثيرها فى نفوس الشعب. أما السبب الآخر فينحصر فيما قام به «أكبر» من إعادة تنظيم الجهاز الادارى. ومع أنه ليس فى مقدورنا أن نجزم بأنه أقام الحكم وفقاً للقوانين إلا أن إصلاحاته قد ساعدت كثيراً على التخلص من الحكم الفردى والاستعاضة عنه بحكم يقوم على القوانين. وقد حذا خلفاؤه حذوه، وساروا على السياسة التى وضعها، إلى أن حاد «أورنج زيب» عن طريقة سلفه «أكبر» من ناحيتين. بينما كان «أكبر»

الآربين فى الأزمنة السالفة ، فان السلطة فى هذه الآونة أيضا أخذت تتجه جنوبا وشرقا . ولم يقع أى تدخل يذكر فى الحياة الريفية ، ذلك أن المغيرين نظرا لقلة عددهم ركزوا معظم نشاطهم فى المدن التى كانت لها أهمية استراتيجية وكانوا فى بادئ عهدهم لا يحفلون بشيء آخر سوى جباية الضرائب والدخل . وقد تسنى للمسلمين بعد ثلاثمائة عام من الحروب والسلام أن ينتشروا فى جميع أرجاء شبه القارة الهندية ، فبلغوا أقصى حدودها حيث أقاموا لأنفسهم مراكز وحاميات . ولما ازداد عددهم بفضل من دخل فى حظيرة الاسلام من سكان البلاد ، أصبحت عرى الاتصال تتوثق بين المسلمين والهندوكيين فى كثير من النواحى . وتغيرت طبيعة الحكم بصورة غير ملموسة لم تك فى الحسبان . وبدأت سلسلة من العمليات فى الأيام الأخيرة لقيام السلطة فى دلهى وبلغت ذروتها فى أيام أكبر . فبتأسيس الامبراطورية المغولية بدأت فترة لم تقتصر على عمليات التوطيد والتوحيد فحسب ، بل تعدتها إلى التنسيق والجمع بين الثقافتين . وكانت السنن التى اشترعها « أكبر » من مقومات ذلك النمط الذى لا يزال باقيا فى الهند حتى يومنا هذا .

وشاهد قيام السلطنة فى دلهى تجارب فى إدارة البلاد ،

من أهم الدعائم التى قامت عليها السياسية الامبراطورية وكذلك أثار «أورنج زيب» نقمة العناصر الفارسية عليه، وهى العناصر التى كانت مصدرا لتزويد النظام الامبراطورى بعدد كبير من الموظفين فى مختلف الدرجات والمناصب وإن سياسة «أورنج زيب» لم تحظ حتى بتأييد أنجاله وعطفهم. ورغما عما امتاز به من كفاءة وما عرف عنه من نشاط، فأن مصير الأسرة المغولية قد قدر وتقرر حتى قبل أن وافته المنية فى عام ١٧٠٧. وحدث أن قوى جديدة تمثل عناصر التحدى للسلطة المغولية بدأت تظهر جنوبا فى «المارااثا»[1] تحت زعامة «شيفاجى»[2]. ورغما عن الهزائم المتكررة التى منى بها «المارااثا» فى المعارك التى خاضوها مع «أورنج زيب»، لم يغلبوا على أمرهم، وتمكنوا قبل أن تدرك «أورنج زيب» الوفاة من زعزعة دعائم السلطة المغولية.

يبدو لنا جليا أن تطور الحكم الاسلامى فى الهند قد اجتاز مرحلتين متباينتين. فمع أن السلطنة كانت قد بدأت بسلسلة من الغارات القبائلية، ولكنها ما لبثت أن وطدت أركانها كمملكة على مر الأيام إن لم تتسم بسمة الامبراطورية. وكما حدث فى عهد

1 Marathas 2 Shivaji

ازدياد النفوذ البراهمى وتعاظمه قد لازمه تعاظم اللغة السنسكرتية فى الأهمية. وحينما تسربت المبادئ الاسلامية إلى الهند كانت البوذية فى دور الاحتضار وإن لم تك قد اندثرت كليا. وعلى ذلك فان المساعدة العظيمة التى نعمت بها اللغات المحلية لم يبق لها أية فعالية. بيد أن السنسكرتية ما لبثت أن استعادت مكانتها ونفوذها بفضل رعاية عدد من الملوك والشخصيات التى تعاقبت كشخصية «شنكراشاريا»[1]، فهو وأمثاله ممن شملوها بعطفهم ورعايتهم.

وتغيرت الأوضاع كليا بفضل تأسيس السلطنة. وذلك لأن المسلمين لم يكن لديهم من الأسباب ما يحملهم على تفضيل السنسكرتية واحتضانها. ولسنا نعدو الحقيقة إذ نقرر أن المسلمين فى المراحل الأولى من حكمهم وقفوا من السنسكرتية موقف الخصومة والعداء. وبينما كانوا من ناحية يعملون على إدخال الفارسية كلغة رسمية للبلاد، كانوا من ناحية أخرى يعملون على إقامة علاقات وروابط أوثق وأمتن مع رعاياهم الهنادكة. وطبيعى أن استعمال اللغات المحلية كان خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف. أما رعاية الحكومة للغات المحلية كاللغة البنغالية مثلا فتعود إلى القرن الرابع عشر.

1 Shankaracharya

فقد كانت المشكلة القائمة تنحصر فى الكيفية التى يتسنى بها للأقلية الضئيلة الاحتفاظ بسيطرتها على أغلبية ساحقة. والمحاولة التى قام بها « علاء الدين الخلجى » لاقامة إدارة الحكم على أساس مركزى لتنظيم الأسعار وتأمين حد أدنى من المعيشة للأهالى كانت من أقدم المحاولات للتجارب العصرية فى هذا الميدان. وسعى « محمد تغلق » [1] أن يدخل على البلاد نظام النقد الجلدى أو العملة الجلدية. ورغما عن الاخفاق الذى لازمه فى هذه المحاولة، يعود إليه الفضل فى ابتكار نظام أصبح اليوم معمولا به فى جميع أنحاء العالم.

ولعل الأهم من الاصلاحات الادارية ما شاهدته هذه الفترة من محاولات لتشجيع نمو اللغات الهندية العصرية. ويلاحظ أن مقدارا لا يستهان به من الآداب الشعبية قد نما وترعرع فى « براكرت » [2] و « بالى » [3] حتى قبل دخول الاسلام إلى الهند. ولعل أغلب المؤلفات التى دونت فى تلك اللغات قد تأثرت كثيرا بالتعاليم البوذية ودعوة « مهابيرا » [4] التى قام أصحابها بنشر دعوتهم بين السكان، واستعملوا فى ذلك لغة يتيسر للسكان فهمها ووعيها. على أن اللغة السنسكرتية كانت من أهم المناهل للتيارات الأدبية والفكرية، فالمعروف أن

1 Tughlaq 2 Prakrit 3 Pali 4 Mahabira

وخصومة العناصر الموالية كالراجبوت أو المسلمين من غير الهنود. ويلاحظ أن المراتيين لم ينجحوا فى توطيد سلطانهم إلا لفترة قصيرة من الزمن، وذلك فى عهد «شيفاجى» وخلفه، كما أن المراتيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بثقة وصداقة الراجبوت أو «الجات»[1].

وفى خلال العهد الاسلامى لم يطرأ أى تغيير على الأحوال الاجتماعية السائدة بين السكان. ذلك أن الرعيل الأول من الحكام المسلمين لم يكن لهم هم آخر سوى الاحتفاظ بقوتهم العسكرية والسياسية. فلم يحاولوا أن يتدخلوا فى حياة الشعب العادية ما دام لم ينصر من بينهم أحد فى تحدى سلطانهم. أما أمر جباية الدخل وتأمين العدالة فقد بقى إلى حد بعيد فى أيدى الهيئات المحلية. وما كانت الجهود التى بذلها «أكبر» لاعادة تنظيم شؤون الدخل والادارة السياسية لتؤثر فى الوضع بصورة جوهرية. ذلك أن القرويين آثروا المحافظة على طرق معيشتهم وحياتهم الخاصة. وجل ما حدث هو قيام طائفة إسلامية إلى جانب الطائفة الهندوكية الموجودة. ومع أن المسلمين درجوا على مشاركة جيرانهم

1 Jat

وما أن مر زهاء القرنين على قيام الحكم الاسلامى فى الهند حتى تبوأت اللغات المحلية مكانة جديدة تقوم على العزة والكرامة، والفضل فى ذلك يرجع إلى المصلحين الروحيين من الصوفيين والأولياء الذين ظهروا فى هذه الفترة من الزمن. ونخص بالذكر من هؤلاء «كبير»[1] و«نانك»[2] و«شيتانيا»[3] و«تلسى داس» و«توكا رام».

وبعد وفاة «أورنج زيب» انقسمت الهند من جديد إلى عدد من الامارات الصغيرة والكبيرة. وجرت هذه الممالك على سنة محالفة ومحاربة بعضها مع بعض لأسباب ليس لها ما يبررها. وقد لاح فى مرحلة من المراحل أن «المارانا» أوشكوا أن يوفقوا إلى إقامة إمبراطورية موحدة فى البلاد، على أن كفاءتهم الادارية لم تكن تعادل مقدرتهم وتفننهم فى ضروب القتال. وقد ظهروا على مسرح البلاد كحماة للهندوكية منافحين عنها ضد تعسف أورنج زيب واستبداده، على أن تحولا هاما قد طرأ على موقفهم من بقية الممالك بعد وفاة «باجى راو»[4] فى عام ١٧٤٠. ويرد إخفاق الامبراطورية الاسلامية وسقوطها إلى أن «أورنج زيب» أثار عداء

1 Kabir 2 Nanak 3 Chaitanya 4 Baji Rao

فى اشتباكات مع أصحاب البلاد الهنود. وعندما تحالف بعض الحكام الهنود مع العرب ونجحوا فى إنزال الهزيمة بالأسطول البرتغالى فى عام ١٥٠٨ لاح أمر طردهم من البلاد ممكنا. ولما لم يتابع الهنود والعرب انتصاراتهم تمكن البرتغاليون من إعادة تأمين سيطرتهم وتفوقهم البحرى فى العام الذى تلاه. على أن هزيمتهم أضعفت من آمالهم وأحلامهم باقامة إمبراطورية عن طريق الغزو المباشر وغدوا أشد احتراسا وأكثر حذرا. ولكنهم استعملوا دهاءهم للتدخل فى المنازعات المحلية. وذلك بالتشيع إلى فريق دون آخر. كما أثاروا النعرة الطائفيــة بين الهنادك والمسلمين كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ومن ناحية أخرى أقام البرتغاليون جهازا عسكريا متينا لتدريب القوات الهنــدية عسكريا على أيدى ضباط أوربيين. ونجحوا بعــد قرن مفعم بالدسائس والقتال فى إشادة مملكة لهم على السواحل الغربية من البلاد. وإن كانت الجهود التى بذلوها لاقامة إمبراطورية برتغالية قد ذهبت أدراج الرياح. وقد نبيح لأنفسنا أن نقرر هنا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بأية منطقة من المناطق التى لم تكن فى متناول نيران مدفعيتهم البحرية.

وجاء فى أثر البرتغاليين الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون،

المنادكة فى طرق معيشهم وحياتهم ، إلا أنهم فى حالة اشتباكهم أو اصطدامهم مع الآخرين كانوا يحظون بمعاملة استثنائية نظرا إلى انتسابهم إلى الطبقة الحاكمة .

وكان أول اتصال بين الهند وأوربا قد وقع فى عام ١٤٩٨ . وذلك عندما انتهى المطاف بـ « واسكو دى جاما » حول القارة الأفريقية إلى نزوله بميناء « كاليكت »[1] ، وهى التى أقام البرتغاليون لأنفسهم فيها مركزا تجاريا صغيرا . ومع أنهم فى أوائل عهدهم قصروا نشاطهم على مزاولة التجارة ولكنهم منذ البداية كانت يساورهم مطامع استعمارية . ولعل المتبعين للتاريخ الأوربى يذكرون أن من بين الأسباب التى حدت بالبرتغاليين إلى تحويل اهتمامهم صوب الشرق أن البابا كان قد اختص العالم الغربى باسبانيا . وسرعان ما نجح البرتغاليون فى توطيد أركانهم وانبروا يعملون فى تأسيس امبراطورية برتغالية فى الهند .

ومع أنهم نجحوا فى بادئ الأمر فى عدم إثارة أى عداء ضدهم ، إلا أن تصرفاتهم ما لبثت خلال فترة قليلة من السنين أن ورطتهم

1 Calicut

الهند. أما السبب الثانى فنلمسه فيما وقع بعد اكتشاف البرازيل من تحول الاهتمام إلى الغرب. ولعل العامل الحاسم لأفول نجمهم يعود إلى عدم تسامحهم الدينى الذى أثار سخط الهنود ونقمتهم عليهم. والمعروف عنهم أنهم كانوا أشد العناصر الأوروبية تعصبا لنشر الدعوة الكاثوليكية، ولم يكتفوا بالقيام بعمليات واسعة النطاق لرد الهنود عن دينهم وإدخالهم فى حظيرة الديانة المسيحية، ولكنهم شجعوا التزاوج مع الهنود تحقيقا لهذا الهدف. وكان لهذا النشاط البرتغالى أن قامت فى البلاد طائفة كاثوليكية كبيرة إلى جانب الطائفة المسيحية السورية، وهى طائفة محلية عاش أفرادها فى هدوء وسلام وأمان منذ ٢٠٠٠ عام.

وكان الهولنديون ثانى العناصر الأوربية فى الهند التى خسرت فى السباق من أجل النفوذ والسلطان، على أنهم نجحوا فى إقصاء البرتغاليين عن الهند الشرقية أى إندونيسيا، وأصبحوا من أشد المنافسين للبريطانيين والفرنسيين فى التجارة الهندية. وفى الواقع أن الهولنديين استمروا زهاء عشرات السنين من أكبر المروجين لهذه التجارة والمشتغلين بها. وقد أسفر هذا السباق تدريجيا عن قيام مناطق نفوذ مختلفة. فبينما كان الهولنديون يركزون

وكلهم يحلم بثراء الشرق العظيم. وليس من السهل الميسور أن نقرر ما إذا كان الرعيل الأول من هؤلاء فى بادئ الأمر كانوا يعللون النفس بمطامع استعمارية، لأنهم عندما قدموا إلى البلاد كانت الامبراطورية المغولية قوية موطدة الأركان والدعائم. فاقتنعوا واكتفوا بالحصول على تراخيص وأذونات تجارية من الحكومة القائمة. يتضح من كل هذا أنهم استهلوا أعمالهم كتجار، ولكن سرعان ما استهوتهم فكرة الامبراطورية وأخذت تداعب أحلامهم، فأخذوا يعملون من أجلها. أما مراكزهم التجارية فقد أقاموها على أطراف الامبراطورية، واهتموا فى بادئ الأمر بتحصينها، دفاعا عن أنفسهم ضد اللصوص وغيرهم من المغيرين. وكان لا مندوحة لحروبهم فى أوربا أن تؤثر على المراكز التجارية التى أسسوها فى الهند، والذى حدث أنهم حولوا هذه القلاع إلى مراكز لعمليات دفاعية أو هجومية إما ضد بعضهم بعضا وإما ضد الحكام الهنود.

وكان البرتغاليون أول من أول نجمهم من بين الأوربيين الذين وفدوا على الهند. ويعود ذلك إلى عدة عوامل. أولها أن انهيار قوتهم البحرية تدريجيا أدى بدوره إلى ضياع نفوذهم فى

ويرد فوزم فى هذه المعركة إلى عدة عوامل. وسنكتفى بتلخيص المهم منها فيما يلى:

أولا: انهيار الامبراطورية المغولية والاخفاق الذى لازم الهنود فى تأسيس حكومة مركزية قوية. ومن المشكوك فيه أن البريطانيين أنفسهم كانوا ليوفقون فى تأسيس إمبراطورية لهم، لو لا ما شهدته البلاد فى عام ١٧٦١ من ركود حربى نشأ عن معركة «بانى بت» الثالثة. ذلك أن هذه المعركة لم تضعف «المراتيين» فحسب، بل أدت إلى إضعاف المسلمين. فهيأت للبريطانيين فرصة لتعزيز قواهم فى المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد.

أما العامل الثانى الذى يفسر لنا سر نجاح البريطانيين فيعود إلى عدم توفر قوة بحرية هندية. ذلك أن المغول، رغما عما قاموا به من تكوين جيوش جبارة، لم يدركوا ما للأساطيل البحرية من أهمية: وكان «المراتيون» و «حيدر على»[1] الوحيدين من بين الهنود الذين كان لديهم فكرة عن أهمية القوات البحرية، فسعوا لتشييد أسطول جبار، على أنهم لم يوفقوا، لأن المحاولة جاءت متأخرة من ناحية، ونظرا إلى أن الأوربيين سبق لهم أن سجلوا تفوقا

1 Hyder Ali

اهتمامهم فى الهند الشرقية كان البريطانيون يوجهون كل اهتمامهم إلى الهند. أما الفرنسيون فكانوا آخر من ظهر على مسرح الحياة الهندية من بين الأوروبيين. وكان نجاحهم فى بادئ الأمر ليس مما يثير القلق، ولكنهم كانوا أول من فكروا باقامة امبراطورية لهم بعد المحاولة الفاشلة التى قام بها البرتغاليون فى هذا الصدد. وفى منتصف القرن الثامن عشر بدأت مطامعهم السياسية تطغى على أغراضهم التجارية. والطريف فى الأمر أنهم استخدموا نفس الأساليب والخطط التى استخدمها البرتغاليون من قبلهم. وقامت سياستهم على التدخل فى الخصومات المحلية وتأسيس جيش هندى مدرب على أحدث الفنون العسكرية الأوروبية تحت إشراف ضباط أوربيين. أما تدخلهم فى المنازعات المحلية فقد أثار عليهم نقمة البريطانيين، وأسفر بالتالى عن تأسيس إمبراطورية بريطانية فى الهند.

ويلاحظ أن الأوروبيين عند قدومهم إلى الهند كانوا على وجه التأكيد دون الهنود خبرة فى ميادين السلام. ولا يستبعد أنهم فى بادئ الأمر كانوا دون الهند معرفة بفنون الحرب، على أنهم، رغم كل هذه الاعتبارات، ربحوا فى النهاية معركة النفوذ والسلطان.

في أبراجهم العاجية كأن شيئا ما لم يتغير. ويعمد المتنافسون من هؤلاء الحكام والولاة إلى استغلال لقب الامبراطور الاسمي لتأمين مصالحهم. ويلاحظ أن الأمراء المتنافسين حاربوا بعضهم بعضا كما حاربوا المناطق الأخرى من الهند. وشاهدت الأجزاء الشرقية والجنوبية والشمالية من البلاد اشتباكات حادة بين عدد من المتنافسين على العروش والمطالبين بها. ولعل ما أبداه الهنود من ضعف وانحلال يفسر السبب الذي بعث فكرة إنشاء إمبراطورية في عقول الأوربيين. وكما بدا فيما سبق فإن الفرنسيين كانوا أول من أحس سنة [illegible] بإمكان التدخل في الخلافات المحلية بين الأمراء الهنود والتشيع إلى فريق دون آخر. وقد أفاد الفرنسيون من هذا التدخل من حيث المغنم والنفوذ. وسرعان ما شرع البريطانيون يقلدون الفرنسيين ويحذون حذوهم. وعندما شرعوا في هذا التقليد تدخلهم في الصراع الذي قام بين المطالبين بعرش «أركوت»[1] تمكنوا في غير مدة لا تكاد تتجاوز أربعين سنة من بسط سيطرتهم على أساس الأمر الواقع على أقاليم «البنغال» و«بهار» و«أوريسا» وإن احتفظ الحكام والولاة المحليون بنفوذهم في الظاهر. وقد دأب

1 Arcot

عظيما فى الميادين الفنية . والواقع أن التفوق الفنى عند البريطانيين هو العامل الحاسم الثالث الذى ضمن للبريطانيين تشييد إمبراطورية فى الهند . ذلك أن أوربا منذ القرن السابع عشر فما بعد كانت قد سجلت سلسلة من الاكتشافات العلمية . وقد أدت هذه مع مرور الزمن إلى إحداث تغيير هائل فى وسائل الانتاج الصناعى وفنون الحرب والقتال وقد تسنى للعرب والأتراك ، بفضل تفوقهم عسكريا وما كانت يتوفر لديهم من خبرة علمية ، دحر الأوربيين وإلحاق الهزائم بهم . ويلاحظ أن الأوربيين وإن مكثوا مدة من الزمن متأخرين فى ميدان الفنون الحربية ، إلا أنهم استطاعوا فيما بعد اللحاق بقافلة الزمن ، فى حين أن آسيا بأسرها من الناحية الأخرى تخلفت عن قافلة العالم فى هذا الميدان . وعلى ذلك فان ملوك الهند وحكامها عندما اصطدموا البريطانيين لم يتمكنوا من الصمود أمامهم .

وبوفاة « أورنج زيب » فى ١٧٠٧ أصبحت الهند لمدة مائة وخمسين عاما مسرحاً للدسائس والأحقاد المستمرة . وأصبح المتربع على عرش دلهى إمبراطورا بالاسم ، إذ أن النفوذ الحقيقى آل إلى حكام وقادة الأقاليم . على أن هؤلاء الملوك استمروا يعيشون

نفوذ حيدر على بسرعة أثار حسد «المراتين» و «النظام». وقد استغل البريطانيون هذا الشعور على أحسن وجه لحمل النظام والمراتين على التحالف معهم ضد صاحب ميسور الذى غلب على أمره نهائيا بعد عشرين سنة من الحروب.

وكان المراتون السلطة الهندية الثانية التى تغلب عليها البريطانيون. ومع أن «وارن هيستنجس» كان قد حاربهم إلا أنه لم يشعر بمقدرته على تحطيم بصورة حاسمة، إلا بعد انهيار مملكة صاحب «ميسور». وتمكن البريطانيون من التغلب على «المراتين» والقضاء على نفوذهم فى الفترة الواقعة ما بين ١٨٠٠—١٨٢٠. ولم يبق أمام البريطانيين من خصوم سوى «السيخ»[1] الذين كانوا يسيطرون على منطقة «البنجاب». على أن هؤلاء فقدوا بوفاة «رنجيت سنج»[2] القائد الذى لم تكن تعوزه القوة والنبوغ. ووقعت أول محاولة جدية من جانب البريطانيين للتدخل فى السياسة الهندية حوالى عام ١٧٥٠. وبحلول عام ١٨٥٠ أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ فى البلاد.

وفى وسعنا أن نلخص مراحل التوسع البريطانى فى الهند على

1 Sikh   2 Ranjit Singh

البريطانيون طيلة القرن الثامن عشر وقسما من القرن التاسع عشر على الادعاء بأنهم مجرد جباة للدخل باسم الامبراطور، على أنهم خلال حكم «كورنواليس»[1] (١٧٨٦ — ١٧٩٣) إن لم يكونوا فى عهد «وارن هيستنجس»[2] (١٧٧٤ — ١٧٨٥) أصبحوا فى الواقع الأداة الحكومية الفعالة لقسم عظيم من أجزاء البلاد.

ولم يكن الانتصار الذى أحرزه البريطانيون بالأمر الهين، فقد منوا بنكسات عديدة أولاها تلك التى منوا بها فى الجنوب. وترا آى إلى حين أن مملكة «ميسور»[3] التى ظهرت على المسرح قد يكون فى مقدورها الحد من النفوذ البريطانى. وامتاز حيدرعلى صاحب «ميسور» ونجله السلطان «تيبو»[4] بكفاءتهما وبسالتهما. ولئن رجحت كفة الوالد على نجله فى القيادة، إلا أن الابن فاق والده وطنية، ووضع قضية استقلال البلاد فوق كل اعتبار، على أنهما لم يتمكنا من الاتحاد مع «المراتيين» و«النظام». وهذا رغما عن إدراك «تيبو» بأن البريطانيين هم مصدر الخطر الذى يهدد استقلاله دون أية سلطة من السلطات القائمة فى البلاد. ومن ناحية أخرى فان تعاظم

1 Cornwallis 2 Warren Hastings 3 Mysore
4 Tipu Sultan

[illegible] أن منطقة [illegible]
[illegible] هذه [illegible]
[illegible] وإحصاء [illegible] إلى [illegible]
[illegible] أن التاج البريطاني [illegible] على عاتقه
[illegible] ذلك [illegible] في
[illegible] عام ١٨٧٧ [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] قيام [illegible]
[illegible] في عام ١٥٢٦ [illegible]
[illegible] الأولى، إلا أن [illegible] الدولة المغولية [illegible] كانت
[illegible] وعلى هذا فإن [illegible] المغولي
[illegible] عام ١٥٥٦ [illegible]
[illegible] في أن الإمبراطورية المغولية كانت
[illegible] من [illegible] الحيوية [illegible]
[illegible] على هذا التاريخ [illegible] أن البريطانيين احتاجوا
إلى مئة عام لتدخلهم في السياسة [illegible] وتأسيس حكمهم بالتالي.

الوجه التالى، فالذى حدث أن انتصارهم فى معركة «بلاسى»[1] عام ١٧٥٧، مكنهم من بسط سيطرتهم على البنغال وإن لم يصبحوا حكام هذا الإقليم الحقيقيين. وفى عام ١٧٦٥ استحصلوا من الامبراطور المغولى حق جباية الدخل فى أقاليم «البنغال» و«بهار» و«أوريسا». وكان لتداعى مملكة «ميسور» فى عام ١٧٩٩ أن يبسطوا سيطرتهم على جزء كبير من المناطق الجنوبية. وقد تمكن «ولسلى»[2] فى عهده ما بين ١٧٩٨–١٨٠٥ من تنظيم وإبرام عدد من محالفات فرعية لإخضاع الأمراء الهنود إلى النفوذ البريطانى دونما حاجة إلى التحول معهم فى معارك. و«ولسلى» هذا هو الذى قضى على مملكة «ميسور» وقوض أركانها. واستمرت عملية استيلاء البريطانيين على ممالك وأراض جديدة فى عهد «دلهوزى»[3] ما بين ١٨٤٨ — ١٨٥٦. وقد اندفع هذا مستثمراً واستغل الفرص السانحة لبسط السلطة البريطانية على البلاد كلما قام نزاع حول وراثة العرش بحكم انعدام وارث شرعى، أو كلما وجد البريطانيون أنفسهم غير مطمئنين إلى الوارث الشرعى. وهنا كان للبريطانيين القول الفصل فى حسم الأمور المتصلة بوراثة العرش. هذا وبحكمهم هذه

1 Plassey　　2 Wellesley　　3 Dalhousie

تسيطر عليها عبر البلاد عن طريق كلكتا[1].

ولعل أهم فارق بين الامبراطورية البريطانية والامبراطوريات التي سبقتها في الهند يتجلى في نوع وطبيعة السلطة التي تولت حكم البلاد. فبينما نلاحظ أن الامبراطوريات السابقة تأسست بفضل جهود الجنود المغامرين الذين كرسوا حياتهم لتأسيس الامبراطوريات نجد أن البريطانيين تسللوا إلى البلاد عن طريق التجارة، وحتى بعد أن حققوا لأنفسهم ما كانوا ينشدونه من سلطة سياسية. كانت الشركة التجارية البريطانية هي التي مارست السلطات في البلاد، وكان الطابع التجاري لهذه الشركة قد أثر تأثيرا محسوسا على نوع الجهاز الاداري في البلاد ووظيفته. وما كان لملك — وإن كان دخيلا أجنبيا — إلا أن يسهر بحكم مقتضيات الأمور على مصالح رعاياه إلى حد ما. أما شركة تجارية فكانت بصراحة تعمل بوحي مغانمها ومصالحها المادية، وكان طبيعيا، طالما بقيت هذه الشركة التجارية السلطة الحاكمة، أن يسخر الجهاز الاداري لتأمين مصالح حملة الأسهم بدلا من الاهتمام بمصالح أفراد الشعب الذين آل إليها أمر حكمهم.

1 Calcutta

أما نقطة التباين الهامة الثانية بين العهدين فهى أنه فى حين أن الامبراطورية المغولية كسابقاتها من الامبراطوريات الهندية اعتمدت فى قيامها على القوات البرية، إنما تحقق الحكم البريطانى بفضل تفوق البريطانيين البحرى. وواقع الحال أن هذه كانت أول مرة فى تاريخ البلاد أن تقوم بها دولة بحرية بتأسيس إمبراطورية لها فى الهند. وعلاوة على ذلك، فانه بينما قامت الامبراطورية المغولية فى الزاوية الشمالية الغربية فى البلاد، ثم امتدت تدريجيا إلى النواحى الشرقية والجنوبية منها. إلا أن السلطة البريطانية بدأت تظهر على السواحل الجنوبية الشرقية، ولعل تهديد حيدر على المتواصل جعل من المتعذر على البريطانيين اتخاذ «مدراس»[1] نقطة وثوب للزحف البريطانى. وكذلك فان مدينة «بومباى»[2] كانت تعيش فى ظل الحكم «المراتى». وكما أسلفنا فان حيدر على و «المراتيين» انفردوا من بين الولاة الهنود فى إدراك أهمية الأساطيل البحرية. وليس من المستغرب فى مثل هذه الظروف أن يتحول مركز النفوذ البريطانى إلى النواحى الشرقية من البلاد. والواقع أن النفوذ البريطانى أخذ يمتد

1 Madras 2 Bombay

شئون الشركة أدى إلى تغير تدريجي في طابعها. وقد فرض قانون التنظيم على الشركة أن تنقل إلى الحكومة البريطانية جميع المراسلات الصادرة عن الهند والخاصة بالدخل والمسائل المدنية والعسكرية. أما قانون ١٧٨١ فوسع نطاق هذه الأحكام بحيث أصبحت تشمل المراسلات الموجهة إلى الهند. ومن ناحية أخرى كان قانون «بت» سنة ١٧٨٤ الخاص بالهند قد حول الشركة في الواقع إلى دائرة حكومية. ومع أن القانون المرسوم «شارتر ايكت»[1] لعام ١٨١٣ لم يحدث تغيرات دستورية واسعة إلا أنه ألغى الامتياز التجاري الذي طالما تمتعت به الشركة كما نص على اعتمادات مالية سنوية لتشجيع التعليم والآداب والعلوم. أما قانون ١٨٣٣ فقد جرد الشركة من طابعها التجاري وأفسح المجال للمرة الأولى أمام الهنود لاشغال مناصب عالية فيها، على أن ما نص عليه هذا القانون من إسناد وظائف للهنود بقي مجرد حبر على ورق ووعد لم ينفذ لسنين. وكان آخر قانون مرسوم «شارتر ايكت» قد صدر في عام ١٨٥٣، فأفسح مجال العمل والتوظف في الشركة على أساس المسابقة. وعلى ذلك جردت الشركة من أية رعاية وفقدت طابعها التجاري. والواقع

1 Charter Act

ولم يستمر الطابع التجارى المحض للجهاز الادارى طويلا. ولا مشاحة أن الشركة حتى فى بادئ عهدها كانت تضم عددا من ذوى الكفايات والآفاق الواسعة. وكذلك كان البرلمان البريطانى انبرى للتدخل فى شؤون الشركة فى موعد مبكر. فقد أخضعت إدارة المستر «كلايف»[1] إلى رقابة برلمانية. وما كادت تقضى عشرة أعوام على تأسيس المحاكم العرفية «ديوانى» حتى صدر قانون التنظيم لعام ١٧٧٣. وهو القانون الذى هدف إلى الحد من نشاط الشركة غير المرغوب فيه. أما قانون «بت»[2] الصادر فى عام ١٧٨٤ فقد فرض قيوداً أخرى على الشركة وموظفيها، وتكشفت محاكمة «وارن هيستنجس» من عيوب خطيرة فى الادارة، مما أدى إلى المطالبة بتوسيع نطاق المراقبة البرلمانية على الشركة. وبتعيين المستر «كورنواليس»[3] فى عام ١٧٨٦ حظيت الشركة أول مرة بشخصية عسكرية سياسية امتازت باستقلالها فى الرأى. وكان «كورنواليس» قد قبل رئاسة إدارة الشركة شريطة أن تكون له الكلمة العليا على جميع الموظفين.

نستخرج من كل هذا أن ازدياد اهتمام البرلمان البريطانى

1 Clive 2 Pitt 3 Cornwallis

لم يكن من الميسور إذ ذاك دائما ممارسة الحقوق الدستورية بحرية، وحتى هذا الحق فقد ألغى بفضل «قانون الصحافة الوطنية المحلية» لعام ١٨٧٨ ، الذى ميز وفرق بين الصحافة البريطانية والهندية، على أن العام الذى تلاه شاهد خطوة كبيرة إلى الأمام. ولما كان الهنود لا يشغلون مناصب إدارية هامة، فان القوانين التى سنت على حسن نية لم تنفذ وبقيت حبرا على ورق، ولكن لما تم تأسيس الخدمة المدنية فى عام ١٧٧٩ فقد تحققت لأول مرة العهود التى قطعت بمقتضى القانون بمرسوم «شارتر ايكت» لعام ١٨٢٣.

وفى هذه الغضون أخذ اشتراك الشعب ومساهمته فى الحكومة ينمو ويتطور تدريجيا. وقد نص قانون المجلس الهندى لعام ١٨٦١ على إشراك عدد من غير الموظفين فى الأعمال التشريعية التى تقوم بها الحكومة المركزية وحكومة المقاطعات الثلاث. ورغما عن أن صلاحيات هؤلاء كانت محدودة وأن تعينهم تم عن طريق الترشيح، إلا أن القانون أتاح لهم الفرصة للاشراف على أعمال الهيئة التنفيذية. وفى عام ١٨٨٣ أصدر «ريبن»[1] قرارا بمنح الحكم الذاتى المحلى على غرار القوانين المعمول بها فى بريطانيا فى ذلك الحين،

1 Ripon

أن ما بقى لها من نفوذ صورى لم يلبث أن زال بعد ثورة عام ١٨٥٧، عندما أخذ التاج البريطانى على كاهله مسؤولية الحكومة الهندية.

ولعل ما أوردناه عن الكيفية التى تم معها الاستعاضة عن حكم الشركة واستبداله تدريجيا بادارة عامة مسؤولة أمام البرلمان البريطانى لا يخرج عن كونه نصف الرواية. أما النصف الآخر والأهم فينحصر فى نقل شؤون الادارة تدريجيا من البريطانيين إلى الشعب الهندى. وكانت الشركة منذ البداية هيئة تجارية تعمل بصورة سافرة من أجل الربح. على أن ممارسة البرلمان البريطانى للسلطان لازمه اهتمام بمصالح الشعب ورعايتها. وواضح أن هذا الاهتمام بمصالح الشعب لم يصبح فعالا شاملا إلا بعد أن تحولت الادارة إلى حكومة من الشعب تعمل لمصلحة الشعب الهندى.

وكانت أولى المحاولات التى بذلت للتجاوب مع رغبات الشعب الهندى هى قانون «ميتكاف»[1] للمطبوعات الصادر عام ١٨٣٥. وقد ألغى هذا القانون المراقبة على الصحف وأتاح الفرصة للصحف الهندية أن تعبر عن آرائها بحرية. ولعل «ميتكاف» كان سابقا لأوانه، إذ

1 Metcalfe

ثمرة مثابرة القوة المشجعة لنشاط وجهود رجال الارساليات أمثال «كارى»[1] والزعماء الهنود من طراز «راجه رام موهن راى»[2]. وقد نجحت كفة الداعين لاقتباس النظم التعليمية الغربية عندما تم تأسيس جامعات ثلاث فى «كلكتا» و«مدراس» و«بومباى». وبفضل قيام هذه الجامعات تهيأت الفرصة للعقلية الهندية أن تتصل مباشرة بالأفكار السياسية الأوربية الحرة والانتفاع من الطابع العلمى الأوربى. ومهما أخذنا على ذلك النظام التعليمى من عيوب ونقائص إلا أنه من غير المشكوك فيه أن النهضة الهندية مدينة إليه بالشىء الكثير.

وأدى تقسيم إقليم البنغال فى عام ١٩٠٥ إلى خلق جو سياسى جديد فى البلاد. ذلك أن انتشار التعليم وما بدا فى البلاد من وعى سياسى متزايد قد عزز المطالبة بالحكم الذاتى. على أن الاصلاحات التى أدخلت وفقا لتوصيات «مورلى منتو»[3] فى عام ١٩٠٩ وما أعقبها من إصلاحات أخرى أوصى بها «مونتفورد»[4] فى عام ١٩١٩ قد أثبتت أنها ناقصة. وكان لانهيار الامبراطوريات القديمة فى أوربا وتحول الامبراطورية البريطانية نحو نظام «الكومنولث»[5]. الذى

1 Carey
2 Raja Ram Mohan Roy
3 Morley Minto
4 Montfords
5 Commonwealth

وتلا ذلك إلغاؤه لقانون المطبوعات المحلية. كما سن تشريعات تقضى بازالة التمييز القائم فى الهيئة القضائية. على أنه اضطر فى النهاية إلى التخلى عن مشروع القانون، وهذا نظرا للمعارضة القوية التى أبداها الرأى العام البريطانى. ويلاحظ أن انعقاد أول دورة لحزب المؤتمر الهندى بعد مرور عام واحد على مغادرة «ريبن» البلاد لم يأت عفوا أو عن طريق الصدف. على أن قانون المجلس الهندى لعام ١٨٩٢ يعتبر خطوة أخرى إلى الأمام. ذلك أنه أحدث النظام التمثيلى، وإن لم يكن النظام الانتخابى، فى المجالس التشريعية، مركزية كانت أو إقليمية، كما منح حق مناقشة الميزانية وتوجيه الأسئلة حول المشاكل ذات الأهمية العامة.

ولعل أهم انقلاب وقع هو إدخال النظم التعليمية الغربية على البلاد. ومع أن هذه الخطوة لم تكن موضع التشجيع من الحكومة القائمة فى ذلك الحين، إلا أن الحماسة التى أبداها نفر من رجال الارساليات المسيحية وبعض الزعماء الهنود من ذوى الآفاق الواسعة والايمان القوى مكنهم من التغلب على جمود الادارة فى هذا الصدد. وجاء إصرار «ميكالى»[1] على تطبيق النظم التعليمية

1 Macaulay

عمليات
التنسيق والتوفيق فى العهد الآرى

إن الهند منذ أقدم العصور، هى نقطة التلاقى لمختلف الأجناس والعناصر والحضارات المتضاربة. وقد حاولت الهند منذ القدم أن تؤلف هذه العناصر المتضاربة التى تتركب بها وحدتها الكاملة. ولعل الحضارة الهندية بتاريخها المتواصل هى من أقدم الحضارات. وبينما حضارات البلدان الأخرى، التى عاصرتها، لم تعمر بل آلت إلى الزوال، فان الهند لم توفق إلى أن تعمر وتستمر على قيد الوجود فحسب، بل احتفظت أيضا بثقافة مستمرة غير متقطعة. وقد شاهدت الهند تلاقى أجناس مختلفة تصادمت وتصارعت ثم ما لبثت أن تآخت على أراضيها، على أنها امتصتها جميعاً فى النهاية. وقد يكون أن الثقافات المتباينة التى شهدتها الهند قد تبارت وتنافست من أجل السيادة والسيطرة، إلا أنها صهرتها فى بوتقتها وصاغتها على النحو والكيفية التى اختطتها. والواقع أن العناصر

وضع المستعمرات القديمة كـ «كندا» و «استراليا» على قدم المساواة مع بريطانيا، مصدر إلهام للشعب الهندى وحفزه على بذل مزيد من الجهود للحصول على حريته. والواقع أن مؤتمرات المائدة المستديرة التى عقدت ما بين ٣٢ — ١٩٣٠ كان لها فضل يذكر فى هذا الاتجاه. ذلك أن هذه المؤتمرات والاجتماعات هيأت أول فرصة لممثلى الشعب الهندى للاجتماع بممثلى الحكومة البريطانية على قدم المساواة والتداول معهم حول مستقبل البلاد. ونص قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥ بمنح الأقاليم نوعا من الاستقلال الذاتى وتعهد بفرض مدى أوسع فى المراقبة على الحكومة المركزية. وقد أدى قيام الحرب الكونية الثانية واندلاعها إلى عرقلة إقامة النظام الاتحادى وتقدمه، وفى هذه الظروف تحولت جهود الهنود نحو المطالبة بالاستقلال التام وقطع العلاقات مع بريطانيا. وفى عام ١٩٤٧ صدر قانون استقلال الهند الذى اعترف بحق الهند فى تقرير مصيرها. ومن الطريف حقا أن الهند عندما حصلت على السيادة والاستقلال استقر رأيها على الأخذ بالنظام الجمهورى إلا أنها لم تر ما يبرر لها التخلى عن رابطتها بمجموعة دول «الكومنويلث».

١ — الوحدة فى التناقض

كان الاعتقاد السائد، حتى الآونة الأخيرة، أن الآريين هم أقدم الأجناس التى غزت الهند. وقد قيس أنهم عندما وفدوا على الهند فقد حلوا ببلد غير متمدين بربرى، على أن الأبحاث العلمية الحديثة قد ردت تاريخ الهند القديم إلى ما وراء الآريين. ذلك أن أقواما آخرين كانوا قد سبقوا الآريين فى غزو الهند وشيدوا فيها حضارة تفوق حضارة الآريين الذين جاءوا هذه البلاد فى أعقابهم. والمعروف أن الذين سبقوا الآريين إلى غزو البلاد، قد شتتوا سكانها الأصليين وأقاموا حضارة بهرت العلماء المعاصرين من حيث اتساع نطاقها وعمق غورها، على أن الغزوة الآرية أعادت تمثيل الرواية نفسها بفضل ما أسفرت عنه من الجمع والتوفيق ما بين القديم والحديث. وقد استمرت عملية الجمع والتوفيق هذه، باستمرار تسلل العناصر المحاربة إلى الهند، وهى التى جاءتها بقصد الفتح والتوسع، ولكنها ما لبثت أن فقدت ذاتيتها وذابت فى بوتقة الصهر الهندية. وجاء على أعقاب الغزو

والحقائق الأجنبية على السواء مرت تحت أضراس طواحينها. وقد تمخض الصراع بين هذه العناصر والأفكار فى النهاية عن قيام عملية امتزاج بينها، تعتبر فى مستواها من أسمى ما حققته النفس البشرية. ولقد صمدت الهند أمام الأعاصير والحروب المتكررة التى دارت رحاها فى أراضيها قرونا طويلة كما صمدت أمام الآفات والأوبئة التى منيت بها. أجل، لقد خرجت الهند منتصرة مظفرة من نضالها وصراعها ضد آفات الطبيعة وأسواء الحكم البشرى. فما أعجبها حيوية تلك التى تغلبت على الفناء والموت. وما أعظمها حكمة تلك التى استطاعت أن توفق وتؤلف بين الآراء والنظريات المناقضة. إن قصة الثقافة الهندية لتكشف لنا عن السر الكامن وراء هذه الحيوية والحكمة. وهى فى الواقع قصة تروى لنا عملية التوحيد والتركيب، والوفاق والتحسين، والاندماج الكامل بين التقاليد القديمة والقيم الحديثة.

تمثل في تعداد الطبقات. وجل ما أستطيع أن أقول، هو أن كل ما يمكن اعتباره هنديا اليوم سواء في الأفكار والتعابير أو الأساليب أو الفنون أو المؤسسات السياسية والعادات الاجتماعية، لا يخرج عن كونه مزيجا من عناصر وتراكيب مختلفة

وبرغما عن أن الهند قد استمدت وأخذت من مختلف المصادر والموارد، وبغض النظر عن اختلاف المصادر التي استقت منها وتنوعها وتعدد أساليبها ونماذجها وأشكالها، نلمس فيها وحدة رائعة في الشعور، وهذه الوحدة التي ظلت على مر العصور والأجيال مصدر وحي وإلهام الثقافة الهندية. وحقيقة الحال أن هذه الوحدة الدائمة هي من أروع المظاهر المميزة للثقافة الهندية. وباستثناء محتمل للحضارة الصينية، فإن حضارة ما من حضارات العالم لا يمكنها أن تضاهي الحضارة الهندية من حيث سعة حجمها وزمنها. فمساحة الهند وتعداد سكانها وتنوع أجناسها وعمق تاريخها قلما يوجد لها مثيل في العالم. أما حيوية الثقافة الهندية فهي بدورها مثيرة للدهشة. ورغما عما تعرضت إليه الهند من ألف تقلبات فقد صمدت وعمرت حتى يومنا العصري. على أن الهند لم يتسن لها أن تعمر فحسب، ولكنها أبدت من النشاط والحيوية ما يبشر بأنها

اليونانى للهند غزوات «الساكاس»[1] و«الهنس»[2] ومئات غيرهم من القبائل التى لم تعرف أسماؤها. ومع أن هؤلاء ظهروا على المسرح الهندى كفاتحين مظفرين إلا أن الشعوب التى تغلبوا عليها ما لبثت أن امتصتهم وصهرتهم فى أتونها.

ويلاحظ أن كل غزوة من الغزوات الجديدة التى تعرضت إليها البلاد سواء كانت هذه فكرية أم مادية، وجدتها أكثر بلاغة، وزادت من عملية الامتصاص والتنسيق، وقد يكون من مساوئها أنها أدت إلى اتصالات وتقارب آلى. ولكن من محاسنها أنها بعثت إلى الوجود نمطا أساسيا جديداً من الحياة. والجدير بالذكر أن أجهزة الصهر والهضم ما كانت لتهدأ أو تتوقف عن العمل، لأنها كانت باستمرار تتغذى، وذلك بالفيض الدافق من العناصر الحديث مما أدى بالتالى إلى ثراء الحياة الهندية وتنوعها. وقد يحاول نفر من المشتغلين فى العلوم الاجتماعية أن يربطوا بين الانقلابات التى طرأت على النواحى الاجتماعية الهندية ودياناتها المتنوعة، ويقيموا صلة بينها وبين غارة خارجية أخرى فى جانب مغيرين آخرين، ولكن هذه الرواية بقيت غير مكملة، وما زالت

1 Sakas 2 Huns

الفكر الهندى والمجتمع الهندى من تكييف نفسه للظروف فى مختلف العهود والأوضاع بمرونة لا تجارى، ثم تكرار عملية التكييف هذه كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

وتعكس لنا عملية التكييف هذه روح التسامح التى امتاز بها التاريخ الهندى على مر العصور. وكانت السياسة الهندية من جميع النواحى، تقوم على أساس التعايش، وقد حدث أحيانا أن غالى الهنود فى سياسة التسامح هذه إلى درجة أدت إلى نتائج واتجاهات معاكسة، بل متناقضة، وقد بلغت روح التسامح هذه بالهنود حداً أدت إلى تحمل الأذى وأحيانا ما إلى عدم المبالاة بالقيم. ولعل أردأ ما يقال عنه هو أنه عيب فى عمل صالح. وعندنا أن هذا التسامح ليفضل على التعصب الأعمى القائم على إنكاره واضطهاده لجميع القيم الأخرى التى تختلف عن قيمه.

ويلمس المتتبع لتصور التاريخ الهندى والتغيرات التى طرأت عليه، روح الوحدة الأصلية هذه التى تعتبر مصدر إلهام لنواحى الحياة الهندية. على أن هذه الوحدة لم تكن رتيبة جامدة تتلاشى فيها عوامل الحياة إنها وحدة حية — إن فيها طابع الشمول الذى

ستتحول إلى مصدر من أنفع المصادر وأكثرها فائدة للثقافة العالمية فى المستقبل. وقد اكتسبت الهند هذه الميزة بفضل ذاتيتها الهندية التى خلقت من التباين والتنوع وعدم التجانس وحدة متماسكة، وخلقت من مختلف العناصر التى تسربت إليها بأنواعها وألوانها وصفاتها المتعددة طرازاً وطنياً موحداً.

وعندنا أن عاملى الوحدة والتناسق هما الدعامتان الأساسيتان لاستمرار التقاليد الهندية. إن الحضارات التى أشعها العالم القديم فى مختلف البلدان باستثناء الحضارتين الهندية والصينية قد تلاشت وانهارت، ومن المحتمل أن حضارات جديدة كانت قد ازدهرت فى مثل هذه البلدان القديمة، إلا أنها حديثة العهد والنمو. والواقع أن الهند وحدها هى البلد الذى شاهد قيام وتبدل حضارات قديمة دون أن تمس هذه الحضارات بوحدة البلاد الأصيلة أو تجحف بها، وما يقال فى الهند يقال فى الصين إلى حد ما. وما كان هذا أن يتحقق إلا بفضل مقدرة المجتمع الهندى وطاقته على تكييف نفسه كلما دعت الضرورة إلى ذلك. والواقع أن مقدرة بلد ما واستعداده على تكييف نفسه هى دليل الحياة. ويتجلى لنا استمرار الحضارة الهندية وتعميرها طويلا فيما أبداه

الثقافة من المعانى التى لا يمكن تحديدها بسهولة. وذلك لانعدام أية ميزة أو علامة فارقة تميزها عن أى شىء آخر، وهى دائما أبداً خليط ومزيج فى عناصر متباينة الأهمية والحيوية. وإذا ما حاولنا التمييز بين الثقافة والحضارة، قلنا، إن الحضارة عبارة عن نظام من الحياة يتسنى معه تحقيق مجتمع مدنى، وقيام مثل هذا المجتمع المدنى هو شرط لأية حياة مشتركة تمكن الأفراد وحدهم من متابعة نشاطهم الانشائى المفيد. أما الثقافة فهى وليدة هذا النظام وتعبر عن نفسها عادة بواسطة اللغة والفنون أو الفلسفة أو الدين والعادات والطقوس الاجتماعية والمؤسسات السياسية والاقتصادية، على أن واحدة منها على انفراد لا يمكن اعتبارها ثقافة، ولكنها بمجموعتها تعبر تعبيرا حيا لما نصفه بالثقافة. والحضارة هى النظام الاجتماعى الذى يهيء الجو لقيام الثقافة، وعلى ذلك فان الثقافة والحضارة متلازمتان يتمم بعضهما بعضا. فليس هناك ثقافة بدون حضارة وإن كان من الممكن قيام حضارة لم يتيسر لها بعد تنمية ثقافتها. والسائد فى أكثر الأحيان هو وجود شعوب متمدينة لم يتسن إلا لعدد ضئيل منها أن يحقق ثقافة لنفسه. ولعل هذا ما يفسر عثورنا على سابقة تكون فيها بعض الشعوب والأجناس متمدنة، لكننا لا

يحمل فى طياته رغبة الابداع فى التنوع مع الاحتفاظ بالذاتية. وكل ما هو شامل عام لا يقع تحت قوام خاص ولا يبدد ذاتيته فيه. وما ينطبق على الشمول، ينطبق أيضا على الحقائق المجردة. ذلك أن نفس الحقيقة تؤدى معانى مختلفة باختلاف القرائن أو سياق الكلام. وإن من ينكر ذلك فانما يحاول إنكار إمكانية الاتصال بالمنطق، وحتى فى عالم الحقائق القائمة على التجربة والاختبار فان اختبارنا لحادثة ما والمعنى الذى تؤديه يختلف باختلاف الأشخاص، وينطبق هذا القول على وجه أعم على عالم الحقائق الملموسة، وكل شمول لا بد له من أن يصطبغ بصبغة ثابتة قاطعة. أما المضمون فيختلف باختلاف الشعوب والعصور والبيئات. والطريف أن وحدة الثقافة الهندية قامت على أساس الشمول الحقيقى، على أن الذى لا يمكن إنكاره، أن هذه الثقافة فى نفس الوقت لم تخل من شائبة التنوع والتباين، وبالعكس فقد تغلبت على مظاهر الاختلافات السطحية وأوجدت فيها الوحدة.

إن عاملى الوحدة والشمول يلازمان بكل ثقافة حية صادقة، وبمعنى آخر إنهما من صميم هذه الثقافة، وكما هو معروف، فان

وكثيرا ما نشاهد بين البلدان الغربية أمثلة على قيام حضارات لا تتوفر فيها الثقافة. والواقع أن من أخطر المشاكل التى يجابهها العصر الحاضر هى إيجاد وخلق ثقافات لتلك البلاد التى أحرزت تقدما باهرا فى إعداد وتطوير منطقات والوسائل الضرورية لتحقيقها للحضارة. أما فى الهند فكانت عمليات التحضير أقل نموا من مثيلاتها فى أوربا وأمريكا. ويتجلى مدى هذه الحضارة ودرجتها فى طابع الشمول الذى تتميز به الثقافة المنتشرة بين صفوف الأغلبية من سكانها. وعندنا أنه حتى الزائر العابر بهذه البلاد لا بد وأن أدرك بأن الفوارق بين مجموعة الشعب وطبقاته لا تقوم على اختلاف فى الجودة أو النوع، بل عن عدم التكافؤ فى الفرص والمعلومات. أما الأمر فى البلدان الأوربية فكان على العكس، حتى الآونة الأخيرة. ذلك أن الاختلاف فى الجودة بين مجموعة الشعب والطبقات الأخرى بلغت فى حين من الأحيان درجة زعزعت الثقة فى الديموقراطية، حتى بين أشد المتحمسين لها. وما كان للتقدم والتطور فى الحكومات التى يرأسها الفنانون أن يتغيرا من هذه الأوضاع بصورة جزرية، بل الأمر على العكس، فقد اتجه هذا التقدم فى المراحل الأولى على الأقل إلى خلق طبقة من البلداء والبلهاء. ويلاحظ أن تأخر

تعرف سابقة يمكن فيها اعتبار أمة أو جنس ما مثقفا ثقافة تشمل جميع العناصر والطبقات التى تتألف منها. والثقافة، فيما نرى، هى ازدهار المدنية وانتعاشها.

أما والحالة كما هى عليه من إخفاق الانسان فى التغلب على قوى الطبيعة. فلا مندوحة للثقافة من حيث مداها ونطاقها أن تكون دون الحضارة نفسها. ذلك أن طاقة الانسان وموارده المحدودة اضطرته ودفعته إلى الاختلاط، لأن بقائه بدون ذلك يغدو مهدداً. فبفضل الاختلاط تسنى للانسان إيجاد الأحوال والشروط الضرورية للبقاء. ولما ضمن الانسان لنفسه هذا البقاء والاستمرار انطلقت منه تلك القوى الضرورية لتنمية الثقافة على نطاق بدائى. ويستنتج من هــذا أن الثقافة هى وليدة للتحرر من الحاجة مشكلة البقاء، فى حين أن الحضارة هى الأداة التى استنبطت واستخدمت لتحقيق هذا التحرر. وليس بغريب، والحالة هذه، أن جاءت الثقافة أقل انتشارا ونفاذا من أداة الحضــارة. أما الغريب فى الأمر فهو أن الهند على ما يلوح، هى البلد الذى أقام الدليل على أن ثقافته ليست بأقل حظا من حضارته.

٢ ــ التأثيرات الجغرافيــة

إن طبيعة الهند الجغرافية قد ساعدت إلى حد كبير بطريقة مباشرة وغير مباشرة على بعث روح التسامح القائم فيها. أما التأثير الجغرافى المباشر فيتجلى فى مناخها وضخامـة حجمها، وذلك أن اتساع حجمها أثر على تفكير السكان وعقليتهم من ناحيتين. إن التنوع العظيم فى مناظرها ومناخها وطرق معيشتها، هيأ العقول لقبول الفوارق الشتى القائمة. وعلاوة على ذلك فان ضخامـــة مساحتها أوجدت متسعا جـديداً لاسكان الذين تسللوا إليها من الخارج رويدا رويداً، وهيأت لكل مجموعة فرصاً واسعة لتنمو وتترعرع وفقا لأحوالها وظروفها. إن مناخ الهند على وجه العموم يساعد على التراخى والاستسلام، سيما إذا قورنت حياة السكان الهينة اللينة بنقيضتها الصارمة بين سكان المناطق الجبلية فى أواسط آسيا، وهى مناطق أكثر القبائل التى غزت الهنـــد. وهكذا زالت السرعة من التغير وهدأت، فقد سارت عمليات التاريخ سيرا وئيدا. وفى حين أن جغرافية البلاد تفسر لنا الميزات الخاصة

الهند فى تنمية الأساليب العلمية وتطبيقها لم يؤد إلى هبوط مستوى التفوق بين الأفراد، كما أنه لم يجحف بما يتوفر بالفطرة من ذكاء ومهارة عند أصحاب الحرف ومهرة الصناع، من القرويين.

وعندنا أنه لا يمكن تعليل هذه الظاهرة الرائعة إلا على أضواء وحدة الثقافة الهندية واستمرارها. وكما سبق لنا أن لاحظنا، فإن هذه الوحدة من بعض النواحى تعتبر القاسم المشترك الأعظم بين جميع الثقافات. على أن أهم ما يميز الثقافة الهندية هو استمرارها دون توقف أو انقطاع. والهند لم تعرف الطفرات والهزات الفجائية العنيفة فى ثقافتها، بل على العكس فإن الثقافة الهندية نمت وانتشرت تدريجيا، ثم ما لبثت أن نفذت إلى جميع طبقات وأجزاء المجتمع الهندى. ولا شك أن ما لازم تاريخها من طول الأمد هو من أهم العوامل التى ساعدت على هذا التدرج والنمو، على أن طول أمد تاريخها ما كان ليتحقق لها كل ذلك، لو لا تسامحها الذى يعود إليه الفضل فى تأمين وحدة تقاليدها واستمرارها.

السكان الواسعة عبر القارة الأوربية الآسيوية. وإلى جانب كونها صعبة المنال والوصول من الخارج فان الهند تنعم بمساحات واسعة من الأراضى الصالحة للسكنى والتثقيف. وبفضل هذين العاملين غدت الهند أكثر مناعة من غيرها من البلدان من أصحاب الحضارات القديمة ضد أى عدوان أو تدخل خارجى. ومع أن الهند تعرضت إلى غزوات متعددة. لكن هذه مما لا تذكر إذا ما قيست بالتقلبات التى تعرضت لها بلدان أخرى كايران وبلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر، ونعمت الهند بالسكينة والطمأنينة ونمت حضارتها غير عابئة بأى تدخل أجنبي.

وقد نبيح لأنفسنا أن نذهب إلى حد القول بأن طبيعة الهند الجغرافية هى التى أملت وفرضت عليها وحدتها التاريخية. فان ميزاتها الطبيعية جعلتها متباينة كل التباين عن بقية البلاد الآسيوية بحيث أن جميع المحاولات التى بذلت لتقسيمها أو للتوسع إلى ما وراء حدودها باءت بالفشل. إن القبائل الآرية التى وفدت على الهند من الخارج سرعان ما فقدت صلاتها وعلاقاتها بالآريين المقيمين ما وراء حدودها. ويلاحظ أن الآريين فشلوا فى محاولتهم للابقاء على أفغانستان ضمن الحدود

لتاريخ الهند، فان عوامل التاريخ والجغرافيا المشتركة تتجلى فى عالم الروح. ولذا كان التسامح والتساهل مع الآخرين من ميزات الهند الخاصة. وقد نسلم بقيام اصطدامات واشتباكات فى ميادين المادة. أما فى عالم الروحانية حيث الانتعاش الثقافى فكل الأدلة تشير إلى وجود التنسيق والمزج بينها.

إن جغرافية البلاد مسؤولة إلى حد كبير عن خلق الذاتية الهندية. ذلك أنه قلما عثرنا على بلد آخر خلقته الطبيعة على نحو يؤهله بأن تكون وحدة فى ذاته. فالهند معزولة عن بقية القارة الآسيوية بتلك السلسلة من جبال الهملايا المنيعة. أما الجبال المحاذية لها فتمتد على شكل ساعد أيمن واق حتى تبلغ البحر. والبحر الذى يحيط بالهند من بقية النواحى يجعل منها وحدة جغرافية متراصة يضارع تماسكها وانسجامها الداخلى تباينها واختلافها العظيم عن بقية البلدان. وأراضيها لا تعتبر واضحة المعالم ومنفصلة عن بقية أراضى العالم فحسب، ولكن الطبيعة حبتها بجميع الموارد التى يحتاج إليها الانسان لتأمين حياة إنشائية غنية. ولما كانت الهند تقع فى زاوية من زوايا القارة الآسيوية فانها لم تشعر بصورة ملحوظة بتأثيرات حركات تنقل

وثائق تاريخية، سعت لاخضاع البلاد بأسرها إلى حكم موحد. ولقد سار أشوكا على نفس السنة، والواقع أنه هو الوحيد فى العهد الذى سبق قيام الاتحاد الهندى الحديث الذى وفق إلى إخضاع مزيد من الأقاليم الهنـــدية تحت لواء حكومة واحدة. ونهج الملوك المتعاقبون على نفس النهج، وتكررت العملية خلال حكم الأباطرة الباتان والمغول. وقد هدف نظام الحكم الهندى منذ فترة ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث إلى هدفين، الأول جعل الهند متباينة مختلفة عن بقية العالم الخارجى، والثانى إقامة حكومة موحدة فى الداخل. وحقيقة الأمر أن مجرى تاريخ البلاد الهندية المدون يشهد على قيام حركة التوحيد هذه التى أملتها على الهند طبيعتها الجغرافية.

وكذلك كان لوحدة البلاد الجغرافية أثرها على الحياة الاقتصادية، وبمعنى آخر فقد أدت وحدتها الجغرافية إلى قيام نظام اقتصادى موحد. وكان لحجم البلاد وخصب تربتها فضل كبير فى تحقيق هذه الوحدة، ذلك أن حجم البلاد وجودة أراضيها ساعدت على تزايد السكان وتوسيع الأعمال الزراعية بصورة تدريجية، ولو أن الهند كانت أصغر حجما لعمد القادمون

الهندية. ورغما عما من بقى أسماء كـ « قندهار »، فان أفغانستان سرعان ما انسلخت من دائرة الحياة الهندية. وكذلك فان محاولات اليونانيين لضم إقليم البنجاب إلى أفغانستان، فشلت على نفس الطريقة التى فشلت فيها محاولات المورين للاحتفاظ بقندهار. وعلى نفس النحو فان المساعى التى بذلها محمود الغزنى لادارة الهند وحكمها من كابل آلت إلى نفس المصير، كما أن الأباطرة الباتانيين فقدوا سيطرتهم على الأراضى الواقعة ما وراء حدود الهند. وتكررت الرواية فى العهد المغولى. ولطالما ضمت مقاطعة السند إلى فارس، إلا أن عملية الضم هذه لم يكتب لها أن تخلد.

إن هذه الميزات التى تجعل من الهند بلدا مختلفاً اختلافاً كليا عن بقية العالم الخارجى، يقابلها حركة داخلية ملحة لتحقيق وحدتها. ويلاحظ أن الهند منذ أقدم العصور شاهدت قيام ممالك وإمارات عملت وسعت إلى حكم موحد مشترك على جميع أنحاء البلاد. ويلاحظ أن الأساطير الهندية التى وردت فى المهابهاراتا والرامايانا روت لنا قصة هذه الوحدة. ولعل « تشاندرا جوبتا »[1] هو أول شخصية فى تاريخ البلاد، توفر عنها

1 Chandragupta

عادة على المجموعة القروية، كما أن التعاون الاجتماعى مقصور على أعضاء الجماعة القروية. ومثل هذه الظروف لا تعترض سبيل نمو الشعور الفردى فحسب بل تحول دون قيام وعى اجتماعى يتعدى العصبية العائلية أو العشائرية، ويلاحظ أن العصبية العائلية أو القبائلية فى الهند كانت متوفرة، ولكن قلما عكست الولاء القومى أو الوطنى. وواقع الحال أن تركز الحياة الاقتصادية فى المجموعة القروية واقتصارها عليها قد حال دون نمو الوعى القومى.

ومن ناحية أخرى، كان لاتجاه الاقتصاد الهندى اتجاهاً كليا نحو الزراعة وقيامه عليها أثر على الطابع القومى. ذلك أن الفلاحين، وخصوصاً قبل أن يتمكنوا من التغلب جزئيا على قوى الطبيعة، كانوا يعتمدون فى ثروتهم على عوامل لا يد لهم فى تكييفها أن يدرؤا عن أنفسهم أخطار القحط أو الأمطار الغزيرة رغما عن أن هذه الظواهر كانت من العوامل الفاصلة فى حياتهم الاقتصادية. ومما يدعو إلى الدهشة أن طبقة الفلاحين فى العالم أجمع تقف موقف المستكين المستسلم الصابر لحكم القضاء، على عكس الحال فى الميادين التجارية والصناعية التى تستدعى جهودا أعم من جانب الفرد وتنمى فيه روح الاعتماد على النفس

إليها إلى طرد الآخرين ممن استوطنوها من قبل أو إبادتهم، وتعزيز الزراعة وجعلها أكثر إنتاجا، وكذلك لو قدر لأراضيها أن تكون متباينة مختلفة النوع، لاختلف النمو والتطور فى مختلف المناطق ولم يكن من مناص فى كلتا الحالتين من إجراء تجارب مستمرة فى وسائل الانتاج وقيام أنواع جديدة من المجتمعات الاقتصادية. ومما لا شك فيه أن وسائل الانتاج وعلاقة الطبقات المختلفة لقوى الانتاج لها أثرها العميق على نوع المجتمع وطبيعته. إن احتفاظ الهند خلال الأربعة أو الخمسة آلاف عام بنظام اقتصادى وزراعى يفسر لنا ما تمتاز به ثقافتها وتقاليدها من عمق وصلابة. وقد ساعد عامل طول الزمن على خلق عقلية مشتركة، وقد تعزز هذا الاتجاه بفضل وحدة المنظمات الاقتصادية فى طول البلاد وعرضها.

والمألوف أن الأشخاص الذين يزاولون نفس المهنة يتمتعون عادة بنفس العقلية، وبما أن المجتمع الهندى كان زراعيا فى أسسه فقد أدى ذلك إلى خلق ميزات مشتركة ووجهة نظر واحدة إلى الحياة. وغير خاف أن المجتمعات الزراعية فى العالم أجمع منساقة بطبيعتها إلى النظم العشائرية المحدودة. وعور الحياة فيها يقوم

وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. فقد أفادت الهند من التقلبات السياسية التى شاهدتها، وكان لها فيها بعض العزاء. فالمعروف أن التسامح قد أدى إلى تربية عناصر متنوعة فى آن واحد. وكما سبق لنا أن بينا، أن طابع التعدد والتنوع هو من أهم المميزات للثقافة الهندية. وكذلك فان التقلبات السياسية قد ساعدت بدورها على تعدد نواحى الحياة وتباينها. فالأمواج المختلفة من الأجناس والقبائل التى تدفقت على الهند منذ القدم أدت بدورها إلى تغييرات مستمرة فى تكوين السلطة السياسية وتوزيعها، ومن النتائج العاجلة لهذه الموجات البشرية المتنوعة التى تسللت إلى الهند، انقسام البلاد إلى عدة دويلات. ونظرا لقيام هذه الامارات وتأرجح السلطة باستمرار وتنقلها بينها، فقد أصبح الشعب أكثر تسامحا وأقل بغياً. وفى هذا ما يفسر لنا تسامح الشعب وتساهله فى قبول الأجانب والدخلاء.

ورغما عما شهدته الهند من غزوات وما تعاقب عليها من أسر مالكة، فان حياة الشعب سارت فى اتجاه دائم من التقلبات التدريجية. فالآريون مثلا لم يقوموا بالقضاء على الحضارة التى ازدهرت فى موهنجو دارو بل اقتبسوا منها وبنوا حضاراتهم

والاعتداد بها والمغامرة. ومن عادة المجتمع الاقتصادى القائم على أسس تجارية وصناعيــة أن ينمى فى نفوس أفراده وبصورة تدريجية مدى أوسع من المرونة والحيوية وقوة التصرف فى الفرد.

إن التقلبات السياسية فى الهنــد قد تكيفت إلى حد بعيد بانعدام التوازن بين جغرافية البلاد واستعداداتها العلمية وعدم صلاحية هذه الاستعدادات لمجابهة المقتضيات الجغرافية. ففى حين أن جغرافية البلاد كانت تستدعى توحيد البلاد تحت لواء دولة واحدة، إلا أن المراحل التى قطعتها حتى ذلك الوقت فى التغلب على القوى الطبيعية جعلت تحقيق هذا الهدف والاحتفاظ به من الأمور المستعصية. وعلى ذلك فانه وإن تسنى للهند حتى ذلك التاريخ أن تحقق وحدة ثقافية إلا أنها لم توفق إلى إقامة وحدة إدارية، على أن الأحوال قد تبدلت فيما بعد، ذلك أن التقدم العلمى وما أسفر عنه من تقريب المسافات والزمن قــد هيأ الظروف للوحدة السياسية. إن قيام دولة موحدة فى الهند تعززها ثقافة الوحدة وتدعمها موارد طبيعية جبارة لقمينة أن تحمل الهنــد على تزعم العالم فى كثير من نواحى وميادين النشاط البشرى.

والمعتقدات التى تعكس وتصور تقريباً كل مرحلة من مراحل التطور الروحى. وهى تتراوح بين عبادة الطلسمات التى كانت سائدة بين مجموعة الشعب، ومذهب التوحيد الخالص الخشن الذى كان مذهب أصحاب فيدا. وإدخال معتقدات قبائلية مختلفة فى جميع مراحل التطور على الأفكار الدينية الهندوكية هو العامل الوحيد الذى يفسر تعدد الديانات الهندية على هذا الشكل الغريب.

ومع أن طبيعة البلاد الجغرافية اقتضت عملية توحيد سياسية، بيد أن المرحلة المحدودة التى قطعتها البلاد حينذاك فى الميادين العلمية لم تساعد على تحقيق هذا الهدف. ولهذا نجدنا وجها لوجه أمام المحاولات المستمرة التى قامت فى البلاد لاقامة إمبراطورية موحدة. ولعل الظروف المادية تفسر لنا الأسباب التى لم تساعد هذه الامبراطوريات من أن تعمر طويلا. إن الامبراطوريات القديمة ومحاولات التوسع والاستعمار بقيت اليوم عالقة فى الأذهان بصفة خفية، وإن غدت ذكرياتها ضعيفة باهتة. ومع أنه لا تتوفر لدينا بصددها وثائق تاريخية إلا أن ما رددته الأساطير بصددها قد بقى راسيا فى ذاكرة الشعب،

عليها. إن عامل الاستمرار يتجلى على درجة حملت بعض المؤرخين على أن يشك بأن حضارة موهنجودارو تمثل ثقافة مستقلة قامت قبل قدوم الآريين. ويرى هذا الفريق أن الهند هى موطن الآريين وأن ثقافة موهنجودارو تعتبر مرحلة متقدمة فى مراحل الثقافة الآرية. ومع أننا لا نهدف إلى التورط فى التشابه السلالى إلا أن الذى لا يمكن إنكاره هو أن آثار موهنجودارو كان قد عثر عليها، واكتشفت فى مراحل مختلفة من الحياة والثقافة الهندية. وقد وردت بعض الطقوس الهندوكية الحديثة الخاصة بسيفا[1] وساكتى[2]، إلى التقاليد التى كانت سائدة فى عهد موهنجودارو. كما عثر هناك على نحوت على الأحجار للتماثيل الأصلية لبوذا وهو جالس.

وقد أدت المشاحنات السياسية إلى انسجام بين القبائل المختلفة والثقافات فى مراحلها المتباينة، ويستدل من هذا أن قدماء الهنود قد اضطروا إلى التسليم بالنظرية القائلة أن معلومات الانسان وإدراكه للحقيقة ليست جامدة، بل دائمة الحركة والتطور. والهند كما هو معروف، لتضم مجموعة مدهشة من الديانات

1 Siva 2 Sakti

٣ ــ التفاعل الاجتماعي والسياسي

لقد سبق وأن وقفنا على حقيقة الاخفاق الذي لازم رغبة الهند القديمة وسعيها للاتحاد توصلا إلى إقامة وحدة سياسية تقوم على أسس ثابتة دائمة. كما لمسنا أن الرغبة في الاتحاد برزت في صورة التوحيد في الحضارة والثقافة. وتتجلى لنا الوحدة الثقافية التي عرفتها الهند فيما يتجلى في المؤسسات السياسية التي قامت فيها ذلك الحين، واستمرت حتى يومنا هذا. وثمة حقيقة تسترعي الانتباه، هي أنه رغما عن تعاقب الملوك والممالك المختلفة، فان الحياة الاجتماعية المنظمة قلما طرأ عليها تحول أو تبدل يذكر خلال الألفين أو الثلاثة آلاف عام الأخيرة. والواقع أن الجمهوريات أو المجالس القروية التي عرفتها الهند منذ القديم ما زالت قائمة حتى يومنا هذا.

أما المجتمعات التي وردت بحقها إشارة في النصوص «الفيدية»[1]

1 Veda

وحتى يومنا هـذا ما زالت حافزا للتدعيم والتوطيد. وقـد بلغ شعور الوحدة والتوحيد حدا لم يتسن للأجانب فيما عدا نفر ضئيل منهم الصمود أمام تياراته. ولا يذكر أحد أن الراجبوت كانوا فى الواقع دخلاء، ظهروا على مسرح الهنـد فى وقت متأخر وما لبث أن أصبحت هذه الحقيقة فى ظن النسيان. والراجبوت لم يمتصهم المجتمع الهندوكى فحسب ولكنهم كثيرا ما يعتبرون حماة الثقافة الهندية وحاملو لوائها. وسنأتى على شرح مفصل حول دخول الاسلام القـارة الهندية فى مرحلة متأخرة من هذا الكتاب. على أن المسلمين ما لبثوا أن امتصتهم التربة الهندية. والأوربيون هم الذين انفردوا من بين الأجانب فى مقاومة عملية الهضم الهندية، واحتفظوا بذاتيتهم سليمة منيعة. ولهـذا لم تقبله البلاد ولا الشعب. ورغما عن قيام نواح مختلفة من الاتصالات، فقد بقى الأوربيون بالنسبة إلى الهند كالطيور العابرة.

الامبراطورية التى شادها أشوكا كانت اتحاداً متفككا أكثر منها إمبراطورية بالمعنى المفهوم. ولعل هذا يفسر لنا مدى اتساعها. على أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الامبراطورية فى عهد «بندوسارا»[1] لم تتعد حدود ما يعرف اليوم بولاية «حيدرآباد» وكانت «كالينجا»[2] أى «أوريسا»[3] من بين البلدان التى تغلب عليها أشوكا بالقوة. ومهما كان الأمر فان إمبراطورية أشوكا امتدت وتوسعت بحيث شملت الهند بأسرها على وجه التقريب. أما أسباب توسع هذه الامبراطورية فقد تعود إلى اندماج الجمهوريات الصغيرة الواقعة جنوبى حيدرآباد إلى هذا الاتحاد الامبراطورى المتفكك بمحض إرادتها واختيارها.

وتؤلف هذه المجالس والجمهوريات القروية الوحدة الطبيعية للنظام الاقتصادى القائم على أسس زراعية. ولعل فى استمرار الهند كبلد زراعى فى الصميم، حتى يومنا هذا، ما يفسر لنا النجاح الذى صادفته فى المحافظة على تقاليد الحكم الذاتى فى الريف وصانته رغما عن تعاقب الأسر المالكة المختلفة. إن فى وسع المجتمعات المؤسسة على الزراعة قضاء حياة الاستقلال التام،

1 Bindusara 2 Kalinga 3 Orissa

و«الأوبانيشاد»[1]، فقد امتازت بطابعها الديموقراطى. فلقد درج الشعب على التعبير عن إرادته بواسطة الجمعيات المنتخبة والمنظمات الديموقراطية، كما وردت إشارات عن ملوك ارتقوا عروشهم عن طريق الانتخابات وعن سلطات كانت تمارس بين حق عزل الملوك أو إعادة الملوك المعزولين. على أن الجمعيات المنتخبة ما لبثت أن فقدت أكثر نفوذها بعد قيام الامبراطوريات، وتوطد أركانها. وفى استمرار المجالس القروية وما كانت تمارسه من سلطات واسعة ولو ملتبسة ما يثبت أن التقاليد الديموقراطية فى الهند لم تمح بأجمعها.

وكان النظام المتبع عند قدماء الهنود أن تتمتع كل قرية بمجلس قروى منتخب، ودرجت هذه المجالس على منح أفراد الشعب حرية التعبير والمناقشة الظاهرة، وكانت لا تبت فى الشئون السياسية فحسب، بل وفى الشئون الاجتماعية والدينية. والمعروف عن الأديرة البوذية أنها كانت تقوم على أسس ديموقراطية أيضاً، وهناك من القرائن ما يثبت أن القيام الامبراطورية المورية لم يؤد إلى تقويض دعائم هذه الجمهوريات. ومن الممكن أن

1 Upanishad

ورغما عن كل هذا بقيت الزراعة الصناعة الرئيسية فى البلاد، كما أن تقاليد الحكم الذاتى فى القرى بقيت قائمة حتى يومنا هذا. ذلك لأن المجالس القروية الحالية لا تمارس صلاحيات تنفيذية وقضائية فحسب بل تشريعية أيضاً. وهى تمارس هذه الصلاحيات باذن الحكومة أو بدونه. والواقع أن هذه المجالس لها نفوذ على الحياة الاجتماعيـة والدينية للجموعة القروية الذى لا يمكن للحكومة أن تنفذه من جهة نفسها. ولا ينطبق هذا على المناطق الجنوبية من الهند حيث الهادكة يشكلون الأغلبـية فحسب، بل ينطبق أيضا على المناطق الشماليـة والأخرى منها حيث الأغلبية هى من المسلمين.

وكان لاستمرار المجموعة القروية سياسيا واقتصاديا أثر على العادات الاجتماعية أيضاً، وإن كان هذا الأثر غير مرغوب فيه من هذه الناحية. والذى يلاحظ أن عدم مرونة الأسـاليب الاقتصادية وجمودهـا حالت دون نمو الثروة، كما بعثت روح الجمود فى الطبائع التى من شأنها أن تعترض الاصلاح والتجديد. وليس بالمستغرب أن المجموعة القروية فى العالم أجمع تنطبع بحب القدامة وضيق التفكير. أما التجارة فليس من طبيعتها أن تشجع

ولعلها تمثل — دون غيرها — نماذج المعيشة المستغنية بالفعل الواقع. وعلى ذلك فقد كانت المجتمعات القروية فى الهند تنعم باستقلال وتمكنت إلى حد بعيد من الاحتفاظ بكيانها المستقل حتى يومنا هذا. ويعتبر الحكم الذاتى القروى فى الهند من عوامل الاستمرار والاستقرار فى حياة البلاد الاجتماعية.

ورغما عن أن الاقتصاد الهندى بقى زراعيا فى الصميم، إلا أنه لم يستمر على هذا النحو لمدة طويلة، فسرعان ما أخذت التجارة تنمو وتزدهر، الأمر الذى أدى إلى توزيع العمل وتقسيمه. وقد تقلص هذا التقسيم وتمخض بالتالى عن قيام نظام الطبقات. وقد أدى نمو التجارة وازدهارها إلى توسيع نطاق وحدة الحياة الاقتصادية، وفى ادماج الجمهوريات القروية بالممالك والامبراطوريات ما يعتبر تعبيرا سياسيا لهذا التحول. ولما اتسع نطاق الوحدة السياسية غدت مهام الحكم وواجباته أشد تعقيداً، الأمر الذى أدى إلى مزيد من المركزية حرصاً على الانسجام وسعيا وراء إقامة جهاز إدارى أصلح وأنسب، وكذلك ازداد الميل للتمييز بين الحكومة المحلية والمركزية، وفقدت الهيئات القروية كثيرا من سلطانها وفرائضها الادارية.

على مجموعة الشعب فتتجلى فى منع تطور الانسانية المشتركة. ورغما عن هـذه الانتقادات وانتقادات أخرى وجيهة لهذا النظام، لا مناص هنـالك من أن نسلم بأنه مستمد من روح التسامح والاستعداد للتعايش مع الآخرين.

قـد يتراآى للقارئ لأول وهلة أن هنـاك تناقضا ما بين التسامح ونظام الطبقات، ولـكن هذا التناقض سرعان ما يتلاشى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الهنـد كانت مسرحاً للفاتحين والغزاة الذين تعاقبوا عليهـا. فنى مثل هـذه الأحوال من اختلاف الدم وتعدد الألوان واللغات والعادات والمعتقدات، فان مهمة تحقيق كيان اجتماعى سياسى موحد تبدو كأنها مستحيلة، وقـد واجه المستعمرون الأوربيون خلال القرنين الثامن والتاسع عشر نفس المشاكل فى أمريكا وأستراليا وأفريقيـا، فكانت الفوارق بين الأوربيين والسكان الأصليين كبيرة جدا، على أنها لم تكن أوسع من الفوارق التى واجههـا الآريون عنـد غزوهم للهند، بل الواقع أن معالجة هـذه الفوارق كانت أشد وأكثر تعقيداً فى الهند. إن الأوربيين اصطدموا فى البلاد التى استعمروها بقبائل محلية متجانسة إلى درجة لا بأس بها، كما أن هذه القبائل

على التداور التجارى السريع فحسب، بل ومن شأنها أيضاً أن تساعد على انتشار الأفكار وترويجها، وبالتالى على خلق اتجاه واستعداد لتقبل التغييرات والاقبال على كل حديث جديد والذى حصل فى الهند أن اقتصادياتها الزراعية وهيئاتها القروية قد تعاونتا معاً فى فرض روح حب القدامة والجمود على القرويين، كما انهما ساعدتا على تصدع الوحدة القومية وحدت من إمكانيات القيام بأى عمل سياسى متحد. ويلمس الانسان هذا التناقض الغريب فى الهند، فرغما عن وعى الشعب وإدراكه لضرورة تحقيق الوحدة الثقافية ولكنه يعانى نقصا فى ميوله الحزبية للقيام بعمل سياسى قوى موحد.

ولعل أجدر وسيلة للوقوف على مواطن الضعف والقوة فى الثقافة الهندية من نواحيها الاجتماعية يتأتى عن طريق الالمام بنظام الطبقات السائد فيها ودراسته. إن الانتقادات التى توجه عادة ضد هذا النظام لجلية واضحة. فن ناحية حطم هذا النظام وحدة الحياة الهندية، كما حال بين الديموقراطية ونموها. وأنه يبعث فى الطبقات العليا روح الكبرياء والغطرسة، كما يشيع روح الاستكانة والشعور بالنقص بين الطبقات السفلى. أما تأثيراته

أن يقول دفاعاً عنه ولو جزئياً أنه سعى إلى تنسيق ودمج عناصر وأجناس مختلفة في وحدة اجتماعية كاملة، وأفسح مجالا لحضارات في مختلف المراحل والأدوار أن تعيش في ظل وحدة ثقافية واحدة.

إن نظام الطبقات من حيث منشأه وأهدافه، ولو تغير من حيث سيره العملي، لا يخرج عن كونه أداة تمكين مجموعات من العناصر والأجناس المتعددة ومساعدتها أن تتعايش معاً في جو من الانسجام والتجانس. أما سر نجاح هذا النظام فيعود إلى ما يلازمه من المرونة التي مكنت الأفراد من تكييف أنفسهم معه. والطريف في الأمر أن نظام الطبقات في الأصل كان يقوم على أساس المهنة والعمل لا على أساس الوراثة. وكان في وسع الأفراد والأسر أن تنتقل من طبقة إلى أخرى. ومما يقيم البرهان على مرونة هذا النظام أن سمح باقامة وتنصيب آلهة «الدرافيديين»[1] في هياكل آلهة الآريين، كما أقر انتساب قساوسة الدرافيديين إلى طبقة البراهمة. وكان لامكان تحول الأفراد من طبقة إلى طبقة أن بعثت روح التضامن وخففت

1 Dravidians

كانت تمثل مراحل متجانسة من النمو والتطور. أما فى الهند فلم تكن العناصر أو القبائل التى وجدت متعددة فحسب، بل كانت تمثل أوسع مجموعة ممكنة من ثقافات وحضارات مختلفة، وبمعنى آخر، فنى حين أن المشكلة التى جابهها المستعمرون الأوربيون كانت هى مشكلة التوحيد بين عنصرين مختلفين، فان المشكلة التى جابهها الآريون كانت الجمع بين أجناس وعناصر متعددة متباينة والعمل فى التالى على صهرها فى وحدة عملية.

وقد عالج الأوربيون مشكلة تنوع السكان فى البلاد التى استعمروها وتغلبوا عليها، إما بإبادة سكان البلاد الأصليين كما وقع فى أمريكا وأستراليا، وإما بتحويلهم إلى عبيد أرقاء كما وقع فى أفريقيا. أما الآريون فقد حلوا هذه المشكلة بواسطة نظام الطبقات. وقد لا يقوى هذا النظام على الصمود إذا ما قيس بمعايير العدالة المجردة لما يقتضيه من نبذ الملايين من الأنفس البشرية والحكم عليها بأن تحيي حياة منحطة، لا لسبب آخر إلا لمولدها أو نسبها، على أننا إذا حكمنا على هذه النظام على ضوء الاعتبارات التاريخية، وقفنا على بعض محاسنه، ومنها أنه مكن الطبقات الضعيفة من البقاء للعيش. وعلى ذلك نبيح لأنفسنا

دراويدية أو آرية. وعلى نحو التدامج الذي تم بين الطبقات، فإن التدامج اللغوي قد حافظ على كثير من اللغات، ومكن كل منها أن تتمتع بحرية النمو والتطور في نطاق وجهة نظر مشتركة. والسنسكريتية كما يؤخذ من مدلولاتها الاسمية لغة اشتقت من لغات سابقة. ولكن الذي لا مراء فيه أنها أثرت تأثيراً محسوساً على جميع اللغات الهندية بما زودتها به من مفردات وتركيبات

ولقد بلغ تأثير السنسكريتية على اللغات الهندية الأخرى مدى حمل المؤرخين في بعض الأحيان على الاعتقاد بأن لغات الهند المتعددة هي عبارة عن تعبيرات مختلفة للأصل السنسكريتي العام. ويلاحظ أن اللغة التاملية نفسها التي ازدهرت آدابها قبل ظهور الآريين على مسرح الهند لم تخل من تأثيرات سنسكريتية. كما أن التأثيرات السنسكريتية لم تضعف أو تضمحل على مرور الزمان. ومع أن اللغات التي ظهرت وقامت بفضل قدوم المغيرين والفاتحين أخذت تتحدى زعامة السنسكريتية إلا أن الأخيرة صمدت بل أنها غدت أشد رسوخا وأعمق غوراً. وعلى هذا فإنا نجد أن جميع اللغات الهندية لها قاعدة مشتركة واسعة، من المفردات، كما أنها تتشابه كثيرا في التراكيب النحوية. ولعل

حدة العداء القائمة ما بين الآريين والدرافيديين . كما ساعدت على إزالة الخلافات الاقتصادية التى تعتبر مصدراً لجميع الشرور التى تعانيها أوربا الحديثة . ولعل الطابع الزراعى لاقتصاديات الهند هو من بين الأسباب التى حالت دون قيام مثل هذه الخلافات الطبقية فى الهند القديمة . أما السبب الآخر لهذه الظاهرة هو إخفاق الهنود فى التغلب على قوى الطبيعة . ولكن السبب الأساسى لكل هذا يعود إلى مرونة نظام الطبقات . ولما كان من المألوف أن يصبر الناس على ما يحل بهم من بلاء أو مكروه أملا فى سعادة مقبلة ، فان نظام الطبقات كان بمثابة هذا الأمل فى الدنيا والآخرة ، على أن نظام الطبقات عندما فقد مرونته فقد معها ما يبرر قيامه ووجوده .

وتعكس لنا لغات الهند المتعددة وحدة ثقافتها واستمرارها . وهناك ميل للمغالاة فى تصوير خلافات الهند اللغوية . أما هذه المبالغة فتستمد وحيها من اعتبارات سياسية معروفة . ولكن مهما كان الأمر فليس من الممكن تجاهل وحدة الطبع والمزاج والتطلع إلى الحياة القائمة بين ناطقى مختلف اللغات . وليس فى وسع أحد ان ينكر أنها مستمدة من مصادر مختلفة ــ عشائرية أو

٤ — الراوى القصاص

يعتبر الفتح الآرى للمناطق الشمالية الشرقية والجنوبية من الهند فتحا ثقافيا لا فتحا ماديا. وسرعان ما تمت عملية الاندماج بين الأجناس والعناصر حتى لم يتذكر الدرافيديون أنهم كانوا أصحاب حضارة أقدم من حضارة الفاتحين الجدد. وكذلك الكراهية التى كان يكنها الآريون للثقافة الدرافيدية وامتهانهم لها ما لبث أن تحول إلى شعور بالتسليم بها وهضمها. وقد وجد الفريقان المتخاصمان فى الثقافة الجديدة المشتركة نقطة للتلاقى كما رأوا فيها رمزاً للوحدة. ولا شك أننا نجد فى ملحمتى الرامايانا والمهابهارتا إشارات إلى قيام صراع قديم بين الدرافيديين والآريين، ولكن قيام صراع مثل هذا لم يمنع الجانسين من الاعتراف والتسليم بأن لكل من الحضارتين من المحاسن ما يعود بالنفع والفائدة على الفريق الآخر إذا هو أقدم عليها وتقبلها. ولعل ملحمة المهابهارتا كانت أكثر عونا من الرامايانا فى تحقيق عمليات التداخل التى استمرت فى أساطير البوذيين الشعبية وغيرها من

الأمم من هذا كله ما يجمع بينها من وحدة الطبع والمزاج التى تتجلى فى جميعها. الأشعار التاملية القديمة مليئة بحقد الدرافيدين للغيرين الآريين، وكذلك يظهر الخوف والحقد فى كتب الآريين ضد الدرافيديين وضد الذين سبقوا الآريين. على أن نظرية الحقد والخصومة لم تبق طويلا. فقد حل محله روح التسامح التى جمعت بين الأجناس والعناصر المختلفة وصهرتها فى نظام اجتماعى، وهى الروح التى طغت على آداب الهند وخفضت من غلواء الحقد والعداء بين قبائلها وأجناسها المختلفة.

أن يتحدث عن القدر والظروف بإخلاص ونفاذ بصيرة يثير دهشة الأجنبي الذي لم يألف مثل هذه الأمور . وصلاحة ذهنه المتصف بصفات الاستسلام والتسامح هذه لهي أكثر دهشة وامتيازاً ، نظراً لفقدان التعليم في الهند حتى يومنا هذا . فنتساءل من أين وكيف أوتي الملاح الهندي هذا العقل المثقف وهو محروم من ثقافة القراءة والكتابة ؟

و يحل هذا التناقض الظاهر إذا استعدنا إلى الأذهان الدور الذي لعبه القصاص القروي والمعلم المتوسل المتجول الذي طاف المناطق الريفية حينئذ . وكانت مهمة أمثالهم أن ينقلوا التعاليم الدينية والأخلاقية بحيث يتناوله القروي المعدل في الفهم عن طريق القصص والروايات البسيطة . والواقع أن هذه القصص قد عوضت الشعب عن كثير مما فاتهم من التعليم . فقد حولت الفلسفة في قالب أسطورة ، وعبرت المعتقدات الدينية في أعمال رجل . أما التعاليم الأخلاقية فتدفقت إلى القرويين بسهولة بواسطة القصص المقولة ، وأما العفة والطهارة فبضرب الأمثال التي اتسعت وازدادت بفضل ما أدخل عليها عن حكمة الأجيال المتعاقبة . وتثقفت الحياة في القرية بفضل ما تلقنه القرويون من هذه

حركات الاصلاح .

والواقع أن الشعراء المتجولين ممن ينتمون إلى مذاهب وعقائد مختلفة كانوا مصدراً هاماً فى بعث نظرة موحدة إلى الحياة ، ووحدة فى الطباع ما زالت حتى الآن من العوامل المميزة للعقلية الريفية فى سائر أنحاء البلاد ، رغما عما يقوم بين القرويين من اختلافات محلية . ولطالما كانت نظرة القرويين الهنود الفلسفية للحياة ومقدرتهم على التحمل والصبر موضع دهشة الناس . وقد يتعذر أحيانا تمييزها عن صفات الاستكانة والخضوع التى تميزهم . والمعروف أن النقص فى الحيوية يدفع أصحابه إلى الاتكالية والتسليم بالقضاء والقدر ، على أن هناك حداً لمقدرة الانسان على خدع نفسه وتعزيتها بالقيم الفلسفية . وغير خاف أن مقتضيات العيش فى الهند بلغت من الضآلة والقلة حدا بحيث من السهل استباعها وإرضاءها ، على أن الفلاح الهندى حتى خلال الأيام التى لم يشكو فيها قلة أو ندرة فى الطعام ، كان دائما قانعا بالتأمل والتفكر فى أسرار الحياة . وقد يكون للمناخ دخل فى ذلك حتى ولو تغاضينا عن هذه العوامل ، فالذى لا مراء فيه هو أن القروى الهندى تتوفر عنده نظرة فلسفية إلى الحياة . وفى بمقدوره

الكساد فى السوق والانحطاط فى الأسعار، إلى مشاهدة هذا الكمال المدهش من الرفاهية والسخافة على الشاشة البيضاء. إن السينما الحديثة تهيج وتهدئ حتى العواطف الدينية ولكن اختلفت الظروف فى تلك الأيام. فقبل عهد المسرح المؤقت الخشن، كان راوى القصص هو الوحيد الذى يبث العزاء والسلوى إلى قلوب القرويين. فكان فمه يحمل إليهم تمثيل الوقائع التاريخية التى لم يروها. وكانت عباراته وألفاظه الخلابة ترسم لهم صورا مختلفة من البطولة والتضحية، وتعيد إلى ذاكرتهم ألوانا من الصراع الذى ينتهى عادة بانتصار الفضيلة على الرذيلة، والحق على الباطل.

ورغما عن كل ما أسلفناه عن راوى القصص نشعر أننا لم نبرز الدور الهام الذى كان يلعبه. ومن الخطأ أن نتصوره كرجل عادى، فانه كان بمثابة موسسة، وبعدمه فقدت للحياة القروى طراوتها ومعناها. أما من حيث النشاط فقد كان راوى القصص مجموعة أشياء فى شخص واحد، كما كان المحور الذى ترتكز عليه الحياة الاجتماعية فى القرية والمصدر الذى يجعلها تدب بالحياة. وكان القرويون يلتفون حوله لسماع ما يقصه عليهم من روايات. ولما اجتمعوا دارت أحاديثهم طبعا حول المشاكل التى تهمهم.

الحكم والمواعظ.

وفن الرواية هذا قد أصبح الآن فى الهند معدوما متروكا. فاننا قلما نعثر فى هذه الأيام على الشعراء المتجولين الذين كانوا يروون قصص البطولة والغرام القديمة أثناء تنقلهم من مكان إلى آخر. وكذلك لم يبق أثر للقصاص القروى فبقى محله فارغا لا يمكن لأحد أن يأخذ مقامه. وكان هؤلاء الرواة والشعراء يؤدون وظيفة هامة فى التدبيرات الاجتماعية فى القرية. فكانوا فى الواقع رعاة التقاليد والمعتقدات المحلية وحماتها. واستمرت بهم تذاكر أعمال البطولة والتضحية مؤقدة فى الأذهان. وهم الذين كانوا رواة للأحداث والوقائع الهامة كما صاغوا الأنباء الجارية بقالب الأساطير الخالدة.

ولم يكن راوى القصص هذا مجرد مؤرخ وشاعر فحسب، بل وكان بنفسه الوحيد طليعة المسرح الهندى. لم يعرف فى ذلك الحين المسرح والسينما الحديثين وليس من المغالاة أن نقول أنهما لا يزالان يعتبران من أشياء الرفاهية التى لا تدخل فى أحلام الأغلبية من القرويين. وتوجد فى أكثر مدن الصغيرة فى الهند دار للسينما ولو رديئة. ويزدحم القرويون، رغما عن

الأشياء مجتمعة. ومع ذلك فانها لا تقتصر عليها. ذلك إننا ميالون إلى إغفال تلك الفضائل البسيطة التى تتجلى لنا فى الحياة العادية المنبعثة من العادات اليومية المعتادة التى لا تقل صلتها بالحياة اليومية عن صلة أعضاء الجسم بوظائفها. وقد تنبه راوى القصص إلى هذه النقطة فلم يقع فى نفس الخطأ. ولذلك جاءت رواياته وقصصه مزيجة من اختيارات الشعب الدينية وآماله. فكانت قصص البطولة التى يرويها تدور حول شخصيات أساطيرية اقتبست من المذاهب المعروفة واستنبطت قصص خدماتهم وتضحياتهم لابراز حكمة أو تأكيد عظة.

وعلى هذا، فسامرة راوى القصص كانت بمثابة دار المعاوضة الاجتماعية لتبادل الأفكار وبحث المشاكل، ولمؤاخذة المذنبين إلى المجتمع. ولم يكن للقرويين فى ذلك الحين أى عهد بالنوادى ولم يكونوا قد سمعوا بها. ولم يحسوا بعدم وجودها إذ تيسر لهم أن يجتمعوا فى أواخر النهار ويستمعوا لروايات القصاص.

وكان من النادر للقصاص أن ينحرف عن مستوى معيشة القرية إذا انحرف بتاتا، وكان لا مندوحة له فى خلواته وتأملاته أن يتذكر مستمعيه ويفكر فيهم، لأن نجاحه ورزقه كانا مرهونان بتقديرهم وتفهمهم له. وما كان يرويه عليهم من قصص البطولة والتضحية كان يبعث الفرح والسرور فى قلوب القرويين ولكن القصص لم تكن لتعدو مشاعرهم وحياتهم اليومية المعتادة. ومن عادته فى سرد قصصه أنه كان يعتمد على الغمز واللمز والتلميح البارع إلى الأحداث المحلية فيضفى بذلك على قصصه طابعا من الواقعية.

وقد نتصور أحيانا بأن الديانة فى الهند تقوم على التقشف والكفارة واستغراق الذهن فى الأناشيد التى كانت تفنى فيها الاختبارات اليومية المعتادة. وقد تكون الديانة فى الهند كل هذه

الموهنجو دارو. واستغل بعضهم عنصر عضو التناسل فى عبادته لاثبات إنتسابه إلى أصل غير آرى.

ويميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأن بعض النظريات التى قامت حول شيفا فى الفترة التى سبقت قدوم الآريين، قد فرضت على المعتقدات الفيدية وأنها حددت طبيعة الاله « شيفا » وطرق عبادته على نحو الديانة الهندوكية الحديثة. ويذهب بعضهم إلى القول بأن القصة التى وردت حول وليمة « الدكشا »[1] التى استثنى منها « شيفا » تنطوى ضمنا على الاعتراف « بشيفا » اعترافا متأخرا. وكذلك النظرية التى تصور فشنو على أنه إله ذو بشرة سوداء، فهى بدورها نظرية غير آرية، كما هو واضح. ولعل أفضل تفسير لهذه النظرية هو أنها محاولة من جانب الفاتحين الآريين لكسب عطف الشعوب المغلوبة بتنصيب آلهتهم الرئيسة فى الهياكل الهندوكية. وعلى نفس النحو، كانت « شكتى » تعتبر بوصفها إلاهة النباتات، وكانت فى البداية تعبد فى الربيع. ثم أخذت تدريجيا تحتل مكانة الشرف بين الآلهة الهندوكية.

والطريف فى الأمر أن الآريين عند قبولهم بآلهة الدرافيديين

1 Diksha

٥ ـــ الدين والفلسفة

إن الأديان الهندية تروى لنا نفس قصة الوحدة والاستمرار. وقد سبق لنا أن ألممنا بصورة عابرة إلى الحقيقة القائلة بأن التنوع المدهش فى الديانات الهندية يعود إلى اندماج عدد من الديانات المختلفة والعمل المتباينة فى الأفكار الدينية الهندوكية. ولقد درج الآريون القدامى على عبادة قوى الطبيعة وصوروها فى أساطيرهم وترانيمهم. وما إن استوطنوا البلاد واستقروا بها حتى أخذت الآلهة الفيدية تتوارى وتزول تدريجيا ليحل محلها ثالوث آلهى استثنى منه «برهما» وأقصى عنه تدريجيا لتحل محله الالاهة «شكتى» التى تمثل حيوية الأنوثة. إن المؤلفات الفيدية لا تتضمن أية إشارة إلى وجود إلاهة مؤنثة تشابه «شكتى». وكذلك كانت إشاراتها إلى «فشنو»[1] و «شيفا»[2] جد نادرة.

أما «شيفا» مع صولجانه المثلث فقد رد عهده إلى عهد

1 Vishnu 2 Shiva

من العبادات القديمة التي كان يمارسها الآريون على نحو ما جاء في المؤلفات الفيدية، إنها لم تعن كثيرا بطبيعة الطقوس أو شكلها. فقد كان الأفراد يشعرون ميولهم الدينية الكمينة باتصالهم روحيا بالقوى الطبيعية بوصفها مظهرا من مظاهر الحقيقة العليا. والمعتقد أيضا عن أن نظام الطبقات لم يعرف بين القبائل الآرية عند نزوحها إلى الهند. إلا أن هؤلاء سرعان ما شاهدوا بينهم قيام طبقة من رجال الدين. وما إن فرغ من تأليف «الرجفيدا»[1] وتدوينها حتى كانت هذه الطبقة من القساوسة قد انفصلت انفصالا كليا عن بقية القبيلة. وكنتيجة حتمية لهذا الانفصال نشأت الطقوس ومعها أشكال متقنة من العبادة وتقديم القرابين. ومع مرور الأيام تضاعفت النواحي المادية لهذه الطقوس، وتعددت وبلغت مدى أصبح معـه السكان لا يعنون بأهداف الدين وأغراضه الأصلية.

وإنما نلمس آثار تزايد الاتقان هذا في انقسام المجتمع إلى أربع طبقات تبعا لفيدا. وكنتيجة لتقسيم المجتمع على أساس مهني، والذي تحول فيما بعد — مع الأسف — إلى قيام نظام

1 Rigveda

وآلهاتهم وآلهــة غيرهم ممن سبق الآريين وآلهاتهم، قد بدلوا أشكالهم وطقوس عبادتهم. على أن هذه التغيرات لم تثر أية مقاومة، بل كانت موضع قبول من جميع طبقات الشعب. إن عملية الدمج التى تمت بين آلهة الأجناس والأمم المتنافسة لم تكن مقصورة على الهند وحدها. أما الذى ميز الهند عن غيرها من هذه الناحية فهو نطاق ومدى عملية الدمج هذه. وقد يكون مرد ذلك إلى روح التسامح التى أشعتها طبيعة جغرافية البلاد وتاريخها فى نفوس السكان. وقد أدى هذا بدوره إلى التسليم بالحقيقة القائلة بأنه، وإن كانت الحقيقة هى واحدة وموحدة عند الجميع، إلا أن طريق التعبير عنها تختلف باختلاف الشعوب ومراحل الحضارة التى قطعتها. نستنبط من كل هذا بأن الآريين فى غابر عهدهم كانوا يعتقدون بأن أى مذهب من المذاهب ينعم بنصيب من الحق والصواب، نظرا لأنه وليد تبصر وتأمل قام بها الانسان على درجات مختلفة لتلمس نفس الصواب عن الحقيقة عينها.

إن وحدة النظر إلى الأديان والمعتقدات فى الهند لمستمدة من عقلية فلسفية تعترف وتسلم بما تنطوى عليه الطقوس الخارجية والعقائد الكمينة من أهمية — شكلا وروحا. ويستفاد

إنه لما كان كل ما فى الكون زائلا، فأعمالنا ونتائجها لا بد أن تتسم بسمة الزوال. إن مثل هذا الموقف من شأنه أن يقوض دعائم الأخلاق ويحمل الناس على النظر إلى الحياة واعتبارها متاعاً زائفا. وفى هذا ما يفسر التدهور الأخلاقى الذى سرعان ما حل بالمجتمع الهندى كما يفسر لنا إلى حد ما الموقف السلبي التقشفي الذى أدى إلى التقلبات السياسية التى عرفتها الهند. وكثيرا ما تعتبر اليوم الاستكانة وعدم الاهتمام بأمور الحياة الدنيا بأنها من الأشياء التى تميز موقف الهند من عالم الحقيقة. فيجب ألا يغرب عن البال أن هذا الاتجاه جاء متأخرا، وأن حكاية الهند القديمة هى حكاية الرفاهية المادية والأبهة. وإنه من الصعب أن توفق بين روح المغامرة التى أدت إلى قيام امبراطوريات ضخمة وتشييد ممتلكات غنية ما وراء البحار وبين تلك العقلية القائمة على الرهبانية والفكرة السلبية.

وهناك دليل آخر على الاعتراف، شكلا وروحا، بالطقس الخارجى والأصل الخفى فى التطور والتاريخ الهندى الدينى. والنظرية القائلة أن الحياة تنقسم إلى أربع مراحل تعتبر هندية من جهة واحدة. فهى تسعى إلى الجمع بين المادة والروح،

الطبقات ، فقد تدهور الدين ، وأصبحت العبادة مقصورة على طبقة معينة احترفتها ، وجعلت منها موردا لرزقها . وغنى عن القول أن حاجة الانسان إلى الروحانية كحاجته إلى الطعام ، لا يمكن إشباعها عن طريق انتدابه آخرين ليتولوا عنه هذه المهمة . ذلك لأن من طبيعة الطقوس وأساليب العبادة الجوفاء أن تثير التذمر والاستياء عند ذوى الشعور المرهف . وهذا ما يفسر قيام سلسلة من حركات الاصلاح التى انتهت على تعاليم بوذا . وبما أن الاتجاه نحو الطقوس المادية جاء عنيفا ، فان رد الفعل الذى أحدثه كان بدوره عنيفا للغاية . ذلك أن البوذا كان ينادى بنبذ الطقوس وأساليب العبادة كليا وركز اهتمامه فى الحث على الأخلاق الجيدة والتهذيب الروحى .

ولما كانت البوذية مذهبا عقليا للغاية فلم يكن من المقدر لها أن تكون فى متناول ذهنية الرجل العادى . ولذلك سرعان ما ابتدع شكل من الطقوس الجديدة فى نطاق البوذية نفسها ، على أن هذه الطقوس أثبتت بأنها أكثر إعتمادا على المادة من الطقوس التى سعى بوذا وعمل على إلغائها . وقد أخطأ كثير من الناس فى فهم النظرية البوذية الخاصة بالفناء فقالوا

الحياة ومقتضياتها . فقد أكسب نظرتهم الدينية تلك الحيوية الحارة . ويقينا أن هــذه الحيوية هي التي مكنتهم من تحمل عاديات الزمن والتغير وساعدتهم على الصمود أمام تحديات الأفكار الحديثة

وعلى ذلك فإن الفلسفة هي العامل الحاسم في تقرير الثقافة الهندية على مختلف أنواعها وأشكالها وإن تباين البلاد وتغايرها من الناحية الجغرافية ، ومن ناحية القبائل واللغات ، ومن ناحية العادات والمعتقدات . ومن ناحية المظاهر السياسية والمراحل الثقافية . قد هدأ عقلية سكانها إلى الاعتراف بالاختلاف وإلى التفحص عن الوحدة في التناقض ومن مفاخر الآريين الذين غزوا الهند أنهم استطاعوا أن يجدوا وجهة نظر فلسفي لهذا الاستسلام . والنتيجة أنه رغما عن كل هذا التباين المدهش في المظاهر توجد هناك الوحدة والاستمرار ، بل أعجب من ذلك الاتفاق في الفكر الهندي ، الأمر الذي أثار دهشة المشاهدين الأجانب والمطالعين الهنود على السواء .

لم تكن الفلسفة الهندية مقصورة على الشؤون الفكرية فحسب ، بل تعدت ذلك للعمل على الفحص عن سبيل جديد للحياة .

بين الفوز بالدنيا والتفوق الروحانى . فلا مندوحة للفرد من أن يمر بهذه المراحل الأربع ، وهى مرحلة البداية أو الانشاء ، فمرحلة الحياة المنزلية ، فالتقاعد ، وأخيرا مرحلة الانطلاق والتحرر من القيود الدنيوية . ويلاحظ أن هذه النظرية تتمتع بصفة الشمول ، فهى لا تستثنى أية ناحية من نواحى الشهوات البشرية . أما الجودة التى تتوخاها فيترتب فيها أن تتحقق عن طريق الأعمال الفردية والاجتماعية . وتشاهد الجودة كذلك فى إدراك القيم التى يترتب على الانسان أن يعمل من أجلها . وعندهم أن الانسان لا يحقق ذاتيته عن طريق الروح فحسب ، بل عن طريق تقديره للقيم الحسنة ، الدنيوية والروحية على السواء

إن مراحل الحياة التى ألمعنا إليها وهى التى تعرف بالهندية بـ «كاما»[1] و «ارثا»[2] و «دهرما»[3] و «موكشا»[4] هى من نتاج الفكر الهندى وعندنا أن هذا التقسيم الرباعى لحياة الانسان إنما ينطوى على الاعتراف بالتساوى بين عناصر الشهوة والعناصر الاقتصادية والسياسية التى تتألف منها الطبيعة البشرية . والواقع أن اعتراف الهنود وتسليمهم على مدى واسع بجميع مطالب

1 Kama 2 Artha 3 Dharma 4 Moksha

ما زالت قائمة حية. وعلى هذا فإن الثقافة الهندية منذ عهودها الأولى هي وليدة صراع وتوافق، وامتصاص عناصر مختلفة المصادر في مجموعة واحدة. ومما يقيم البرهان على أن عملية التوحيد هذه حدثت كاملة تامة، أن الأسس الثقافية وهيآتها التي تمخضت عن عمليات التوفيق والتنسيق القديمة بقيت على ما هي عليه على أن هذا لا يعني أن الثقافة لم تنم ولم تلقح بلقاح جديد من الموارد والمصادر الحديثة

ورغماً عما قد يكون قد طرأ عليها من تعديل بسبب انضمامات حديثة، فإنها في تطوراتها ونموها سارت على نفس القواعد التي رسمت لها في عهد الدواوين الحماسية، بل، ولربما في عهود أقدم من ذلك. أما الثقافات المعاصرة لها، فقد اندثرت وزالت من عالم الوجود، وغدا تراثها الثقافي مادة للأساطير والتاريخ. ومع أن الأسس العلمية والدارجة للحضارة الهندية قد تعرضت إلى تعديلات وتغييرات جوهرية، ولكن الثقافة الهندية احتفظت بخطوطها. ولعل ألمع برهان على مرونة الثقافة الهندية وحيويتها يتجلى في أن وحدتها واستمرارها لم تنقطع قط.

ولذلك لب الفلسفة الهندية، عملى. ومع أن هذه الميزة لعلها حددت حدود المغامرات الفكرية إلا أنها ساعدت على تنسق الحياة الهندية فى وحدة تعترف بالتناقضات كأنها لمظاهرات شتى عن حقيقة واحدة. ولم تكن الفلسفة الهندية لتقصر اهتمامها على أمور الدنيا دون أمور الآخرة، لكنها أعطت لكل منهما حقه وساعدت فى التشجيع على خلق تفكير مركب. فقد كانت تنظر إلى العالم كحقيقة موحدة تعبر عن نفسها فى أشكال وأساليب مختلفة. ولذلك فقد اعتبر الدين حقيقة واحدة، تتجلى فى معتقدات ومذاهب مختلفة. ويعتبر الحق والحقيقة كأنهما مظهران للبدء الذى يكتشف الوحدة فى التناقض وبفضل روح التسامح والتنسيق والشمول هذا، اكتسبت ثقافتها طابعا من المرونة والتسامح واللينة. وهى الصفات التى مكنتها من التغلغل إلى نفوس عامة الشعب، ومقاومة كل محاولة تهدف إلى القضاء على حياة تقاليدها العتيقة واستمرارها.

إن وجهة النظر الموحدة التى تجلت فى المنظمات السياسية والاقتصادية، والعادات الاجتماعية وأساليب الحياة، واللغات والآداب، والفنون اللطيفة والفن المعمارى، والأديان والفلسفة،

الوفاق فى القرون الوسطى

إن قصة الثقافة الهندية قصة تصادم وتوفيق وتكاثر. وقد سبق لنا وأن شاهدنا ما تم فى العصور القديمة من الوفاق بين عدة قوات متضادة. ومع ظهور الاسلام فى الهند تكرر نفس عملية التفاعل والتوافق، ولكن بشكل أعنف ألف مرة ومرة. فلمرة الأولى فى تاريخ البلاد المعروف اصطدمت الديانة والأنظمة الاجتماعية الهندية بنظام آخر لا يقل عنها تنظيما وتحديداً. وقد تفاقم هذا الصراع بين النظامين الهندوكى والاسلامى واشتد نظرا للتباين والاختلاف البين فى وجهتى النظر. وجدت فى الهندوكية عنصر من الرهبانية وترك الدنيا، وانحصارها على الذات المطلق أدى إلى وضع الأمور الدنيوية فى مرتبة دونية لا قيمة لها. تلكم هى الأوضاع التى سادت الهند عند دخول الاسلام إليها. وعلى عكس ذلك كانت الديانة الاسلامية لا رهبانية فيها، وأعطت للدنيا حقها بتركيز اهتمامها فى الأمور الدنيوية. وكانت نظرتها إلى الحياة نظرة حيوية أساسية

التى قامت بين الهنادكة والمسلمين بأقل من مثيلاتها التى قامت بين المسلمين والمسلمين وبين الهادكة والهنادكة. وقلما طرأ المسائل الدينية على بال زعماء المتنافسين.

لقد كانت بواعث غزو العرب لأقليم السند تجارية. والغزوات التى قام بها محمود الغزنوى هدفت لاستغلال ثروات الهند وليتأسس بها ويدعم امبراطوريته التركية الفارسية. وعند ما بدأ الافغانيون يتدفقون على الهند، فقد كان ذلك بسبب الضغط القادم من آسيا الوسطى — الضغط الذى خلع السكان المقيمين على الحدود الهندية. وكان مجىء الآريين إلى الهند لنفس الأسباب والدوافع. وتلا هؤلاء أفواج متعددة أخرى من الغزاة طيلة العصور القديمة. والغزو الأفغانى والتركى إنما تكرر نفس الحكاية. ووضح بابر فى سيرة حياته تمام الوضوح سريان هذا المبدأ وانطباقه عليه. فكانت إعادة ترديد نفس الرواية، إلا أنها اختلفت عنها من ناحية واحدة، وهى أن الغزاة الذين عرفتهم الهند بعد الغزو الآرى، وحتى ظهور العرب على المسرح لم تكن لهم ثقافة راقية خاصة بهم. ولذلك سرعان ما امتصتهم التربة الهندية. أما حركات تنقلات الشعب الجديدة

واجتماعية . وسرعان ما وقف الدين الجديد موقف التحدى من ادعاءات الدين القديم وقوض نظامه الاجتماعى من أسسه .

وقد نشأ عن الصراع والاختلاف بين وجهتى النظر مشاكل ، وقعت مهمة معالجتها على عاتق الثقافة الهندية . وقد يبدو فى بادئ النظر من الصراع القائم حاليا بين الهنادكة والمسلمين أن الثقافة الهندية لم توفق إلى تكميل المعالجة . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم السكان والمشاكل المتعددة التى تجابههم أدركنا أن وجه الغرابة لا يكمن فى عدم اندماجهما كليا بعد ، بل فى مدى ما تحقق بين المذهبين من اندماج . ويلاحظ كذلك أنه حيثما وجدت مسائل الخصام ، فقد اقتصرت حول المصالح المادية . إن تاريخ الهند فى القرون الوسطى شأنه شأن تواريخ الشعوب الأخرى فى جميع العصور والحقبات — وهو عبارة عن صراع من أجل النفوذ السياسى والسيطرة الاقتصادية . ومن النادر حقا ، أن نعثر على أثر لأى صراع دينى أو طائفى . لا مشادة فى أن المسلمين حاربوا الهنادكة فى القرون الوسطى ، ولكن من النادر ، بل من المعدوم أن تكون هذه الحروب قد نشبت حول خلافات دينية أو طائفية . ولم تكن المشاحنات

١ ـ الطريقـة الهندوستانيـة

لقد كان تاثير الاسلام على الهند عميقا جدا. والاتصال الذى تم بين الأفكار القديمة والجديدة حمل أصحاب النباهة والاحساس أن يتأملوا ويفكروا من جديد فى أسرار هذا الكون ومشاكله الخالدة سيما بعد أن تجردت العقول من موانع التقاليد القديمة. واستنبطت ديانات وفلسفات جديدة رمزا للتقارب بين الأفكار الهندوكية والاسلامية. ومع كل هذا فان عمليات الامتصاص والتوفيق بين النظامين لم تكتمل كليا لقيام صعوبات المسافة والبعد. وبقى تبادل الأفكار والثقافة بين العاصمة وسائر البلاد ناقصا، ولكن المدن شاهدت عملية اندماج بين الثقافتين وتعوضت قلة عدد المسلمين باكتساب أهميـة سياسية لهم. وكانت الطبقة الارستقراطية الاسلامية، على قلة عددها بفضل ما تتمتع به من ميزات التركيز والتجانس، أعطت الثقافة المدنية لونها وطابعها. أما فى المناطق القروية كانت الأوضاع على غير ذلك. فصعوبة المواصلات مكنت الوحدات المحلية من

فقد حملت معها إلى الهند نفرا من الناس اقتبسوا ظواهر الحضارة الاسلامية ولو لم يحظوا بروحها . وصفوة القول فان هذه المشكلة تكشفت عن أنها قضية اندماج بين ثقافتين متباينتين وليست محاولة من جانب ثقافة واحدة لامتصاص الأخرى وابتلاعها .

العصور وحسب، وهى على ذلك حضارات هندوكية فى الصميم. ووقع المسلمون من ناحيتهم فى شك وريبة، إذ لو صح أنه ليس هناك تسجيل تقدم الشعب خلال القرون المتعددة التى عاشوا فيها فى البلاد، فلا بد وإن كانت الثقافة الهندية هندوكية وعلى ذلك لا تمت إليهم بصلة. والحقيقة أنه لما لم تقدر جهود تعاون المسلمين والهنادكة لايجاد ثقافة الهند، جعل المسلم والهندوكى ينظر بعضهما إلى بعض بنظر الشبهة والبغض والحقارة. إن خيبة الأمل الناشئة عن الخسائر البشرية الفادحة التى منيت بها البلاد خلال ما ينوف عن ثمانمائة عام هى مبعث المرارة الطائفيـــة فى الوقت الحاضر.

وقد تكفى الاعتبارات النظرية وحدها لالغاء تعبير مثل هذا عن تاريخ الهند خلال العصور الوسطى. ومع أننا لسنا على إلمام بجميع الحقائق المتصلة بالموضوع، ولكن فى وسعنا أن نؤكد أنه من غير المعقول لثقافتين غنيتين أن تتصلا معا وتبقيا عاريتين من عمليات اندماج جديد. وإن كان كذلك فلا تجدن فى سيرة الانسان مثيل لتاريخ عقيم مثل هذا. إن الثقافة الهندوكية كان لها روعتها من حيث اتساع نطاقها ومداها. وحتى ولو أنها

الاحتفاظ بمدى من استقلالها . وقد بدأ الجمود الذى يلازم النظم الاجتماعية فى المناطق القروية ، عادة يتجلى ويتفاقم نظرا لانعدام حركة تبادل فكرى مستمر أو اتصال دائم بين السكان . ونتيجة لهذا فان المسلمين فى هذه المناطق الريفية قد وقعوا تحت ضغط النظم الاجتماعى الهندوكى . والثقافة الريفية رغما عما وقع فى الريف الهندى من عمليات واسعة النطاق للتبديلات فى الدين فقد احتفظت بطابعها الهندوكى التام ، ذلك لأن تحول الأفراد عن دينهم ودخولهم فى دين جديد لم ينطو على تغيير أساليب ونظم المعيشة عندهم .

ومع أن كتب التاريخ الهندى التى ما زالت موجودة تتضمن وصفا حيا للخلافات والمشاحنات ، إلا أن عمليات الاندماج والتوفيق التى تمت بينهما ، كان نصيبها أن تنسى أو تهمل . وقد تحكى لنا حكاية قيام وسقوط أسر مالكة وغارات قبائل من الخارج ، وأحوال أعمال الاستبداد والنهب والسلب ، ولكن من العسير أن تأتى على ذكر قيام مؤسسات اجتماعية وثقافية أو ظهور أشكال اجتماعية جديدة . والاعتقاد السائد بين أغلبية المناطكة هو أن الحضارات التى عرفتها الهند إنما قامت فى سالف

ستخرج من كل هذا أن تاريخ الهند الحقيقي خلال العصور الوسطى لا يخرج عن كونه سجلا لمحاولات لاقامة تعاون وتنسيق بين المسلمين والهنادكة فى ألف ميدان. فسرعان ما يعيد إلى الذاكرة أسماء «راماننده»[1] و«كبير» و«نانك»[2] و«شيتانيا»[3] ومعين الدين. إن قيام حركة «فيشناوا»[4] فى البنغال والثقافة «البكتية»[5] فى «المهاراشترا»[6] يمكن ردهما مباشرة إلى عملية الاندماج التى تمت فيما بين الثقافات الدينية. ولم يكن هذا النشاط التعاونى ليقتصر على الميادين الروحية، بل تعداها فى العهد الباتانى بصورة أوسع فى العهد المغولى. فتطورت العادات والسلوك، وهيئة الملابس والأعياد، ووسائل إعداد الطعام والشؤون المنزلية والاجتماعية. أما فيما يختص باللباس، فقد وضع تصميم لزى جديد يعتبر انحرافا عن التأثيرات العربية أو تأثيرات آسيا الوسطى. وقد شاهدت هذه الفترة ظهور لغة جديدة ما زالت حتى يومنا هذا وسيلة للتخاطب بين الهنود من مختلف الأجناس والمناطق. والآداب الفاخرة التى تتجلى فى مختلف اللغات الهندية فانما تعيد إلى الذاكرة النمو الثقافى الذى عرفته الهند فى عصورها الوسطى.

1 Ramananda
2 Nanak
3 Chaitanya
4 Vaishnavism
5 Bhakti Cult
6 Maharashtra

فقدت شيئا من حيويتها الرئيسية عندما ظهر المسلمون على المسرح إلا أنها احتفظت بعناصر ذات قيمة دائمة للفكر البشرى. وكان لا مندوحة للسلمين بعد أن تم لهم الاتصال بها أن يتشربوا روحها. ويكون تناسب التعاون بينهما رأسا بمناسبة قوة نشاطهما الروحانية. إن الحضارات المتفرقة التى قامت فى الهند القديمة قبل العهد الآرى، وإن هزمت عسكريا على أيدى جحافل الغزاة الآريين، إلا أنها ساعدت تدريجيا على تحويل العقلية الآرية نفسها بتذهيب حياة الفاتحين الثقافية. وكذلك الحال فى اليونان، فان الحضارة الميسانية[1] على الرغم من انهزامها فى الميادين الحربية، قد استطاعت أن تحى وتبقى بفضل ازدهار وتفوق الثقافة اليونانية فيما بعد. وأعيد تمثيل الرواية نفسها عندما دانت « روما » للثقافة اليونانية، رغما عن تغلب سياسى للرومانيين على اليونان. وكذلك الحال فى الهند، فان المسلمين وإن ربحوا المعركة سياسيا إلا أنهم تعادلوا مع الهنادكة فى المعارك الذهنية والروحية على اعتبار أن النصر كان مشتركا بينهم. وهو النصر الذى يمكن وصفه عن حق بأنه كان تعاونا قلبيا ذا النتائج البعيدة.

1 Mycenaean

من العسير الشاق أن نحدد مدى اعتماد وجهة النظر الهندوكية المصرية للحياة على المصادر الفيدية والأوبانيشادية ، ومـــدى ما استقته من التعاليم الاسلاميـة . وعلى نفس النحو ، فان العقائد وقواعـد الآداب والسلوك ، والعادات والمؤسسات الاجتماعيـة عند مسلمى الهند تنعكس ما تركته الثقافة ووجهة النظر الهندوكية فيها من أثر . ولم تكن تأثيرات الهند مقصورة على مسلمى الهند بل كذلك تعدتها إلى التأثير على تطور العلوم الدينيـة الاسلامية فى فارس وبلاد العرب . وقد تغلغلت الأفكار البوذية غربا حتى غزت مصر . ويميل بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن « عظـة جبل الطور »[1] لها سابقتها فى المؤلفات والمراسيم البوذية القديمة . ويعتقد أن الطائفة « إيسن »[2] كانت بوذية واستوطنت آسيا الصغرى . ومع أن القرآن الكريم يعتبر المصدر الأساسى للمبادئ الصوفية ، إلا أن الصوفية تأثرت كثيرا بالتيارات الفكرية الهندية . ومع أن المسيحية والمذاهب الأفلاطونية الجديدة[3] والمجوسية والمانية[4] قد ساهمت بدورها فى بعث الصوفيـة وتطورها ، ولكن أقوى التأثيرات التى تعرضت إليها ، جاءت من طريق الهندوكية والفلسفة

1 Sermon on the Mount
2 The Essenes
3 Neo-Platonism
4 Manism

ونجد أن دوافع التنسيق والاندماج قد تناولت شتى الميادين، اجتماعية كانت أم سياسية أم ثقافية، وسواء فى الهندسة المعمارية أو النحت، أو الموسيقى، أو الرسم، أو العادات الاجتماعية والمعتقدات الشعبية. فان عملية الدمج بين النظم القديمة والحديدة أدت إلى ابتكار ألوان جديدة جاءت مساهمة الفريقين فيها على وجه يختلط فيه على الانسان الفصل والتمييز بينهما. وصفوة القول فان العقليتين الاسلامية والهندوكية اندمجتا معا فى مختلف مظاهر العبقرية الهندية إلى حد يحملنا على القول بأن أيا من الفريقين يدعى أو يفاخر الآن بصفاء ونقاوة ثقافته — هندوكية كانت أم إسلامية، فانما يثبت جهله المطبق للحقائق التاريخية وعجزه عن النفاذ إلى أعماقها. وإننا لنجد أن عملية الهضم والامتصاص حتى فى عهد بابر قد بلغت حدا حمله بأن يصفها على أنها نمط أو طريقة من الحياة اصطلح على تسميتها بـ «الطريقة الهندوستانية».

وقد يبدو لأول وهلة أن ميدانى الفلسفة والاقتصاد لا يمت بعضهما إلى بعض بصلة. ومع ذلك فاننا نعثر هذين الميدانين على أثر ملموس للتعاون الاسلامى والهندوكى. والواقع أنه

الجنوب. والواقع أن المناطق الجنوبية من الهند هي التي شهدت قيام وازدهار الحركة «الفيشناوية»[1] والحركة «الشيفاوية»[2]. ونحن نعلم أن الانقلابات السياسية والاجتماعية التي وقعت في المناطق الشمالية من الهند، لا يمكن لها وحدها تعليل وتفسير هذا التحول الفجائي، وتحول مركز النشاط القومي هذا أثار دهشة المؤرخين. وقد يتسنى لنا أن نجد حلا لهذه المشاهدة إذا أوجدنا صلة بينها وبين تسرب الإسلام إلى الهند في قسم الجنوب من الهند حوالي القرن السابع.

ولقد ظهر الإسلام أولا في جنوب الهند. وقبل أن يتمكن محمد بن القاسم من إخضاع إقليم السند كان التجار العرب قد أقاموا لهم صلات مع سكان «ترافنكور»[3]. وقد بلغ تغلغل العرب المسلمين في الهند مدى يحمل على الاعتقاد، إذا صدقت الرواية بأن آخر ملك أسرة «شيرامان بيرومل»[4] وهي الأسرة التي حكمت مليبار كان قد اعتنق الإسلام وغادر بلاده لأداء فريضة الحج. ولقب «زامورين» صاحب «كاليكوت» الذي كان يحمله يقيم البرهان على صحة هذه الرواية. وحتى يومنا هذا، فما زالت العادة أن

1 Vaishnavism
2 Saivaism
3 Travancore
4 Cheraman Perumal

الوذية . وإلا كيف يتسنى لنا أن نفهم المبادئ الصوفية القائلة بفناء الذات الفردية فى الأزلى المطلق على عكس تقاليد الديانات السامية التى عرفت منذ عهد سيدنا موسى .

ولما كان مبدأ التجاوب هو القانون الذى يتحكم بالميادين الفكرية ، فلا غرابة فى أن الصوفية رغما عن تأثرها بالأفكار الهندية قد أثرت بدورها وإلى مدى بعيد على وجهة نظر الديانة الهندوكية . ومع أن نفرا قليلا من المؤرخين يشك بأن « الفيدانتا »[1] التى وضعها وألفها « شانكر »[2] قد تعرضت لتأثيرات خارجية ولكن هناك من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن « شانكر » قد تأثر بما كان للاسلام من تأثيرات على التيارات الفكرية السائدة . وكانت المناطق الشمالية من الهنـد منذ أن شرع فى تدوين التاريخ ، مهدا لجميع الحركات الفكرية الهندية الجديدة وحركات التجديد الدينية والفلسفية . إلا أن بداية القرن الثامن سجلت تحولا أساسيا فى هذا الاتجاه . فقد انتقلت الزعامة الفكرية الهندية إلى المناطق الجنوبية من البلاد . فـ « شانكر » و « رامانوجا »[3] و « نمبادتيا »[4] و « فلب آشاريا »[5] جميعهم من أبناء

1 Vedanta 2 Sankara 3 Ramanuja
4 Nimbaditya 5 Vallabhacharyya

الى الحياة كانت مركبة، متأنقة وقائمة على التفكير، فإن العقلية التى تمخضت عنها فلسفة الحياة الجديدة فى جنوبى الهند، كانت جامحة حادة سواء من ناحية القبض الماطق أم من ناحية الاهتمام بالحركة والنشاط وابرازهما. وعلى هذا فان العقلية التى كانت تسود المناطق الشمالية بما يغلب عليها ذهنية الانكماش والانطوائية تحولت فجأة إلى الجاجة ثورية غدا معها كل شىء حتى العقل أداة طبيعية فى يد العاطفة. وقد تكون كل مادة من المواد التى تضمنتها فلسفة «شنكر» رغما عما هناك من اختلاف فى مدى إبرازها وتأكيدها مستمدة من «موارد» «اوبانيشاد» القديمة إلا أن طبيعة وشكل التنسيق الذى حققته يوحى بأنها تأثرت ببعض عناصر جديدة. أليس الطريف حقا أن نلمس فى حماسة «شنكر» أثرا من آثار الحمية الاسلامية؟

ويعتبر «شنكر» من عدة نواح من أغرب الشخصيات فى تاريخ الثقافة الهندية. ومن المألوف المعتاد أن ينظر إليه أنه خلاصة التفكير الهندى المحض. ويعتقد بأنه تزعم حركة الدفاع عن التقاليد الرجعية البراهمية فى وجه التعاليم البوذية المتحررة المتنوعة المصادر، ويرى البعض أنه ذهب فى نظرية

يختار « موپلا »[1] أى أحد أفراد طائفة اسلامية ليقوم بمراسيم التويج . ويؤخذ من رواية أخرى كثيرة الانتشار أن « كالادى »[2]، وهى مهبط رأس « شانكر »، كانت تابعة لامارة صغيرة اعتنق حاكمها الاسلام . وليس هناك ما يثبت أن دخول هؤلاء الناس فى الاسلام جاء نتيجة لفتح عسكرى، كما أنه ليس هنالك ما يدل على أن اعتناق الملك للدين الاسلامى حمل رعاياه بالتالى على أن يدخلوا فى دين الله أفواجا . ورغما عن أن هذه الدلائل ليست قاطعة، إلا أن رواج مثل هذه الروايات إنما يدل على مدى ما كان للفكر الاسلامى من تأثير على الحياة المعاصرة فى جنوبى الهند .

وكان للاتصال والتصادم اللذين قاما بين هاتين الفكرتين أن انبعثت من جديد روح الاستطلاع والتشكك فى ذهن الفرد . وكان لزاما على « شانكر » بكل ما أوتى من قوة التفكير وعمقه أن يجد فى هذا الطراز الجديد من الفكر الأجنبى ما يجذبه اليه وبالتالى ما يحمله على اقتطاف ما يلائمه منه . وفى حين أن المذاهب الدينية القديمة التى قامت فى شمالى الهند ووجهة نظرها

1 Mopla 2 Kaladi

هذه المعرفة غير حقيقية لا وجود لها . وقد رد عليهم شنكر بقوله أن هذا الاستنتاج ليس له ما يبرره ، لأنه نفسه مبنى على المعرفة . وقد استعاض شنكر عن نظرية انعـدام الحقيقة بنظرية الاسرار الغامضة التي لا يمكن تفسيرها وتعليلها . وعنده أن المحاولة للنيل من المعرفة على اعتبار أنها معدومة غير حقيقية لا تشفي غليلا . وذلك لاغفالها إيراد أسباب أو تعليلات لوجود هذه المعرفة أو قيامها . أما الزعم بأنها وهمية فيتطلب تعليلا لطبيعة ما هو وهمي . ذلك إن بعض ما يتراآى لنا وهميا لا يخرج في النهاية عن كونه سرا لا يستوعبه إدراك .

ولذلك فان شنكر اعترف بالخدمات القيمة التي أداها بوذا في عالم ماوراء المرئيات . كما أنه أدرك أن ما تنطوي عليـه الفلسفة البوذية من أفكار وفوضوية قد عملت بالتالي على تقويض القيم الأخلاقية عند عامة الشعب . وهذا ما حمله على التسليم بالنظرية البوذية القائلة أن الحقيقة الأصلية في النفس هي الفكرة . وعلى نقيض البوذيين فان « شنكر » يعتقد أن هذه الفكرة هي وحدة خالدة أزلية أنها العامل الكامن ماوراء كل شيء حتى في هـذا الوجود ومصدر وجوده . وهو يرى أنه لما كانت

انعدام الحقيقة الكونية إلى أقصى الدرجات بحيث لم يترك منها مجالا للعفة والبر. وقد تبدو لأول وهلة من اعتقاد «شنكر» بالتوحيد الخالص بأنه يرفض الدنيا على كونها شيئا وهميا. فاذا صح أن الكون مجرد شيء وهمى فان الأعمال الدنيوية تفقد معناها. ويكون البوذيون حينئذ على حق، فى اعتبار الحياة على أنواعها كأغلال وقيود يترتب على الانسان أن يتحرر منها بكبت شهواته ورغباته. وحتى ذلك النفر ممن يضعون «شنكر» فى مرتبة الأنبياء لـ «ماياباد» يسلمون معنا على أنه كان من ألد خصوم نظرية الفناء[1] البوذية والاستكانة التى تنتج فيها.

إن المكانة الهامة التى يحتلها «شنكر» فى تاريخ الفكر الهندى تعود إلى ما قام به من محاولات لتحدى التعاليم البوذية الخاصة بعالم ما وراء المرئيات والرد عليها، والاستناد فى هذا الرد على حججها ومنطقها. وقد انبرى أيضا لدحض ما زعمه البوذيون من عدم ديمومة الحياة الدنيا وكشف النقاب عن التناقض الذاتى الذى يتوفر فى المادة الثابتة. ويرى البوذيون أنه لما كانت المعرفة العادية تنطبع بطابع التناقض، فالنتيجة المعقولة هى أن

1 Nirvana

القائلة أن « شنكر » قد أغفل العمل والنشاط بأنواعه المختلفة . ولكن الذين يدينون بهذا الرأى لا يدركون بأنه لو ثبتت صحته ، فانها يجعل من « شنكر » واحدا من المعترضين المقرين بالتعاليم البوذية الخاصة بعالم ماوراء المرئيات . وهى التعاليم التى هاجمها « شنكر » بشدة . وقد أكد « شنكر » مرة بعد أخرى ضرورة عدم الاغفال عن الأعمال التى نصت عليها الكتب المنزلة مبينا أنها ضرورية فى المراحل الأولية . ولعل تأكيده وإبرازه لأهمية الأعمال قد يكون بمثابة رد فعل لانكار العمل فى الهندوكية الفاسدة والبوذية الفاسدة السائدتان حين ولادته . وقد يرد هذا إلى تعاليم « الجيتا »[1]. أما السبب الآخر المعقول الذى حمله على تأكيد أهمية العمل ، كما يعتقد البعض ، فقد يعود إلى انتشار الاسلام ورسوخه فى الملك الذى كان مسقط رأسه . وعندنا أن ما لازم تأكيده لأهمية الأعمال من إصرار شديد على وحدانية براهما ، يتكشف عن مشابهة ومطابقة للتعاليم الاسلامية . وهى المطابقة التى وإن كانت تبدو غريبة فى بابها ، إلا أنها لا تخلو من أهمية ومغزى .

1 Gita

مظاهر الفكرة أو أشكالها تقوم بأداء مهمتها بواسطة « مايا »[1]. فان كل شئ فى هذا الوجود يعتبر حقيقيا بصورة نسبية، ويستمر على كونه حقيقة، ويجب أن يسلم بها على هذا الأساس. وعلى ذلك فليس فى وسع الأفراد استيعاب الفكر السامى القائل أن « براهمان » هو الحقيقة الوحيدة إلا بعد بلوغهم درجات المعرفة العليا.

قبل « شنكر » التعاليم البوذية الخاصة بعالم ماوراء المرئيات، وقبل معها الطقوس الفيدية وديها، وأبرز أهمية هذه الطقوس بالنسبة إلى الرجل العادى. وقبل واعترف جليا بفائدة العبادة والتأمل. وعندنا أن « شنكر » بفضل نواحى نشاطه المتعبدة واقتناعه من أن التأمل الذى لا يرمى إلى هدف مادى يشبع الرجل العادى، قد أسدى أجل الخدمات لرفع شأن البلاد والنهوض بها وإشماع فلسفة مشتركة بين مجموعة الشعب وسواده.

أما النقطة الثالثة فى تعاليم « شنكر » وفلسفته فتنحصر فى محاولاته لتأكيد وإبراز أهمية العمل. وهى التعاليم التى لم يناد بها فحسب، بل مارسها شخصيا. وقد استأصلت فى النفوس الفكرة

1 Maya

منها تاريخ الهند الدينى فى العصور الوسطى . ومن الذين ساروا على نهجه هم « راماننده » و « كبير » و « نانك » و « دادو » و « شتيانيا » و « توكارام » . ولعل أهم ميزة للجهود فى الوفاق هى التفاتها للماضى . وجمعها بين العناصر الجديدة والقديمة ، مع الاحتفاظ بوحدة واستمرار وجهة النظر الهندية الروحيـــة ومجهوداتها .

لقد جاءت حياة « شنكر » وتعاليمه مثالا لامعا على روح التوفيق التى تعتبر من الميزات الخاصة للثقافة الهندية. والواقع أن تعاليمه جمعت بين محاسن التعاليم الهندوكية والبوذية فى آن واحد. لقد استنبط شنكر فلسفة عملية استطاع بفضلها أن يوفق ما بين الديانتين الرئيسيتين فى البلاد، ويضع حدا للحروب الضروسة التى كانت قائمة بين الهندوكية والبوذية. وهناك أسباب تحمل على الظن بأنه ضم إلى مركبه تلك العناصر من التعاليم الاسلامية التى كانت أكثر ملائمة لعبقرية البلاد. إن توحيده المتطرف، وقمعه للشرك وشائباته، ومحاولاته لاثبات هذا التوحيد بالاعتماد على نصوص الكتب المنزلة، ثم ميله إلى أن ينظر إلى جهوده الشخصية بأنها كانت لارجاع الصفاء الأصلى إلى الصداقة المنزلة وحسب، كل هذه العوامل تذكرنا بالشدة بالعقائد الاسلامية. فاذا ما أقمنا صلة بين هذا التشابه فى المظاهر وظهور الاسلام كقوة حية قبل مولده يقابل فى البلد الذى كان مسقط رأسه، فلا يمكن إنكار الاستدلال بأنه قد تأثر بتعاليم الدين الجديد.

إن « شنكر » وضع حجر الزاوية لجهود الوفاق التى يتكون

تفاعل الطرفين هذا بقى موضع إهمال ونسيان بالنسبة إلى تاريخ الهند. ذلك إنه من النادر أن نلمس اعترافا، بالطريقة التى مكنت «أكبر» بفضل ما اتخذه من تدابير أن يمهد الطريق ولو عفواً، وبدون قصد إلى قيام الرأسمالية. ذلك أن «أكبر» أدخل نظام الدفع نقداً على بدل الدفع صنفاً على معظم معاملات الدولة، بطرق أخرى استعاض عن نظام المقايضة بنظام اقتصادى يقوم على النقد. أضف إلى هذا أن أكبر أتم إعادة تنظيم ملكية الأرض التى بدأها سلفه شير شاه. وتدل هذه الاجراءات على ما حدث بعد ذلك من حلول نظام الانتاج الراسمالى محل النظام الاقطاعى، على أن هذه العملية لم تكتسب مراحلها النهائية نظرا لأن الشرط الأساسى المكمل لها، وهو تغلب الشعب على قوى الطبيعة واستخدامه لها، لم يكن تحقق بعد.

إن مصدر الصراع بين الأفراد والجماعات فى عصور وأماكن أخرى من العالم، يرد إلى أسباب وعوامل علمانية. وفى وسعنا إثبات صحة هذا القول إذا ما قمنا بدراسة ظاهرة رائعة من الظواهر التى تجلت فى ذلك العصر. وكثيرا ما بينت الصلة القائمة بين الأحوال الاجتماعية والجغرافية التى كانت تسود آسيا

٢ — الميادين الاقتصادية والفنية

إن تاريخ الهند فى القرون الوسطى بالنسبة إلى التنظيم الاقتصادى يعتبر ترديدا لرواية الصراع والتوفيق نفسها. فالمفهوم أن اقتصاديات الهند القائمة على الزراعة بدأت تفسح المجال أمام نظام إقطاعى قائم على وقائع الفتح وحقيقته. وعندنا أن المحاولة التى قام «علاؤ الدين» فى نطاق هذا النظام الصارم لتنظيم أسعار الحاجيات الضرورية، إنما تدل على وعى اجتماعى يتجاوز حد المصالح الشخصية ولو بصورة جزئية. ومع أن المحاولة التى قام به محمد تغلق لادخال نقد اسمى جاءت سابقة لأوانها وأخفقت، إلا أن التدابير المتعددة التى اتخذها، تدل على ما كان يتوفر لديه من آراء مهما كانت غامضة عن طبيعة النقد لمجرد أداة للتبادل دون أن يكون لهذا النقد قيمة فى نفسه.

إن تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية فيما بينها لم يغب عن اهتمام المدققين. وعلى الرغم من أن الصلات بين الراسمالية والدولة القائمة على المجموعة القومية كانت ملحوظة إلا أن

وعلة هـــذه الظاهرة كما يلوح هو التحول الذى وقع فى الاتجاهات التجارية الهندية. والطرق التجارية الهندية كانت حتى القرن الثامن تتجه اتجاها شرقيا، حيث المستعمرات الهندية وممتلكاتها ماوراء البحار. وكان اتصـال الهند التجارى بالبلدان البعيدة كالصين واليابان مستمرا واسع النطاق. على أن هناك ما يوحى بقيام اتصال تجارى بين الهنـد وأوروبا، إلا أنه لم يكن مما يستحق الذكر إذا ما قورن بتجارة الهند الشرقية. ونتيجة لهذا اتجهت حيـاة الهند السياسية نحو الشرق لتستمد مقومات حياتها من الثروات التى أخذت تتدفق عليها من المناطق الواقعة ماوراء البحار. على أن الحالة تبدلت بعد القرن السابع. فقد أدى ظهور سلطة العرب إلى إقامة اتصالات تجارية بحرية مابين الهنـــد والغرب. وقد سبق لنـا أن ألمعنا إلى اتصال العرب بالمناطق الجنوبية من الهند فى القرن السابع، وما وقع فى القرن الذى تلاه من غزو العرب لاقليم السند لاعتبارات ودوافع تجارية. وقد تحولت منطقة ججرات فى ذلك الحين إلى مركز من مراكز هذه التجارة، عندما أخذت الثروة تتدفق على الهند من الغرب.

الوسطى، وبين الغزوات التى تعرضت لها الهند. أما الظاهرة التى لم تلق بعد الاهتمام الجدير به، هى قيام السلطة الراجبوتية، ومدة بقائها فى الهند فى عصورها الوسطى. فعلى وجه التقريب لم تكن للراجپوت[1] قبل حلول القرن الثامن عشر وبعد عهد أورنجزيب أهمية تذكر فى تاريخ الهند. ولكنهم فى بحر حوالى ألف عام هذه كانوا قد تمكنوا من فرض تاريخهم على البلاد رغما عن تأخرهم عدديا وسياسيا عن الجماعات والأمارات الهندية الأخرى. ويلاحظ أن مركز النفوذ السياسى فى الهند قبل القرن الثامن أخذ ينتقل على ضفاف نهر الكنكا[2]. والمعروف أن المناطق الشرقية من البلاد منذ عهد أشوكا حتى عصر «هرشا فردانا[3]»، كانت مهدا للزعامة السياسية. على أن تحولا رائعا فى هذه الظاهرة بدأ يتجلى منذ القرن الثامن فما بعد. ذلك أن محور النفوذ والسلطة السياسية انتقل من المناطق الشرقية إلى وسط الهند فى منطقة دلهى، واستمر قائما فيها لمدة ألف عام. وهذه الفترة بالذات شاهدت قيام السلطة الراجبوتية وبلوغها ذروة المجد.

1 Rajput 2 Ganges 3 Harshavardhana

الراجبوت فى الحملات التى شنها «أورنجزيب» على «راج سنج». لأن هذا الصراع لم يكن حاسما بل كان أقل قاطع بالذى قام بين ميوار و دلهى من قبل. ومع أن «علاؤ الدين» و «بابر» أوقعا أشنع الهزائم بالراجبوت، إلا أنهم لم يوفقوا إلى استئصال نفوذهم وسلطانهم. أما «أكبر» فقد ضم إلى الضغط العسكرى التودد والمجاملة لترويضهم والانتفاع بحيويتهم ونشاطهم فى توسيع إمبراطوريته. ومع كل ذلك لم ينجح فى القضاء على نفوذهم وقدرتهم على المقاومة. ولذا لا مفر لنا من أن نتلمس علة انهيار الراجبوت وسقوطهم فى نواح وميادين أخرى.

ومن الجائز أن نعلل سقوطهم كصعودهم بتحول جديد فى المراكز والطرق التجارية فى الهند. ولما طغت أهمية التجارة العربية مع الهند على تجارة الهند مع الملايو والهند الشرقية[1] أصبحت ججرات السوق التجارية للهند، وبلغت راجبوتانا أوج مجدها العسكرى. وباكتشاف الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح، وقيام مراكز تجارية جديدة فى كاليكت وعلى السواحل الشرقية من البلاد فقدت ججرات أهميتها التجارى وفقد

1 East Indies

والتغير الذى طرأ على الاتجاهات والطرق التجارية فى الهند صادف تبوأ الراجبوت مكانة الأهمية. ومما يعزز الرأى القائل بوجود صلة بين هذين العاملين أن راجبوتانا[1] تقع مباشرة على طرق التجارة مابين ججرات ودلهى. وسرعان ما أصبحت السيطرة على هذا الطريق الهام مفتاحا للسيطرة على المناطق الشمالية من الهند بأسرها. وقد بدأت قصة هذه السيطرة بالصراع الذى قام بين زعماء الراجبوت أنفسهم لتأمين سيطرتهم على هذه المنطقة. على أن هذا الصراع تحول فيما بعد إلى صراع مابين «ميوار»[2] ودلهى. والواقع أن محور تاريخ الهند فى الفترة الواقعة مابين عهد علاؤ الدين وأكبر يدور حول هذا الصراع. ومع أن الاعتبارات الدينية والطائفية استغلت فى إثارة هذه المعارك، إلا أن دوافعها وأسبابها الرئيسية تنحصر فى رغبة السيطرة والاشراف على هذا الطريق التجارى الهام، وبالتالى التحكم بمرافق البلاد الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى، فان أفول نجم الراجبوت وانهيار نفوذهم له نفس الأهمية. وقد لا نجد تعليلا شافيا لانهيار

1 Rajputana   2 Mewar

التعايل والفهم إذا ما نظر إليه على أضواء النظرية القائلة بأن المشاحنات تقوم عادة على اعتبارات مادية. مع التسليم فى أن عوامل الدين والثقافة التى بدت فى هذا الصراع جاءت عرضا ومن باب الصدف.

وتتجلى عوامل الوحدة والاستمرار ودوافعها فى تطور الفنون الهندية على مختلف أنواعها وأشكالها. وقد سبق لنا أن شاهدنا كيف أن الثقافة الهندية نشأت وقامت على أساس المبدأ القائل بتحقيق الوحدة فى التناقض. وفى الميادين الدينية أدت إلى التحرر وترك الظواهر والعمل على إدماج الذات بالحقيقة الالهية عن طريق النشوة الروحية. ومتى تحقق هذا الاندماج الروحى، ثمة عودة إلى الحياة الدنيا. وفى تعدد نواحى هذه الظاهرة ما يعتبر تعبيراً هاماً لوحدة أساسية جوهرية، وقد جاء الفن المعمارى خير معبر لهذا الاتجاه، وذلك فى تسجيده إياه فى الحجر. ويلاحظ فى مبانى المعابد أنها تنعم فى الشكل ولا يعثر الناظر إليها على محل فارغ ولو ببوصة. فهناك روعة الزخرف ودقة التفاصيل اللتان تعكسان وتصوران الحقيقة التى تؤلف الحقيقة المتكاملة العليا لجميع الأشياء. أما الهيكل الداخلى فبالعكس أشبه

الراجپوت معها أهميتهم فى تاريخ البلاد وبروز السلطة الماراتية قد صادف هذا التطور. وكان للاتصالات التجارية التى أقامها البرتغاليون والهولنديون وغيرهم من الأوروبيين، أن أصبحت السيطرة على الأوقيانوس الهندى رئيسيا فى حياة البلاد الاقتصادية.

ولما بدأت المصالح التجارية الأوروبية تنمو وتتعاظم أخذت الحياة الاقتصادية تسير فى طرق واتجاهات جديدة. وانتقل مركز النفوذ السياسى إلى مدراس وكلكتا. وسرعان ما فقد الراجبوت والماراتيون، أهميتهم السياسية. ورغما عن أن الماراتيين واصلوا النضال لمدة قرن، إلا أنهم أخذوا يضمحلون تدريجيا بعد أن أخذ البريطانيون والفرنسيون زمام الحركة التجارية بين الهند والغرب بأيديهم بدلا من البرتغاليين والهولنديين، وما كان لهم أن يختفوا كليا عن المسرح بفضل إنشاء ميناء بومباى وتأسيسه. ولطالما وصف تاريخ الحروب التى شنها الراجبوت والمراتيون على دلهى على أنها صراع بين المسلمين والهنادكة لاعتبارات ودوافع طائفية دينية. وفى التحليل الذى أسلفناه ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا التاريخ أقرب إلى

هى العامل الذى يسيطر عليها وأحكام الصنعة يقوم فيها على ترتيب الخطوط والزوايا. وثمة ميزة رائعة أخرى لهذا الطراز من المبانى، هى وفرة الزخرف بالتماثيل، فكل عمود قد نحت من صخر وزين بمائة صورة وصورة. وقد تعددت هذه الصور والأشكال وتباينت إلى حد قلما نجد معه تكرارا لنفس الصورة والفكرة. ففى معبد «كانجى ورام»[1] الشهير حوالى ألف عمود يختلف كل عمود من أعمدته اختلافا كليا عن الآخر. وحتى فى المعبد الصغير «سيما شلم»[2] تختلف الأعمدة شكلا وتعبيرا. وعندنا أن هذا الطراز من الفن المعمارى إنما يهدف إلى إغمار شعورنا بإبراز غزارة الصور وروعة العرض.

ويتجلى التضاد فى الفن المعمارى الشمالى إلى حد لا يتعذر معه حتى على أبسط الهواة أن يتبينه. وحتى المعابد الشمالية قد انحرفت عن تحكم قاعدة الخط المستقيم وسيطرته فالصناعة فيها تؤلف بين قاعدة الأقواس والدوائر التى تنتقل بالرائى إلى آفاق جديدة. ومع أن القباب نادرة ولكن الأبراج نفسها تختلف عن أبراج الجنوب. وقد لا يتسنى للذين ينحصر

1 Kanjeevaram 2 Simhachalam

بحجرة صغيرة مظلمة حيث يقف روح الانسان فى خلوته وجها لوجه أمام السر الأزلى.

أما الأمثلة على الطراز الهندوكى الصميم فتوفر أكثرها فى المناطق الجنوبية من البلاد. على أن هذا لا يعنى أن هناك طرازا خاصا بالجنوب. وكل ما يمكن أن يفهم منه أنه رغما عن التباينات والتغايرات، فإن المبانى الجنوبية تعكس تشابها أساسيا من حيث التصميم والتنفيذ. وينطبق نفس القول على الفن المعمارى فى الشمال. ولعل فى هذا ما يميزها عن الاختبارات المماثلة التى شاهدتها البلدان الأخرى فى هذا الميدان. والقصور والقلاع والقبور التى قامت فى الهند الشمالية خلال القرون الوسطى تعكس آثار الفن الفارسى. ولكن رغما عما يقوم من تشابه بينها وبين النماذج الفارسية فانها تبدى ميزات تعد غريبة عن الفن المعمارى الفارسى. وهى وإن كانت قد تأثرت إلى حد بعيد باتجاهات فارسية إلا أنها استمدت مادتها من تقاليد الهند القديمة. فهى هندية فى الصميم.

وأما المعابد التى تقوم فى الجنوب فان قاعدة الخط المستقيم

بالمبادئ الدينية. ويحدثنا أن إقدام الفنيين والمهندسين المعماريين المشاركة على الانتفاع بالفنون والأفكار الاسلامية فيما شيدوه من بناء ليقيم البرهان على قوتها وحيويتها.

لم يكن ولم يمكن أن يكون التأثير من جانب واحد. والواقع أن الفنين أفادا وأخذا عن بعضهما بعضا. وفي حين أن طراز البناء العربي الاسلامى أثر على التقاليد الهندية القديمة إلا أن هذه بدورها تركت آثارها العميقة على تعميرات المسلمين في الهند. وإنما نستغنى عن ذكر أمثلة معينة عما أدخل من خصائص الطراز الهندوكى على المبانى الاسلامية فى الهند لذلك العصر. يكفى أن نشير إلى أن شجر «اللوتس» و «الجرة» اللتين انفرد بهما الفن المعمارى الهندوكى القديم ولكن نرى استعمالهما بمهارة على أضرحة قبور ملوك المسلمين. إن أهم ما تتميز بها الهندسة المعمارية الاسلامية القديمة هو بساطتها وحدتها. فخطوطها تتقابل مع بعضها بعضا بأناقة مجردة لا تفسح مجالا للزخرفة السطحية. وحتى فى الحالات التى استعملت فيها وسائل الزينة والزخرفة، فقد جاء هذا الزخرف وتلك الزينة على أشكال هندسية أو كتابات بلغت أقصى درجات الفن. والذى

إلمامهم فى الفن المعمارى فى الشمال، أن يقفوا على هذه الحقيقة. وعندهم أن الفوارق ما بين المعابد والمساجد تفوق أوجه التشابه الخفى بينهما. أما أولئك الذين رأوا المعابد القائمة فى الجنوب فقط، فيعتقدون أن جميع العمارات فى الشمال قد تأثرت لطابع المساجد وخصائصها. وليس هذا بالغريب المستهجن، لأن جميع أبنية الرائعة فى الشمال، سواء أكانت معابد أم مساجد، تستمد روعتها من التوفيق بين الطرازين الاسلامى والهندوكى وتأمين الانسجام بينهما.

إن تدابير النحت وغيرها من أعمال الزخرفة والتزيين فى الشمال لم يأت عن طريق الصدف. الاهتمام هناك يتركز فى تأمين التناسق وحفظ التوازن فى الحصص الأصلية. ورتبت الأجسام المدورة بحكمة حتى تترا آى منسجمة. والهندسة المعمارية فى الشمال تقوم على فكرة أساسية. ومحاسنها تتجلى بانسجام المجموعة البنائية أكثر منها فى روعة الأجزاء وتنوعها. ومن المدهش حقا أن يتحقق هذا التنسيق حتى فى بناء المعابد. ومع أنه هناك ميلا للأخذ والاقتباس عن التأثيرات الأجنبية فى ميادين أخرى، إلا أن هناك فكرة لمقاومة هذا الاتجاه فيما يتصل

فى الوجدان القومى . وهذا ما يمكن الفن من أن يعكس ويكشف عن الطبيعة الكمينة الخفية فى الشعوب ويكسبها رسوخا على مر القرون والأجيال .

ولعل فن الرسم هو اكثر الفنون خلودا وأشدها عصرية . أما الكلمات وهى وسيلة التفاهم فى المجتمع وتتغير مع تغير الأوضاع الاجتماعية . والموسيقى فهى عنصرية كذلك ولكن ليس لها خلود . فالشعور الذى تحدثه الموسيقى وتثيره هو شعور عابر بدون شكل بحيث لايتعدى تأثيره الهزات البسيطة التى تعترى النفس . ومما ينقصها من صفات التعيين ما لا يؤهلها أن تعبر تعبيرا شاملا عن العبقرية القومية .

ومع أن فن الرسم ينفذ إلى الأساس والجوهر إلا أنه يعبر عن سيماء الزمن أو السلالة . إن الدقة العجيبة التى يمتاز بها فن الرسم الفارسى القديم تعبر عن السلالة على نفس النحو الذى يعبر الفن الصينى عن القوانين العنصرية . إن استقرار الحضارة البورجوازية الهولندية يجابه الروح الأوربية القلقة العصرية فى رسم العهدين بصداقة وتأثير لا يمكن لأى فن آخر أن يعبر . و إن ما ينطبق على فن الرسم فى البلدان الأخرى لينطبق تماما

يلاحظ أن المبادئ التى يقوم عليها الفن المعمارى الاسلامى، قد تعرضت فى شمالى الهند إلى تعديلات وتغييرات أساسية. ذلك أن العناصر الاسلامية والهندوكية اندمجت معا لتخلف فنا معماريا جديدا. فمالت حدة الفن الاسلامى إلى اللينة وقصرت استكثار التشكيل فى الفن الهندوكى. ذلك أن عناصر الانسجام والشكل التى تميز الفن العربى الاسلامى قد اندمجت بخصائص الروعة والزخرفة التى يمتاز بها الفن الهندى. وحيث حصل الاندماج الكامل، نجد إعجازا فى التعمير كما فى «تاج محل». وفى كثير من الحالات التى لم تكن عملية الاندماج تامة، نجد أن أحد الفنين قد طغى على الآخر. ونوادرات التعمير كمبنى «فتح بور سيكرى»، ومبنى «اعتماد الدولة»، تعكس لنا مثالا رائعا عن عملية تنسيق ناقصة.

إن خلود الأمة فى فنونها. إن الظروف السياسية قد تتبدل وتتحول من يوم إلى آخر، دون أن تترك هذا التحول أثرا خالدا على العالم. وحتى فى الميادين الفلسفية فقد تطغى التفاصيل على الجوهر لتضيع الروح فى عراقيل العقل. أما الفن الأصيل فهو الذى يتحدى بساطته وعنصريته الفناء ويعرض أثره

الجاه والمجد والمحبة والشباب. أما المجموعة الثانية منها فتمثل حياة هادئة خلوة من عوامل الاثارة، تقوم على التأمل وتمثل التجرد والانصراف إلى الله والعفة والايمان. إن أصحاب هذه الرسوم لم يعالجوا كلا من العالمين على انفراد، كما أن معالجتهم للعالم الواحد لم تختلف عن معالجتهم للعالم الآخر. والواقع أن هذه الرسوم تعكس لنا نفس الشعور عباء الحياة وحدتها وازدحامها على النحو الذى لمسناه فى الفن المعمارى الذى قام فى الهند قبل العهد الاسلامى. وتتلاحق هذه الصور بعضها على بعض. وقد حشدت فى فوضى عجيبة بمجموعة من الرجال والنساء والأطفال فى أوضاع ومواقف مختلفة. ويتراآى لشاهدها أن الرسام الذى وضعها قد تأثر بخصب الحياة ووفرة إنتاجها الذى لا حد لها، فعمل على تفهمها والوثوق على أسرارها. وراح يعبر عن ذلك بفنه الدقيق. وقد روعى فى هذا الرسوم رغم تنوعها وتباينها إبراز الوحدة بين عناصر الحقيقة. وتعبر هذه الصور عن قدامة العوارض والظواهر الطبيعية بفضل ما عمد إليه الفنانون من إقامة ألفة رائعة بين ما رسموه من تماثيل بشرية أو غير بشرية. ومما يكسب صور «أجنتا»

على هذا الفن فى الهند .

ولسنا بحاجة لأن نقوم بعرض مستفيض لتاريخ الرسم الهندى الطويل فى عصوره القديمة، بعد أن غدا فى طى النسيان. وقد تعاونت أحداث الزمان والأجواء المعادية على دثر ما خلفته موجات المغيرين المتعاقبة. وقد دفن فى كهوف أجنتا إنجازات ثمينة تحافظ على ذكرى محاولة فى الرسم الأزلى. والبراعة المدهشة فى الأشكال كادت أن تلق الحركة فى الجامد والملموس. إن صيف الهند قد يكسب الحرارة والنور سطوعا واشعاعا ولكن هذا الاشعاع نفسه يفقد الأشياء ذاتيتها فى نوع من الانسجام الغامض المعدوم المعالم. والواقع أن اللوحات والرسوم هذه لا تخرج عن كونها تعبير فنى ذوقى لثقافة هى وليدة المحاولات التى بذلت للتنسيق والتاليف بين اختبارات أجناس مختلفة من البشر كما أنها تفترض قيام توازن بين الاتجاهات المتضاربة .

إن جدران وسقوف « اجنتا » حافلة بالمناظر المستمدة من حياة مجموعة الشعب بقدر ما هى زاخرة بالمناظر المستمدة من حياة الناسك. وأول أنواعها الصور يفيض بمسرات الحياة ويصور لنا

الرسم إلى فن التصوير إلا أنه تصوير يبدى الفطانة المدهشة .

وعندما اصطدم هـذا الطراز العنيف الفردى من الرسم بالرسم الموجود فى الهند نشأ عن اتصالهما واندماجهما طراز جديد جمع بين ما يتألف كل منهما وطرأت على براعة رسوم أجنتا خطوط جديدة من التناسق والتناسب والتباعد . ومع أن هذا الفن كان بعيدا عن الأهداف العنيفة الحادة التى هدف إليها فى الرسم الهندى القديم ، إلا أنه كان يعكس ضروبا من الذوق والاناقة . إن طابع التجرد الذى نلمسه فى الفن الهندى القديم جاء نتيجة إلى المبالغة فى تصوير الشعور والمغالاة فى ذلك إلى درجة الشعور تزج عن نطاق التجسس البشرى . أما التجرد الذى نلمسه فى الفنين المغولى والراجبوتى فهو وليـد عوامل التبسيط والتحديد . وفى حين أن الواحـد فاتن فى نشائه فان الآخر هادئ ثابت على أنه يستمد هدوءه من فيض نشوه الماضى .

إن الموسيقى الكلاسيكية فى جنوبى الهند لتعيد إلى الذاكرة كل مراحل التطور للعابد القائمة هناك . فان متانة بنائها ووفرة تفاصيلها وانطباعها بطابع خاص أكسبها ذاتية تميزها

روعة على روعة اعتماد الفنانين على قاعدة الخط المستقيم كوسيلة للتعبير عن حدة الحياة وازدحامها ووحدتها. وعلى ذلك فإن هذه الصور والرسوم لا تخرج كونها عرضا حسيا لبديهية الوحدة الكامنة وراء كل الظاهرات.

أما التحول نحو الدقـــة الحادة التى تميز الرسم المغولى والراجبوتى. فكأنه يتكلم عن نفسه، على أن المهم فى هذا التحول أنه جاء طبيعيا ومتسلسلا. إن الفن الذى نقله « بابر » وأحفاده معهم إلى الهند، استمد إلهامه، من ذاتية عنيفة حادة. فهو لم يعن بالازدحام أو الشعب، وقلما ما اهتم بتعبير فكر مركب. فكان ينظر إلى الأشياء من زاوية واضحة وخلاصة محددة. ومن خصائصـــه أنه يقوم بتمحيص وتدقيق جميع التفاصيل المتصلة بموضوعه ويتعب فى إتقانها. ولما كان هذا الفن قد ولد ونما فى بلاط « جنكيز »[1] و « تيمور »[2] فلم يكتب له أن يكون ناعما أو عاطفيا. وكان يتحسس بدوافع الحياة وحيويتها قويا شديدا فراح يعبر عن عنفها العاطفى فيما رسمه. والواقع أنه بلغ شأنا يذكر فى إبراز ذاتيته وطابعه الفردى. وعلى هذا فقد تحول

1 Chengiz 2 Timur

الحضارة. وواقع الحال أن الحياة تكتسب معانى جديدة من التسامى والتفوق حينما يتسنى للعقليات الممثلة فى هذه المبادئ أن تدمج معا لخلق فلسفة وثقافة جديدتين. إن الأساليب الفنية الهندوكية والعربية قد زودتنا بالمادة الكافية التى يخلق منها فلسفة وثقافة عميقة خالدة.

عن غيرها . أما الموسيقى فى الشمال فتختلف عن مثيلاتها فى الجنوب اختلافا كليا . فقد استعاضت عن طابع المتانة بجمال الخفة . وبدلا من وفرة التفاصيل وغزارتها ، تنعم بعامل الانسجام والاحكام . وهناك اتجاهان مختلفان متناقضان يتحكمان فى عالم الفنون ويسيطران عليه . أما الاتجاه الأول فيهدف إلى تأمين عوامل الزخرفة والتصعيد والروعة ، فى حين أن الآخر يتوخى عوامل البساطة والتوفير والاتزان . وفيما نرى أن الواحد يسعى للتأثير فى وفرة الشكل وكثرة الثروة المادية الغزيرة فيه ، فان الآخر يعمد إلى التأثير عن طريق الاقتصاد فى المادة والاجمال فى التعبير . وبينما الأول يمضى فى تجاربه الجمالية إلى أقصى حدودها ويسعى للتعبير عن كل شيء ، فان الآخر يترك معظم القسم غير معبر عنه الآخر ويعتمد على شتى الرموز للتعبير عن نفسه . وبمعنى آخر فان الأول يعتمد على وفرة إنتاجه وثرائه ، والآخر يخلق أجواء رحبة لطاق كل خيال .

إن هذين الطرازين فى التعبير يمثلان مبدأين متلازمين فى ميادين الحياة . وإننا نشاهد الفن يبلغ أقصى درجات الكمال والاتقان عندما يتوفر التوازن بين التيارات التخيلية والفنية

هـذا التنسيق من قيام هندسة معمارية هندية. ولعل ترانيم وأناشيد « فيشناڤا »[1] في إقليم البنغال توفران لنا دليلا آخر على عمليات الامتصاص والتأليف. والمعروف أن العوامل الضرورية لقيام فن رفيع كانت تتوفر لاقليم البنغال منذ القدم، وقد قام الاسلام لدى دخوله إلى الهند بعملية تفاعل كيماوى فدمج هذه العناصر المختلفة وصهرها وخلق منها ترانيم « ويشناڤ ».

ولا مشاحة أن أشعار « فيشناڤا » جاءت معجزة من معجزات هذا التنسيق، لأنها جمعت بين عقلية نشيطة وثابة وفلسفة مستكينة مستسلمة تقوم على الوهم. إن الروحانية التي كثيرا ما تعتبر الطابع المميز للعقلية الهندوكية، تقوم فيما تقوم عليه على الاستسلام والاستكانة. ولا مندوحة للمرأ من أن يسلم بأن اتصال الاسلام بالهندوكية في بادئ الأمر أحدث ثورة في نفوس الهنادكة. على أن هذه الثورة تلاشت، لتحل محلها الاستسلام والهزيمـة. وهي التي تتجلى لنا بشعور عدم المبالاة بالدنيا والاهتمام بها. وقد هدف رد الفعل القائم على التجرد إلى تمجيد الروح عن طريق التقليل من أهمية المادة.

1 Vishnava.

٣ - وجهات النظر

لقد سبق لنا أن بينا أن عمليات الاتصال والاندماج التى تمت بين الثقافتين الهندوكية والاسلامية فى جنوبى الهند قد أدت إلى قيام فلسفة جديدة. ولا غرابة أن يكون الميادين الفكرية هى أول من تأثر بهذا التصادم. المعرفة فى بداية الأمر تجذب العقل أكثر من القلب. والحقائق التى يتقبلها العقل لا تحدث انقلابا عاجلا فى سيرة الانسان. بل توجد هناك فترة زمنية مابين تسليم العقل بالحقائق واستيعاب العاطفة لها. على أنه حينما ترسب حقيقة من الحقائق فى العقل الواعى، فانها تأخذ فى توجيه مشاعرنا وعواطفنا، وتؤدى بالتالى إلى محاولات وتجارب جديدة فى عالم الفن. وحيث أن هذا التطور يحتاج إلى اتصال متقارب وطويل، نجد أن الفن الهندى العربى ترعرع فى الجنوب على الخصوص.

كنا قد ألمعنا فى فصل سابق إلى عمليات التنسيق التى وقعت بين طرازى الفن المعمارى الهندوكى والاسلامى، وما نشأ عن

بالنسبة إلى ضوابط الثقافة التي وجدت في البلاد قبل العهد الاسلامي. ذلك أن الاهتمام بالذات المطلق جعل الشعب لا يحفل بالفوارق المادية. ولذا فإن ذلك النفر الذين حكم المجتمع عليهم بالشقاء في دنياهم رضوا بمصيرهم المحتوم. وعندنا أن عقلية حرمان النفس هذه هي من الأسباب التي أقعدت الهنود عن الثورة ضد الجور والظلم الاجتماعي. كل إنسان خليقة براهمان١. وحيث أن براهمان هو الذات المطلق فلا مكان ولا زمان ولا صورة له. فأصبح من الممكن أن يهمل أو يعلل ازدياد الفرد في دار الفناء هذه بأنه خيالي ولا يبقى له أثر حينما تنتهي هذه الحياة الدنيوية.

ومن تأثير الاسلام على فلسفة التجرد وحرمان النفس هذه أنه هزها من أسسها. ذلك أن الاسلام عنى عناية مبدئية بالأمور الدنيوية وأنه عادل تماما بين أهمية الدنيا والدين. أضف إلى ذلك، أنه حمل في طياته رسالة فعالة تقوم على الديمقراطية الاجتماعية التي لم تكن مقاومتها في وسع القسم الأعظم من الأنظمة والحضارات الاجتماعية أو السياسية السائدة وعلم الناس أن

1 Brahman

على أن هذا، حمل الشعب الهندوكى على تناسى الأمجاد التى حققها السلف فى الأمور الدنيوية .

وإنه لمن النادر حقا أن نعثر فى هذه الأيام على سجلات حول تقاليد الروعة الملوكية الهندية وبهائها . ذلك إن موضوع التوسع والفتوحات الهندية أصبح مجرد مادة للأساطير . وآية ذلك أن النشاط المتعدد النواحى الذى كان يرهق العقلية البشرية، وهو من خصائص الحياة فى الهند القديمة ما لبث فى القرون الوسطى أن تحول إلى نوع من التجرد والتقشف الهذيل . على أن هذا ليس بالمستغرب ، فان العقلية الميالة للتجرد هى طبيعة ملازمة للسيطرة والفتوحات الأجنبية . بدلالة أن المجتمع الاسلامى الذى يعتبر مبدئيا مناهضا للتجرد وحرمان النفس ما لبث بعد احتلال البريطانيين للهند أن اكتسب هاتين الميزتين . وقد عمد إلى ترويج مبدأ الأجر والثواب فى حياة الآخرة لتغطية خيبة الأمل والهزيمة فى الدنيا . كما أخذ الناس يمنون أنفسهم بسعادة الآخرة تعزية وسلوانا لهم عن نكبات دار المحن التى كانت تحل بهم يوميا .

إن روح التجرد وحرمان النفس كان لها فوائدها الاجتماعية

والدعامة لهذه المغامرة. فكلما كانت هذه المغامرة أكثر جرأة كان هـذا النشاط أو الحيوية أشد صفاء ونقاء. ومن شأن هذا النشاط أنه يحرر نفسه عادة من قيود الهدف. ويعتبر عن لذات الحياة بحد ذاتها. كما أن مظاهر هذه الحيوية المطلقة المتحررة التي لا تعرف القيود لا تخرج عن كونهـا مجرد لهو وعبث.

إن كل المحاولات لحلل المحبة تنتهي بنا إلى نتيجة واحدة هي أنها نوع من اللهو والعبث. وقد عبر «فيشنافا» عن هذه الفكرة «لي لا»[1] التي تمثل الروح الحائرة غير المستقرة في عيثها ولهوها. وهذا يمثل الحيوية والنشاط في أقصى معـاني صفائهـا ونقائها. على أننا من ناحية أخرى نلمس في «لي لا» أثرا من آثار الاستكانة الفكرية القديمة. ونجد خلال الأحاسيس والمشاعر المتنوعة، أن الشاعر يعتبر دائما الشيء السلبي للحب. فهو المشوق في جميع الحـالات لا يقوم بدور العاشق ولو مرة واحدة. وقد يبدو في بادئ الأمر أن هذا الموقف لا مفر منـه، نظرا لأن علاقة الروح البشرية بالحقيقة النهائية تقوم

1 Leela

يلمسوا الاخاء والمساواة فى المعيشة اليومية وأنه لا يمكن رفعها إلى مستقبل بعيد فى الآخرة . لقد كان الدين الاسلامى الحنيف قوة جبارة حطمت جميع القيود والعادات التى كانت تغل العقل البشرى . وقد تجاوب مع رسالته السامية المحروم والمظلوم وتعاونوا على نصرتها . وبفضل رسالة حرية الفرد هذه فى حياته اليومية ، تقدم الاسلام بالسرعة وبالقوة العنيفة .

وإننا لنلمس فى أسفار « فيشنافا » البنغالية مثلا رائعا على هذا الصراع وقوة تصميمه . أما هدف هذه الأشعار الرئيسى فهو المحبة . ونظرتها إلى المحبة ، فهى تعبير سام لما تحقق من اندماج . فالمحبة ليست مجرد حالة مادية أو عقلية ، كما أنها ليست مجرد شعور ، بل هى مزيج من دوافع ورغبات ملحة حادة من العقل والجسم . وهى تمثل قوة الابتكار عند المجتمع أو الأفراد . وقد عجز أصحاب المذهب المطلق أن يجدوا لها تفسيرا وتعليلا ، وأما ذلك الفكر الذى يسعى لتعليلها على اعتبار أنها مجرد ضرورة بيولوجية فقد ضل السبيل . ولعل أحسن وسيلة لتفهمها تنحصر فى النظر إليها كمغامرة يقوم بها الفرد من واقع ماضيه وحاضره نحو مستقبل غامض . على أن الحيوية والنشاط هما الأساس

سفسطائية . ومثل هذه النظرية لا تفسح مجالا كبيرا للتأكيد الذاتية ونموها ، وتجعل الشعور بالفوارق بين الأفراد خفيفا . ولعل الفلسفة السفسطائية تفسر لنا قوة التحمل عند الانسان وصبره على الاهانة وعدم المساواة . وعندنا أن الايمان بنظرية بعث الانسان بعد موته هو نتيجة مباشرة لهذا النوع من التفكير ، وبينما تنكر نظرية البعث التقدم من ناحية ، فهى من ناحية أخرى تمحو الفوارق الدنيوية بتأكيدها وإقرارها لوحدة المخلوقات الحية وتساويها . إن نظرية كهذه تساوى بين البشر والحشرات والطيور لا يمكن لها أن تحفل بتقدم الانسان أو تفوقه على غيره من المخلوقات . أما الاسلام فقد أصر على هذا التفوق وألح فيه ، وأكد أن الانسان هو سيد المخلوقات . فانه يسلم وجهه لسيطرة الله فقط . وقد ردد فيشاقا هذه الفكرة فى أشعاره عندما أكد أن الانسان هو الحقيقة العليا التى لا يعلو عليها أى شىء آخر .

أحطنا القارىء علما فيما سبق بالدور الذى لعبه رواة القصص والشعراء المتجولون فى نشر الثقافة فى الهند القديمة . ولعل دورهم هذا يفسر لنا وفرة الفلسفة بين مختلف الطبقات

على الاستسلام والخضوع . ولكن هذه النظرية قائمة على الوهم، وما تحسه التجربة العامة هى أنه لا بد للروح البشرية أن تسير على نفس الطريقــة فى طلب اللامتناهى . وأما من وجهة نظر العقل السليم فهذا الطلب ينحصر على الرمز ويقوم على أساس مجازى . وعندما يتجرد هذا السعى من طبيعته الرمزية ويصبح الحقيقــة الوحيدة للروح . فانا نبلغ تلك الرتبة التى لا يمكن معها التمييز بين التابع والمتبوع . ولا يعود السعى معها مقيدا بالاعتبارات المطقية القائلة بخضوع الروح البشرية ووقوعها تحت حصر التعيين والتحديد . وفى هذه الحالة تنعدم الفوارق بين العاشق والمعشوق . أما فى أشعار « فيشنافا » فان هــذه الفوارق قائمة مستمرة مما يثبت أن فلسفة الوهم لم يكن قد تم التغلب عليها بعد . ومن الناحية الأخرى ، فان اهتمام الشاعر يتركز فى المحبة المجسمة فى « لى لا » ، أو النشاط الخالص . وفى هذا ما يقوض أركان النظرية القدرية للحقيقة .

ويعتبر هذا الاندماج نتيجة للتنسيق الذى وقع بين وجهة النظر الاسلامية والهدوكية فى التطلع إلى الحياة . إن المظاهر التى سبقت العهــد الاسلامى قد اصطبغت بطابع من فلسفة

لأنها من المواضع الجافة . والمعجزات نفسها ما يلبث الذوق أن يمجها ويعافها إذا لم يلازمها لون من الطرافة والملاحة كغطاء على اللب الدينى . أما الأساطير الهندوكية فحافلة بالمغامرات والمواعظ والمؤامرات وحوادث الخيانة والغدر والوفاء وغيرها من صفات متضادة ملازمة للطبيعة البشرية المعقدة . على أن راوى القصص المسلم لم يكن ليعتريه اليأس أو يتسرب إلى نفسه الوهن لقلة ما يتوفر من المواد الأسطورية فى الآداب الاسلامية . فأطلق العنان لقريحته لتخترع وتبتكر ماشاء له الخيال .

ربما كان « أكبر » كشأنه فى الميادين الأخرى أول من قام بتجربة منظمة فى هذا المضمار . وقد تكون هذه التجربة قد بدأت قبل عهده ولعل الواقع كذلك . ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن المبتكر قلما يكون مجددا فى الواقع . فهو فى غالب الأحيان ذلك الرجل الذى ينجح حيث يخفق الآخرون ممن سبقوه إلى ذلك . ومهما كان الأمر فيقولون إن أكبر كان أول من كلف نديمه « بيربل »[1] بوضع نسخة إسلامية عن ملحمة المهابهارتا . وكلنا لعلنا نعرف النتيجة المتطرفة المهزلة . فالمعروف

1 Birbal

الاجتماعية. ومن القرائن التى تقيم البرهان على سلطانهم ونفوذهم انتشار الآداب «البنتية» خلال العهد الاسلامى. وما كان راوى القصص بين الهادكة لتعوزه أو تنقصه المواد اللازمة لقصصه. ذلك أن كان يعتمد فى مصادره على ملحمتى الراماثا والمهابهارت والأساطير البورانية[1] لابتهاج الناس وتسليتهم وتهذيبهم. وهذه فى الواقع، هى الطريقة التى تم فيها تبسيط تعاليم الديانة الهندوكية، وتمكين الجماهير من استهلاكها، وتنفيذها بين سواد الشعب. وبفضل ما درج عليه راوى القصص من تصوير أبطال الأساطير الهندوكية ووقائعها، أصبحت هذه من المواضيع المتداولة فى اتصالاتهم الاجتماعية أو الثقافية المعتادة بين جمهرة الشعب.

وكان راوى القصص المسلم أقل حظا، نظرا لندرة الأساطير والقصص فى الدين الاسلامى الفطرى. وطبيعى أنه كان فى مقدوره أن يروى قصصا تهذيبية، ولكن الرجل العادى لا يجد كبير عزاء وتسلية فى الأدب الذى يهذب فقط. أما الاعتماد على التعليم الدينى والوعظ فلم يكن مستحسنا نظرا

1 Puranic

اسطورياً وحشدوا فى شخصـه الأدوار التى مثلها « بهيما »[1] و « أرجونا »[2]، وذهبوا فى تقاليدهم للرواة الهادكة حدا جعلهم يبتكرون شخصية جديدة تعادل شخصية « هانومان »[3]. ولما كان هذا القرد الاله وهو الذى عرف بوفائه وإخلاصه لراما طول حياته وقد خلدته الأساطير لوثبته الجبارة التى قبل أنه عبر بها البحار ليشعل النار، فيما بعد، فى قلعة « لكا ». فان رواة القصص المسلمين جعلوا الشخصية الجديدة التى ابتكروها « الأمير أمية » تحاكى « هانومان » فى شجاعته فنسبوا إليها أنها عبرت البحار بقفزة واحدة، وأضفوا عليها ضروبا فى الفروسية النادرة. ويلاحظ حتى فى يومنا هذا أن الآداب « البنتية »[4] بما تحتويه من روايات البطولة والضحك، تحتل بين سكان القرى نفس المكانة المرموقة، وتمثل نفس الدور الذى تمثله « الراماينا » والمهابهارتا، و « البورانا » فى طبقات مماثلة بين الهادكة.

أما المحور الدينى لهذه القصص فهو نفسه فى مختلف أرجاء البلاد، وإن كانت مادته تختلف باختلاف الأقاليم. وعلى نفس النحو الذى ذهبت فيه الأشعار السكسونية القديمة إلى تصوير

1 Bhima 2 Arjuna 3 Hanuman 4 Panthi

أن بيربل، بعد أن استفاد وتمتع بما أغدقه عليه الامبراطور من عطاء لقيامه بهذه المهمة، جابهه يوما بسؤال قضى على هذا المشروع كلياً. وكان هذا السؤال «إن المهابهارت قد نسبت إلى «دروپادى»[1] بأنها تزوجت من خمسة رجال. فكم من الأزواج يقبل أكبر لزوجته الملكة فى المهابهارت الجديدة؟ ومن من ندمائه سيحظى بهذا الشرف؟»

وقد تكون هذه الرواية من نسيج الخيال وفى الغالب هى كذلك. وكم من خيال يخفى فى طياته كثيرا من الحقائق. ولكنها رواية تعطينا فكرة من عملية واقعية كانت دائمة الاستمرار. ولا بد أن المسلمين شعروا من ناحيتهم بضرورة الاتصال بالهندوكية فى عرينها. ولما كانت مهمة راوى القصص من الأهمية والتأثير بمكان. فسرعان ما انبرى القصاصون المسلمون والواعظون إلى امتهان هذه الحرفة منافسة لزملائهم الهنادكة فى هذا الميدان. وإن تغنى الهندوك بمواقف «رام» و «لكشمن» الغرامية ويعتزون بإخلاص بعضهم الخالص لبعض، فأخذ المسلم يتغنى بمآثر الأمير حنيفة وهو الأخ الأسطورى لحسن وحسين. وأصبح «على» بطلا

1 Draupadi

الخاصة. ولعل هذا ما يفسر تردد لفظة الرحلات فى الأغانى الشعبية فى البنغال الشرقية وتكرارها. فبطل القصة هناك تاجر أكثر منه ملكا. هذا رغما عن أن الأساطير فى أغلبية الأقاليم الأخرى فى الهند تدور وقائعها حول أمير من الأمراء أو فارس من الفرسان. وكانت ولاية ججرات هى الوحيدة التى شذت عن هذه القاعدة. ولكن شذوذها هذا له أسبابه ودوافعه المثيرة. فقد تروى هذه القصص قصة أمراء من التجار حشدوا سفنهم، وركبوا البحار طلبا للتجارة. وتتحدث عن مغامراتهم فى البحار وعبر البحار فى البر، ومصير الزوجات والبنات اللواتى خلفوهم وراءهم، وتتحدث أيضا عن ثروة مفاجئة هبطت عليهم أو نكبة مالية حلت بهم، والراوى فى كل ذلك حر يتلاعب بمشاعر مستمعيه كما يشاء. فهو تارة يشبع فى نفوسهم أقصى درجات الأمل وتارة أخرى يطوح بهم إلى هوة سحيقة من اليأس والقنوط. وكثيرا ما يوفق إلى حمل هؤلاء القرويين الذين ما عرف عنهم أنهم غادروا قراهم قط أن يتلذذوا ويستمتعوا بنبذ المغامرات البحرية.

وأحيانا يمثل هذا الراوى دور المؤرخ للعادات المعاصرة،

المسيح — على أنه فارس مغوار يهتز بالقتال كغاية فى حد ذاتها، فكذلك الحال فى الهند، نجد فيها الأبطال الأسطورية تتغير صفاتهم باختلاف الأقاليم. ولعل العبارة أن صفاتهم كانت تتغير غلو فى الكلام. فالحقيقة أن الهيكل العام لهذه القصص يبقى هو نفسه بغير تغيير إلا بعض الصبغة التى تهدف إلى البطل مثلا وجهة النظر المحلية. ولعل هذا ما يجعل صورة « راما » كما رسمتها الأسفار الشعبية البنغالية تختلف عن مثيلتها التى رسمها « تلسى داس »[1]. وكذلك الحال فى كرشنا، فهو حسب ما صوره البنغاليون عصارة انتزعت من صميم البنغال. ويلاحظ نفس الاتجاه نحو الاقليمية بالنسبة إلى أبطال القصص الشعبية عند المسلمين. فالأمير حمزة الذى تحدث عنه القصص الشعبية البنغالية شخصية انتزعت من صميم البيئة البنغالية.

على أن أوجه التشابه بين القصص الشعبية فى مختلف الأقاليم فى طرافتها لا تجارى من أوجه التباين القائم بينها. ذلك أن الأخيرة تعكس التاريخ الاجتماعى الخاص لكل اقليم من الأقاليم وتكشف لنا عن العادات والتقاليد التى نشأت فى أجوائها وظروفها

1 Tulsidas

حيتين . فقد ينجم هذا الاتصال عن مولود يجمع بين ميزات وطبائع الوالدين . وهو مع هذا فرد فريد . والذى يحدث أن التيارين ينصهران معا كليا ، ولا يمكن لأى عنصر أن يبقى على حاله فى المركب الجديد .

وهذا ما حدث بالفعل فى التطور الثقافى فى الهند خلال العصور الوسطى ، فان القيم القديمة قد تلقحت بقيم جديدة ، كما أن روحا جديدة تسربت إلى المواضيع القديمة . لقد تعرضنا فى ناحية أخرى من هذا الكتاب إلى التغييرات التى طرأت على وجهات النظر العقلية والانجازات فى ميادين الفن والهندسة المعمارية والشعر ، على أننا فى ذلك لم نستعرض الموضوع من جميع نواحيه . ذلك لأن قصة التنسيق والاندماج تتكرر فى جميع نواحى الحياة . وغنى عن القول أن قيام لغة جديدة من اللغات تتطلب وحدها دراستها طول العمر . وعندنا أن التغييرات التى طرأت على فنون الموسيقى والرسم الهندية ، تشكل موضوعا طريفا لمثل هذه الدراسة والتحليل .

إن الاتجاه نحو التنسيق ليس من الأمور الحديثة العهد . ذلك أنه كان من العوامل المميزة للثقافة الهندية القديمة على

إذ ليس بخاف أن التأثيرات الاجتماعية التى أحدثها الفتح الاسلامى لم تقتصر على العواصم أو الدوائر العسكرية أو الطبقات الاستقراطية . فان القرى بدورها قد تعرضت إلى أحوال مثيرة محرجة ، فما كان من الراوى إلا أن استغل هذه الأحداث لمصلحته ، وراح يعمل فيها يدى التكييف والتهذيب لتلائم الأوضاع والأغراض التى يريدها ، فكان يعمد أحيانا إلى شن الحروب مجددا بين أبطال أساطيره ويكسبها أهمية خاصة بما يضفيه عليها من أحداث ووقائع جديدة . وأحيانا نجده يتخذ مواضيع دينية فسلط عليها أضواء من فنه لتصبح أشد تمشيا مع مقتضيات العصر وضمخت العادات المتغيرة بطريقة الفنون الخالدة .

لمحنا فيما سبق إلى تفاعل العناصر الهندوكية والاسلامية فى تطور الثقافة الهندية . ونظرا لطبيعة الحال فاننا لم نأت على وصف كامل واف لهذا التفاعل . والمعروف أنه عندما يتصادم تياران عنيفان ، فليس هناك من مجال لهذا أو ذاك التيار أن يبتلع الآخر . وجل ما يحدث أنهما ليندمجان معا ليخلقا تيارا جديدا . ومن الصعب أن نقرر مدى مساهمة كل منهما فى بعث التيار الجديد . وتتكرر العملية نفسها حيثما يتم الاتصال بين مادتين

الخمير العصرى

إن قدرة الهضم والتنسيق لازمت الروح الهندية وميزتها خلال العصور المختلفة التى مرت بها. وقد شاهدنا أثرها وعملها فى الأفكار الدينية والمؤسسات الاجتماعية فى الهند القديمة، وهى تتجلى بنفس القوة فى الجهود المتواصلة التى هدفت إلى الوفاق بين الاتجاهات المختلفة التى قامت فى العصور الوسطى. فالمعروف أن حضارات متباينة التاريخ والأسس وضعت للصهر فى بوتقة مشتركة واحدة. وقد تضافرت عبقريات الثقافات المتضاربة واتحدت فبعثت إلى حيز الوجود طرازا ثمينا جامعا فى غاية من الجمال. وقبل أن يكتمل الطراز تعرض إلى تاثير عناصر جديدة جاءت من ناحية غير مؤملة. وواقع الحال أن العالم قد عبر مرحلة تاريخية جديدة عندما بدأت الأمم الاوربية البحرية تظهر على مسرح السياسية الهندية.

ولعل أهم العوامل المميزة للعصر الحديث هو استخدام الانسان المتزايد للعلوم بقصد التغلب على قوى الطبيعة. ولقد ابتدأت هذه

السواء. وكانت عمليات التنسيق والتوحيد ميسورة ممكنة فى العصور الوسطى فى الهند نظرا لحيوية وفعالية الثقافات التى ساهمت فى فنها. وبديهى أن العناصر غير الحية لا يمكن لها أن تتفاعل أو تندمج معا، مهما كان الاتصال بينهما وثيقا. ذلك لأن المواد أو العناصر الحية هى وحدها قمينة بالتفاعل وخلق وحدة جديدة. يستخرج من كل هذا أن المغامرة التى قامت بها الروح البشرية فى هذه الأرض القديمة منذ آلاف السنين ما زالت مستمرة لم تتوقف. ويلاحظ أن الثقافة الهندية خلال هذا العهد القديم قد تعرضت إلى تغييرات هامة. وكانت كلما اصطدمت بثقافة أجنبية مزدهرة امتصتها، فازدادت بذلك ثراء على ثراء. على أن قصة التنسيق الثقافى لم تدخل بعد فى مرحلتها النهائية، فان عملية التنسيق مستمرة متصلة حتى يومنا هذا. ومن المقدر لها أن تحقق نتائج أجدى فى ميدان التفكير البشرى بفضل تغلب الانسان على حواجز الزمن والمسافات. وصفوة القول، فان مقدرة الثقافة الهندية واستعدادها للتجدد والنمو اللانهائى هما السر الكامن وراء وحدتها واستمرارها.

تم بموجبه اقتحام هذه القوى لها وإمعانها فى تأكيد هذا التحول وإبرازه، كان جديدا فى بابه. ذلك أن اتصالاتها السابقة بالعالم الخارجى جاءت عبر الطرق البرية، فالأجناس والقبائل التى اجتاحتها إنما تمكنت من شق طريقها إليها عبر الطرق البرية، وكذلك فان الامبراطوريات التى أقامتها كانت، باستثناء فترة وجيزة من التوسع ماوراء البحار، اعتمدت على الطرق البرية. وواقع الحال أن حكامها وأباطرتها قلما فكروا أو أدركوا أهمية القوة البحرية. ولا عجب، والحالة هذه، أنها لم تقو على الصمود أمام أوربا عند ما بعثت هذه بأساطيلها وقذفت بها إلى شواطئها غير الحصينة.

لقد سبق للهند أن تعرضت إلى عدة غزوات وتمكنت بدورها من التغلب على الشعوب والأفكار الجديدة التى تحدتها، وما إن أفاقت الهند من غمرة هذه الهزات حتى انبرت لهضم وامتصاص القوى الجديدة التى جرها الأوربيون المغيرون فى أذيالهم، ولعل التغير الذى يسيطر على النواحى المختلفة من حياتها فى الوقت الحاضر يقيم البرهان على الجهود التى بذلتها فى هذا السبيل. والهند من ناحيتها تدرك الحقيقة أن الثقافات

العملية حوالى القرن السابع عشر وأخذت تنمو وتتطور بسرعة فائقة على مر السنين . وتمكن الانسان إلى حد كبير من التغلب على حواجز المسافات والعوائق المادية ، وذلل أنواعا جديدة من القوى لخدمة أغراضه ومصالحه . والواقع أن النجاح الذى صادفه فى هذا الصدد قد خلق أوضاعا وأحوالا جديدة فى حياة البشر . وقد كان التاريخ فى الماضى مقتصرا على الأوضاع المحلية ، لأن صعوبة المواصلات كانت تحول دون تنقل الأفراد وتسرب الأفكار ، مما ترك الثقافات المحلية تنمو فى جو من العزلة . أما اليوم فقد تبدلت الأحوال وأصبحت مثل هذه العزلة مستحيلة . فكل ثقافة من الثقافات ومنطقة من المناطق لا مندوحة لها من أن تتأثر بغيرها وتؤثر فيها كل ثقافة ومنطقة أخرى .

ولم يكن من مفر للهند الحديثة أن تصبح مركزاً لتفاعل القوى والعوامل المتعددة . وقد تسنى لها بفضل العلم تغيير الأوضاع والأحوال القديمة ، وإن كانت هذه الأوضاع جنبت الهند فى السابق كثيرا من المتاعب لانعزالها جغرافيا ووقوعها فى إحدى زوايا القارة الأوروبية الآسيوية .[1] والأسلوب الذى

1 Eurasian

١ - فى بوتقة العصور

حينما ظهر الأوربيون على مسرح السياسة الهندية كان الصراع القائم بين القوى المختلفة فيها قد اكتسب توازنا موقتا. وان طقوس العبادة التى كان يمارسها رجال الدين والمتصوفون اتخذ يهدف للتأليف والتوفيق فى اتجاه معين، والتخفيف فى وطأة القيود الناشئة عن نظام الطبقات يعكس نفس المحاولات فى اتجاه آخر. وكذلك فان الاستقرار الاقتصادى والسياسى الذى نعمت به البلاد فى ظل الحكم المغولى الزاهر لما يقيم البرهان على ما حققته الهند أيضا من توازن فى هذين الميدانين.

ولكن هذا التوازن لم يكتسب له الاستقرار، لأن طبيعة الأحوال لا تمكن لعمليات التنسيق أن تكتمل أدوار نموها. والمألوف المعتاد عند إدخال عنصر جديد أو وقوع تبدل نسبي فى أهمية العناصر الموجودة أن يقع اخلال فى التوازن — الأمر الذى يطبع الانقلابات الناشئة عنه بطابع ثورى. ويعتبر ظهور الأوربيين فى القارة الهندية حدثا من الأحداث العظيمة. لا لأن الأوربيين

المختلفة بشتى أفكارها ومبادئها وأنواعها قد تقاربت فى العالم العصرى إلى حد وعلى وجه لم يعد لها معه إلا أن تتخير بين أمرين، فاما أن تتعايش مع الجميع، وإما أن تتلاقى مصير الجميع من الدمار بسبب الزيادة المريعة فى أسلحة الدمار. إن تاريخ الهند الحديثة هو سجل للجهود التى تبذلها من جديد لخلق الوحدة من التباين والاختلاف وتحقيق تنسق انفسها والعالم أجمع.

المحتمل أن هذه الشعوب الدخيلة كانت وقد أحدثت بعض التغيير والتبديل فى الهند . إلا أن المجموعة الهندية بقيت سليمــة لم تتحول أو تتبدل ، وقد وجدت هذه الشعوب الدخيلة نفسها مع مرور الزمن تذوب وتفقد ذاتيتها فى محيط الهند البشرى . وكان المسلمون هم الذين انفردوا من بين هــذه الشعوب المغيرة فى مقاومة تيارات الامتصاص الهندوكية. إلا أنهم لم ينجوا من تأثيرات الثقافة الهندوكية — الأمر الذى جعلهم بالتالى يختلفون عن بقية العالم الاسلامى . وقد نسلم بأنهم قد أثروا على نمط الحياة الهندوكية ، ولكن هذا التأثير اقتصر بصورة كلية على سكان المدن من الهنادكة ، لأن الحياة الريفية فى الهند بقيت تسير على الأساليب القديمــة التى قلما طرأ عليها أى تغيير .

على أن مجىء الأوربيين إلى الهند قد بعث فيها ظروفا وأحوالا جديدة ، ولم يرو عن هؤلاء الأوربيين أنهم كانوا يعتزمون استيطان البلاد . ومع أن بعضهم قد بهرته روعة الحضارة الهندية ولكنهم سرعان ما حصنوا أنفسهم ضد تأثيراتها . وبقوا بمحض إرادتهم كأخلاء أجانب ، وآثروا أن ينظموا حياتهم على النظم المعروفة فى بلادهم . وكانت هذه أول مرة تصطدم فيها الهند

ينقلون معهم إلى خزان الهند البشرى عناصر جديدة فحسب، بل لما أحدثه ظهورهم من إخلال فى قوى المجتمع الهندى . فقد نجم عن قدومهم انطلاق القوى الجبارة المغلولة التى تجمعت خلال قرون من الصراع والتنسيق . وكما يبدأ انهيار الثلج من الجبال بسبب سقوط الحجر الأخير، بدأت الأحوال تتغير ولم يتم تغييره فلا يتسنى لأحد أن يعرف نتائجها .

وكانت الطبيعة الهندية كلما اصطدمت بغارة جديدة سواء كانت عنصرية أم فكرية، ازدادت مرونة على مرونة، ولعل هذا يفسر مقدرتها على أن تمتص فى عملية تنسيق واحدة عددا من المذاهب والمعتقدات والعادات ووجهات النظر المختلفة . على أن تأثير الغرب عليها اختلف من جهات مهمة عن تأثيرات الغارات السابقة التى تعرضت إليها، وكانت الأفكار والمؤسسات التى تسربت إليها قبل دخول الأوربيين قد جاءتها عن طريق الشعوب التى قدمت إليها للاستيطان فيها . ومع أن هؤلاء وقفوا موقف المعارضة من كثير من العناصر التى جابهتهم فى الهند، إلا ان مقاومتهم هذه سرعان ما خفت ووهنت تحت تأثير غزارة سكان وقوة استمرار ورسوخ تقاليد الهند وعاداتها . ومن

العمالة. ومن سخرية القدر أن ذلك النفر من الأوربيين الذين أموا البلاد الهندية تحت تأثير الاغراء التجارى، مكثوا فيها وأقاموا ليحكموها، ويلاحظ أن العلاقات السياسية اقتحمت العلاقات الاقتصادية وطغت عليها. وإنه ليس من الممكن تجريد العلاقات الاقتصاديه المحضة عن نواحيها الانسانية بصورة قاطعة وعندما تتعزز العلاقات الاقتصادية بالروابط السياسية يغدو من المتعذر قصر التعامل على النواحى المادية.

وكانت الهند عندما أمها الأوربيون بحكم توسعهم التجارى تنفض عن نفسها غبار مرحلة من مراحل الاقتصاد الريفى، فقد كانت العائلة إلى ذلك الحين المحور الذى تدور حوله حياتها. وحتى يومنا هذا فان التفاعل الاجتماعى فى الهند يدور ويتركز إما فى الفرد أو العائلة. ومع أن الهنود فرادى يعتبرون من ألطف الشعوب فى العالم، إلا أن آرائهم حول النظافة الاجتماعيــة مدعاة للرثاء. فهم عــلى شدة اهتمامهم بنظافتهم قلما يشعرون بقذارة البيئة التى يعيشون فيها. وفى مثل هذا الجو من الأنانية والشعور بالذات بدأ الغربيون يتدفقون على البلاد برأسماليتهم المتزايدة وما لازمها من وعى اجتماعى معقد.

بحضارة آثرت العزلة والانطواء. وفى حين أن الأوربيين كانوا على استعداد ليقدموا ويعطوا دون أن يأخذوا وينقلوا، فان الهنود من ناحيتهم وإن لم يهدفوا للتأثير على أحد، إلا أنهم كانوا ينفرون من أية محاولة للتأثير عليهم. وبدا كأن حضارتين مغلقتين قد ظهرتا على التربة الهندية. ومع ذلك فان انعدام العلاقة بين شيئين هو فى حد ذاته إيذان بقيام علاقة ما، ومهما كان الأمر، فان انكماش الشعبين لم يكن كاملا.

وعلى ذلك فان التفاعل بين الغرب والهند كان أمرا لا مفر منه، على أن هذا التفاعل اقتصر فى بادئ الأمر على النواحى المادية. وكانت الاتصالات قليلة إلا فى الميادين التجارية. ولئن تبادل الهنود والأوربيون البضائع، فان الفكرة الطيبة لم تتبادل. على أن هذه الأحوال لا يقدر لها أن تستمر طويلا، على أن الانسان وإن يكن فى فطرته ذا نزعة مادية إلا إنه لا يخلوا من قيم وخصائص أخرى. الاتصالات التى تبدأ عادة عن طريق التعامل المبادى لا تلبث أن تخلف شيئا من الاتصال والتقارب الانسانى، وهذا ما حدث بالفعل مع الأوربيين الذين قدموا إلى الهند. وقد ساعدت المصادفات التاريخية فى هذه

تحقيق غاياتها الاجراآت المتصلة بملكية الأراضى[1] وغير الأملاك واسترجاع الارث[2]. أما الأولى فقد حرمت أكثر العائلات من أصحاب الملكيات من أراضيهم. أما النفر القليل من المسلمين الذين فازوا بجلدهم من الاجراءات الأولى فقد جردوا من كل شىء بفضل التدابير الثانية. وكانت خاتمة الاجراءات الانقلابية الأوامر التى أصدرها « ميكالى »[3] الاستغناء عن اللغة الفارسية وإحلال اللغة الانجليزية محلها. وعلى رواية السير وليم هنتر، أصبح من المتعذر على المسلمين من ذوى المكانة الاجتماعية أن يحصلوا على عمل يرتزقون منه أو يجمعوا ثروة. وهذا الانقلاب لم يقتصر على طائفة من الطوائف أو على ناحية معينة من نواحى الحياة. فقد تعرضت القيم والمعتقدات القديمة بأسرها إلى التغير. كما أصبحت المعتقدات والقيم موضعا للتحدى، ولذلك فان المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تكن بأوفر حظا، فقد أخذت بدورها تتداعى وتنهار بسرعة مدهشة. فوقعت الهند فى عين بوتقة الصهر. والواقع أن الأنظمة الاجتماعية القديمة قد اختلت وقام مقامها أنظمة

1 Permanent Settlement 2 Resemption Proceedings
3 Macaulay

وكان لا مفر لنظام الحياة فى الهند، والحالة هذه أن تتعرض لتغيرات عميقة ذات أثر بعيد. والواقع أن ثورة صامتة غير مرسومة كانت قد اجتاحت المجتمع الهندى خلال القرنين الأخيرين. وكان لانهيار القيود القديمة وتداعيها أن أنكر الناس القيم القديمة. والذى حدث أن المجتمع نفسه قد تغير. وذلك أن أكثر الهيئات الاجتماعية التى كانت مسيطرة فى القرن الثامن عشر قد تقلص ظلها وأصبحت اليوم هملا فى المجتمع. وإذ نسوق مثالا على الانقلاب الاجتماعى الذى وقع نقول إن الطابع الاسلامى كان قبل عام ١٧٧٤ يسيطر على أقاليم البنغال من النواحى الاقتصادية والسياسية والتعليمية. ولقد ذهب «السير وليم هانتر»[١] إلى حد القول بأنه كان من ضرب المستحيل فى ذلك الحين أن تجد مسلما من عائلة معروفة يشكو من الفقر أو البطالة. ولكن تغير كل هذا فى بحر مدة لا تتجاوز السبعين عاما. وكان للسياسة التى سار عليها «وارنج هيستنجس»[٢] من الاستغناء عن موظفى محكمة الدخل المسلمين والاستعاضة عنهم بموظفين هنادكة أن بدأت عمليات الانهيار التى أسرعت فى

1 Sir William Hunter 2 Warren Hastings

هي أقل صلابة أو صرامة من مثيلتها في الجنوب — الأمر الذي يثبت مدى تعرض الأولى للتأثيرات الاسلاميـــة . ولعل أهم أوجه الاختلاف بين هـــذا النظامين الاجتماعيين في الشمال والجنوب تنحصر في موقف كل منهما من نظام الطبقات، على أن عمليات التوفيق لم تات كاملة مستوفية الشروط رغم كل المحاولات التي بذلت في هـــذا الصدد . وقد تضافرت عوامل المسافة وصعوبة التنقل واستحالتها مع صلابة الأنظمـــة الاجتماعية وصرامتهـا للحيلولة دون قيام تنسيق كامل موحـد في مختلف أرجاء البلاد .

وقد تبدلت الأحوال عنـــدما أصبحت التأثيرات المادية والدينية الناشئة عن قدوم الأوربيين ملموسة محسوسة، كما أن وسائل الاختلاط والتـــداول الاجتماعي تعرضت إلى انقلاب طفري . وغدت مناطق البلاد والأراضي وأجزاؤها المختلفة أشد ارتباطا بعضها ببعض . وشهدت البلاد بادرة جديدة من بوادر الضغط الجغرافي والثقافي، وازداد الاختلاط بين الأنواع المختلفة وأصبح أشد مضاء وحدة . وقد درج الناس في الماضي على تغيير مذهبهم دون أن يغيروا شيئا من عاداتهم أو نظام حيـاتهم .

جديدة لم يعرف لها مثيل فى الماضى، وشهدت البلاد انضمام المسيحية الغربية المجاهدة إلى تلك المجموعة الغنية من الديانات الهندية. وانبرى جماعة من رجال الارساليات المسيحية يعملون جادين للتأثير على عقول الناس والتغرير بهم. حيثما أخفقت محاولاتهم لرد الأهلين عن دينهم، والواقع أن الروح الأوربية التى لم تعرف الاستقرار أخضعت كل ما جاء فى طريقها إلى عملية من التمحيص والتدقيق وفى حين أن ظروف الحياة المادية قد تغيرت وتبدلت من الأعماق، فان دعامة التقاليد والمعتقدات بدورها قد تقوضت من أسسها.

وكان لتغلب الانسان على قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمته أن زادت من هذا الانقلاب الطفرى وسرعته. ويعتبر هذا من أهم الأحداث التى وقعت فى فترة القرن الأخير من تاريخ الهند. ولقد حاولت الهند خلال القرون الوسطى الوفاق ما بين العناصر المختلفة للثقافات والحضارات المتعددة المتباينة. ولعل الديانات والمذاهب الفلسفية الجديدة التى قامت فى البلاد منذ القرن الخامس عشر وفيما بعد يقيم البرهان على عمليات التوفيق هذه. ويلاحظ أن الأساليب الاجتماعية الهدوكية فى الشمال

ولو قدر للهنـــد أن تجابه تحديات الغرب لها ، وهى تنعم بالحرية والاستقلال ، لتغير مجرى تاريخها خلال القرنين الأخيرين بصورة كلية . فإن كانت الهند حرة مستقلة كان فى وسعها أن تصدر حكمها على الثقافة الغربية على أساس حيثياتها ، فتقتبس عنها ما تقتبس وتعرض عما تعرض عنـــه ، ولبدأت عملية تنسيق تهدف لبناء حضارة عالمية من زبدة العناصر التى تتألف منهـا الحضارات المختلفة . على أن التاريخ شاء غير ذلك . ولم يقدر للهند أن تجـابه الغرب وهى ترفل بحلل السيادة والاستقلال ، وكان إخضاعهـا سياسيا للحكم الأجنبى أن اضطرت لقبـول ما يفرضه عليها هؤلاء الحكام لا ما تمليه عليها مصلحتها وما تقتضيه ظروفها وأحوالها . وعمد هؤلاء إلى ربط الهند بعجلة أنظمتهم الاقتصادية وفرضوا عليها قيوداً دون أن يراعوا فى ذلك مصلحة الهند . وذلك أدى إلى اضطراب فى تقاليدها الاجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية وفى بعض الأحيان إلى تلاشيها . ولم تبذل أية محاولات لاقامة وجهة نظر منسقة جديدة تجمع مابين التراث القديم والعناصر الثقافية التى حملها الغربيون معهم . ولما كانت الطبيعة من ناحيتها لا تسمح بقيام فراغ وبقائه شاغرا فقـــد

وبدأ الناس الآن أن يغيروا نظام حياتهم دون أن يغيروا مذاهبهم. ولعل هذا ما يفسر لنا انعدام قيام أى نسبة البتة بين النفوذ الذى تتمتع به المسيحية فى الهند الحديثة وعدد المسيحيين فيها.

أما ظهور الاسلام بما يلازمه من اهتمام فى الأمور الدنيوية فقد انحصر تأثيره على الطبقة الارستقراطية من الهنادكة وسكان المدن. وهؤلاء هم الذين تمكنوا بالتالى من تقرير اتجاهات المجتمع الهندى وميوله. وعلى الرغم من مواخرات وجمود العقلية الهندية فان الاسلام استطاع بالتالى أن يحد من قوة استمرارها. ولما شقت المسيحية طريقها إلى الهند أبدى الهنود استعداداً أكثر للخضوع لسيطرتها، وتعليل ذلك أن تغلب الانسان على حواجز المسافات والزمن بفضل ما طرأ على وسائل المواصلات والاختلاط من تحسينات، وقد قلل مما كانت تعانيه البلاد من مشاكل المسافات والجمود إن لم يساعد على حلها. على أن التغييرات التى أحدثها قدوم الأوربيين إلى الهند لم تقتصر على المدن والبلدان فقد تسربت إلى المناطق الريفية. وهكذا نرى أن خميرا جديداً بدأ عمله.

٢ — التقسيم المثنى

يعتبر القرار الذى اتخذ لاقتباس وسائل التعليم الغربية فى الظروف والملابسات التى سبق لنا أن ذكرناها من القرارات الهامة الخطيرة. وكان البريطانيون قد أقدموا على هذه الخطوة لتحقيق أغراضهم السياسية والتجارية العاجلة. ولم يدركوا حينذاك أنهم إنما كانوا فى ذلك قد يبذرون بذور ثورة. قلما نجد لها مثيلا فى التاريخ. وقد يكون أن « ميكالى » تنبأ على وجه غير واضح ببعض نتائج هذه الاجراءات. ولكن حتى هو نفسه لم يكن يعلم بحقيقة ما عليه من نتائج. وقد تراآى له أنها ستؤدى إلى رفع مستوى الحياة الهندية، وبالتالى إلى إحلال القيم الغربية محل القيم الهندية. وبعض الهنود قد بهرتهم واستهوتهم الأفكار الغربية عند اتصالهم بها وتعرضهم لها للمرة الأولى. وكان هؤلاء يشاركون ميكالى الرأى القائل بأن رفا من المؤلفات الانكليزية تعادل مجموع ما يتوفر للشرق بأسره من المعرفة والحكمة. وما كان « لميكالى » ومعاصريه أن يدركوا أن ما حدث لم يكن مجرد محاولة لفرض

حلت المعتقدات والعادات المرتجلة غير المتماسكة محل أنظمة الحياة القديمة . وتلاشى القديم وذهب إلى غير رجعة ، والحديث لا يزال فى دور التكوين .

بآراى «آسين»[1] القائلة أن أعظم الملاحم المسيحية شأنا قد استمدت وحيها إلى حد بعيد من الأفكار الاسلامية. ولكن الذى لا يمكن إنكاره هو تأثيرات الثقافة العربية الشاملة على الأفكار التى وردت فى هذه المسرحية. على أن العرب بدورهم اقتبسوا الكثير من فلسفتهم وعلومهم عن الهند ونقلوها فيما بعد إلى أوروبا. على أن أوروبا قامت بالتالى، بنقلها إلى الهند على أشكال ونماذج مختلفة. فلا غرابة فيه لما اتصلت ثقافة الغرب بالهند أن أدت إلى تغير وتبدل فى المسرح الهندى واستمرت إلى أن تم لها القضاء على الرواسب القديمة الواحدة تلو الأخرى.

ولا يمكن بحال من الأحوال تجاهل الدور الذى لعبه رجال التعليم والارساليات المسيحية التى كانت تضم عددا من المبشرين الذين كرسوا حياتهم لرد الأهلين عن دينهم إلى المسيحية. ولعل الاهم من تأثيرهم الدينى كان تأثيرهم على التفكير الاجتماعى بين السكان فى ذلك العهد، على اعتبار أنهم هم الذين كانوا يتولون تهذيب الشباب وتثقيفه. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأحوال

1 Asin

لون من ألوان الفكر الأوروبى على العقلية الهندية، بل كان بعثا للروح الهندية التى لم تلبث أن خلقت وابتكرت تيارات فكرية جديدة تصلح للشرق والغرب على السواء.

ومن العوامل التى ساعدت على هضم الأفكار الغربية، أنها لم تكن غريبة كليا عن التربة الهندية. ذلك أن تسرب الأفكار اليونانية إلى الهند عن طريق العربية والفارسية كان قد هيأ العقلية الهندية لهذه الأفكار خلال حوالى ثمان قرون. فلما عرضت تلك الأفكار عليها فى قالب أوروبى كان إقبالهم عليها مسرعا. أضف إلى ذلك أن الثقافة الغربية هى مزيج من ثقافات مختلفة ضمت العبرية واليونانية فى قالب حبك على وجه لا يقبل الانفصام. وكانت الثقافة العبرية ذات صلة بالتقاليد العربية. وحتى التراث اليونانى وصل إلى أوروبا عن طريق العربية. وقد قامت دلائل جديدة حية على مدى عمق التأثيرات العربية على الغرب نتيجة للجادلات التى أثيرت حول الدور الذى لعبه علوم البديعيات الاسلامية فى بعث فكرة «مسرحية الألهية» فى مخيلة الشاعر «دانتى»[1]. ويمكن أن لا يوافق أحد

1 Dante

من النقائص والعيوب التى تلازم الثقافة الأوروبية. وكلما ازداد علمهم وقفوا على وجود كثير من المساوى السياسية والاجتماعية. وفسر ذوو النفوس المرهفة الحساسة من الأوروبيين الثقافة الشرقية من جديد. وكذلك وجد المتحمسون للغرب من الهنود أشخاصاً من الأوروبيين يمدحون الشرق. وقورنت القيم والمقاييس الغربية والشرقية فى جو من التجرد والنزاهة. وقد ساعدت الأبحاث التاريخية على حفظ التوازن والعقل، عندما اثبتت وحدة الفكر البشرى مهما اختلفت بيئته. والذى حدث هو أن مغالاة فريق من الهنود فى الاعجاب بالحضارة الأوروبية انقلبت إلى النظر إليها والحكم عليها من =ين نقادة بصيرة.

التحمس الصبيانى لكل ما هو أوروبى أخذ يزول مع مرور الأيام، على أن زواله هذا لم يتحقق إلا بعد أن أضر بكيان الهند الاجتماعى من جهة واحدة. إن تحدى الحضارة الغربية للافكار الهندية القديمة لم يكن ضارا بل مفيداً. وذلك أنه أرغم الهنود على إعادة النظر فى مشاكلهم وتحرى الصواب على أضواء المعلومات الجديدة التى وصلت إليهم. ولكن من سوء حظ

والظروف التى أشرنا إليها ، فان رسالتهم القائمة على الثقافة الغربية أحدثت ثورة فى عقول وأفكار جميع من شاءت لهم ظروفهم أن يتصلوا بهم . وقد أدى إقدام لبعض الهنود على محاكاة الغرب فى عاداته واقتباسهم لهذه العادات أحيانا إلى بعض تصرفات طائشة خرقاء، لكنها اقتضتها وأوجبتها الظروف السائدة حينذاك . فتركوا كل شيء هندى، وراح المتحمسون من الشباب يعملون لطمس معالم ماضيهم السلالى والثقافى .

إن فترة التقليد الأعمى لم تعمر طويلا نظرا لرد الفعل الذى وقع ، وهو العامل الملازم للطبيعة البشرية . وكان النجاح الذى صادفته المدنية الغربية فى بادئ الأمر قد استحوذ على العقول وسيطر عليها . وما إن أفاق الهنود من صدمة المفاجأة الجديدة ، حتى أخذ تفكيرهم القديم يفرض ذاته من جديد ، لأن حضارة عريضة قديمة كالحضارة الهندية ما كان ليكتب لها أن تمحى وتزول بكل هذه السهولة . وقد ساعدت الاحتكاكات والاصطدامات التى وقعت بين الأمم الأوروبية على تبديد الفكرة القائلة بتفوق الأوروبيين . أضف إلى هذا كله أن تعرف الهنود على الأوروبيين قد ساعدهم على الوقوف على كثير

البلاد القائمة على الزراعة، ولتسد حاجيات الهند التجارية والصناعية والادارية والحكومية. وإذا ما قيست هذه الأنظمة بالمقاييس التعليمية السائدة، فانها لم تقل تقدما عن مثيلاتها فى البلدان الأخرى. والواقع أن أغلبية رجال الادارة البريطانيين كانوا يتوخون نظاما تعليميا يخدم على أحسن وجه مصالحهم القائمة على استغلال مرافق البلاد الطبيعية. ونظام التعليم القديم لم يحقق لهم أغراضهم، لأن ما صلح للهنود وناسبهم ما كان ليروق للحكام البريطانيين الذين كانوا قليلى الصبر.

وكانت التجارة هى العامل الرئيسى الذى أغرى البريطانيين وحملهم على المجىء إلى الهند. والمصالح التجارية بقيت هدفهم الرئيسى حتى بعد حصول السيطرة فى البلاد. ولمدة طويلة كان الجهاز الادارى يدار ويسير لخدمة مصالحهم التجارية. وليتسنى للبريطانيين استغلال البلاد على أكمل وجه، كانوا بحاجة إلى وسطاء يتولون أعمال المفاهمة بينهم وبين الشعب الهندى. وقد جابه البريطانيون نفس المشكلة فى تسيير أعمال الادارة. لقد كان من السهل عليهم أن يقرروا السياسة العليا للبلاد، ولكنهم فى تطبيقهم اليومى لهذه السياسة وتنفيذها كانوا بحاجة إلى الانتفاع

الهند أن هذه العملية قد تحققت على حساب الوحدة الاجتماعية . والثقافة الهندية القديمة قد تعرضت فى الماضى أيضا إلى تغيير وتبدل . ولكن طرأ التغير بالتدريج ومع الانسجام . فلقد جاء تطور المجتمع وتكيفه مع قافلة الزمن وتسرب الغربيين إلى الهند قد أدى تصدع وحدتها الاجتماعية . ولسنا ننكر أن أقلية ضئيلة من الهنود تجاوبت مع تحديات الغرب الجديدة، وذهبت إلى حد المحاولة لانشاء أوروبا جديدة على أرض الهند . فتخلت من التقاليد الهندية وأخذت تستمد وحيها من المبادئ الغربية . على أن الأغلبية الساحقة من الهنود، تمسكت بأهداب ماضيها، وبقيت منيعة محصنة ضد تأثيرات الحضارة الجديدة .

ولعل الانقلاب الذى أحدثه ميكالى فى ميادين التعليم مسؤول إلى مدى بعيد عن التقسيم المثنى فى المجتمع الهندى . فقد فرضت مناهج التعليم الغربى على البلاد دون أن تؤخذ بعين الاعتبار أنظمة البلاد المحلية وحاجاتها . فالمعروف أن الهند كانت تنعم بأنظمة تعليمية خاصة نمت وترعرعت على مر القرون . وقد روعى فى وضع هذه الأنظمة المحلية أن تكون ملائمة لاقتصاديات

وتركيز اهتمام النظم التعليمية فى النواحى اللغوية باعد بينها وبين الاقتصاديات السائدة فى البلاد، والاتقان فى اللغة الانكليزية لا يعتبر عاملا ضروريا لأغراض الزراعة والتجارة. ومن ناحية أخرى وفر هذا الاتقان وظائف هينة سهلة إما فى الحكومات أو فى المؤسسات التجارية. ولهذا كله، فان الزراعة، وهى أهم موارد البلاد ما زالت إلى اليوم فى أيادى رجال لا يعلمون القراءة والكتابة. ذلك لأن إقدام الفلاحين على التعليم يفترض أول ما يفترض عليهم عن الأعمال الزراعية. أما طبقة الفلاحين المتعلمين فتكاد أن تكون معدومة فى الهند، لأن المزارعين الذين يسمون للأخذ بنصيب من التعليم سرعان ما يتركون الزراعة.

وكان لتحول النظم التعليمية الجديدة عن دعم جهاز البلاد الاقتصادى القائم على أسس زراعية، أن عم الفقر وانتشر. ولعل من أسوأ نتائج هذا التحول أنه أحدث انقساما جديدا فى المجتمع الهندى. كانت المعاناة من الأحقاد الطائفية والاقليمية كثيرة. ومما فاقم من هذه الحالة وزادها سوءآ على سوء تلك الهوة السحيقة التى ما زالت حتى يومنا هذا تباعد

من خدمات الرجال المحليين . وقد نجم عن هذا قيام طبقة من المثقفين عملت على مساعدتهم فى الميادين الادارية والتجارية. أما مؤهلات أفراد هذه الطبقة فانحصرت فى إلمامهم إلماما جيدا باللغة الانكليزية . وعلى ذلك عمد البريطانيون إلى إعادة تنظيم المناهج التعليميه لتسد حاجاتهم . وبدلا من أن تهدف هذه المناهج لتنمية الشخصية فى الهنود كان هدفها الرئيسى تمكينهم من إجادة اللغة الانكليزية فحسب .

وكان من الطبيعى لهذا النظام التعليمى الجديد الذى يركز الاهتمام بالاحاطة إحاطة جيدة باللغة أن يؤدى إلى هبوط المستوى التعليمى . ولم يتيسر للهند خلال القرون الوسطى وضع قواعد منظمة للتعليم الفنى والبقية الباقية من تعليم فنى كان الهنود قد يتلقوه بفضل النقابات الحرفية والتدريب والمران ما لبثت أن تلاشت. وكذلك فان ما تعرضت إليه الصناعة والتجارية الهندية من تضييق وضغط قضى على كل العوامل الحافزة للاهتمام والاعتناء بالتعليم الفنى. وهكذا هبط مستوى مناهج التعليم وغدا مقصورا على تنمية النواحى اللغوية. وفقد الهنود بذلك مهارتهم فى الصناعات اليدوية .

البشرى، فانهم ولا شك، ينعمون بمدى نسبى من الراحة ولو لم تكن الرفاهية حظهم. ولا تعتمد مناصبهم المفضلة على كفائتهم الأصيلة، أو ما يتحلون به من فضائل خلقية بقدر ما تعتمد على مهارتهم اللغوية. وهى المهارة التى لا تحتاج اكتسابها إلى كبير جهد أو عناء. وقد استمر تعليم الانكليزية واتسع نطاقه خلال القرن الأخير على وجه أدى إلى زيادة الطبقة المتوسطة واتساعها بصورة غير طبيعية. وسنتكلم فيما بعد عن بعض نتائج هذا التفاوت فى الطبقات المتوسطة، وتستدعى نتيجة منها إلى إمعان النظر هنا. إن توسع الطبقة المتوسطة أدى إلى زيادة عدد المنافسين على الوظائف المحدودة. ولم يك من الميسور للوظائف أن تدرك مدى اتساع المتعلمين. والواقع أن كثيرا من الأحقاد الطائفية والاقليمية واللغوية التى تعانيها الهند الحديثة يمكن ردها إلى عدم قيام نسبة بين أعداد المتعلمين وأبواب الرزق والعمل المفتوحة أمامهم.

ولعل الأخطر من هذا كله فى النهاية انصراف الطبقة المتعلمة عن ثقافة البلاد. والمعروف أن التعليم يشجع عادة على عمليات النزوح إلى المدن، وهو بمثابة الطلاق للماضى. وتزيد به التباعد

وتفرق ما بين الطبقتين — المتعلمة وغير المتعلمة، بل الأوفق لنا أن نعبر عنهما كالأمية وغير الأمية بدلا من المتعلمة وغير المتعلمة. لقد سبق لنا وأن شاهدنا كيف تمكنت الهند من خلق ثقافة للشعب التى لم تعتمد على التعليم فقط. فاذا صح هذا القول فى تلك العصور التى كان التعليم فيها منسجما مع حياة البلاد فهو أكثر انطباقا على عهد السيادة الأجنبية. وقد استمر التعليم فى الأحقاب الماضية وما زال إلى حد بعيد فارغا عن مقتضيات الحياة الهندية ومسخرا لتحقيق الاقتصاد الأجنبي القائم على الاستغلال. إن تباعد الأساليب التعليمية الحديثة عن واقع الحياة الهندية ما زال حقيقة ملموسة تهدد حياة البلاد بالأخطار.

وإن الطبقات الجديدة من المتعلمين تستمد أفكارها ومبادئها من الغرب، كما أنها ضمنت أبواب الرزق عن طريق اتصالاتهم بالبريطانيين بشتى الوسائل. وقد يكون التجارة بما تدر على أصحابها من أرباح مصدر إغراء للأفراد. ولكن هذه الأرباح كانت محدودة وناهيك عن كثرة المتنافسين عليها، أما التوظف فهو أضمن للرزق وأوفق للاعتماد. فاذا ما قيس حظ الموظفين بحظ الطبقات الأخرى التى تعيش فى مستوى، هو دون المستوى

قوية جبارة. ومهما قيل فى هذه الصفات التى تساعد على التحمل والجلد، ولكنها لا تفيد قضية التقدم فى شىء.

وهكذا نجد فى جهة جمهورا من الشعب تعوزه قوة المبادرة والتعبير، رغما عما تتجلى به من قوة نظرية يستمدها من التربة التى يعيش عليها. ونجد فى جهة أخرى طبقة مثقفة قلقة متحمسة سآلة. وما أشبه هذه الطبقة بحطام السفينة الغارقة، فهو يعوم على سطح حياة الهندية وليس له جذور راسخة فى حياة الناس وهى وإن كانت تواقة إلى التقدم، ولكنها تعوزها القوى الأصيلة الكمينة باحداث تغيرات هامة. ولو قدر الاتصال بين جمهور الشعب والطبقة المثقفة ليتيسر لكل منهما أن يعوض عما يلازمها من النقائص بفضل صلاح الآخر. والنظام التعليمى الحديث بدلا من تعزيز ذلك الاتصال إنما جدير بأن يفككه تفكيكا.

بين الطبقة المتحضرة المثقفة وطبقة الفلاحين. وهنا يضطرب مجرى الاتصال الحر ما بين المدن والمناطق الريفية. أما فى يومنا هذا، فان عملية النزوح تؤدى إلى إفقار القرية ولا تؤدى إلى زيادة ثروة المدن. وقد تسبب عن فقدان الاتصال بين المدن والقرى شلل فى وسائل المواصلات إلى درجة كادت تنعدم معها أوجه التشابه فى لهجات التخاطب بين متعلمى المدن وجهلاء القرويين.

وتعليل ذلك أن الطبقة المتعلمة لم تعد تستمد قوتها من التقاليد الهندية العريقة، وأصبح أفرادها يتطلعون إلى الحياة من منظار غربى أو شبه غربى على الأكثر. وعندما انقطع حبل الوصل بينهم وبين مرساهم الأصلى اضطربت نفوسهم، وأصبحوا غير مستقرين، ميالين إلى الفضول والشغب. لقد امتازت الحياة الهندية فى الماضى بعصبية ملية عميقة. ولعل هذه العصبية تكشف لنا عن السر الكامن وراء النجاح الذى لازم الهند فى الصمود أمام الهزات والآفات الطبيعية والبشرية التى تعرضت إليها. وما زال سكان الريف الهندى لا سيما الفلاحون يمكسون شيئا من تلك العصبية الملية. وقد يكونون فى عداد الأميين الجهلة ممن يعتقدون بالخزعبلات. ولكن جمودهم بنفسه يحتوى على عناصر

الانجليز الذى كسى نفسه بالملابس الرسميـــة للعشاء وهو منفرد والهندى العريص الذى قدر على مقاومة حقوق جسده. فالهندى الروحانى قام ضد الانجليز المادى. وكان البريطانيون كلما أمعنوا فى إبراز قوميتهم أذكو الشعور القومى فى نفوس الهنود.

ومباهاة البريطانيين بقوميتهم وثقافتهم آثرت بعـدم الوعى القومى الهندى. ورغما عن أن السكان لم يدركوا حينذاك ما ينطوى عليـــه وجودهم تحت السيطرة البريطانية من معان ومضمونات اقتصادية، إلا أن البلاد شهدت قيام روح قومية وثابة. وبدلا من أن يمضى الهنود فى امتهان كل شىء هنـدى أصبحوا ردا للعمل معجبين لماضيهم إعجابا أعمى. ولطالما فقـدت النهضة الهنـدية معالمها فى طيـات عمليات الرجوع إلى الماضى. ذلك أن القومية اتخذت كذريعة لاحياء الخزعبلات القديمة. وإلى يومنـا هذا لم تتخط هذه المرحلة بعد. ومن الممكن رد تلك المجموعـة من السياسة والدين والخرافات الاجتماعيـة التى كانت تؤذى شعور ذوى التفكير العلمى إلى هذا النوع مـن القومية الفاسدة. وقد استوحت الهند الفـكرة القومية من الغرب ولكن نموها أدى بالتالى إلى نبـــذ كل ما هو غربى

٣ — القومية الجغرافية

من آثار الراسمالية البريطانية على الهند أنها عززت الاهتمام بالوعي القومي، الرعيل الأول من الأوروبيين الذين قدموا إلى الهند كانوا تواقين لمعاملة الهنود معاملة إنسانية. سرعان ما تلاشى هذا الشعور ليحل محله انكماش الفريقين تقضي على أي نوع من الاختلاط والمعاشرة بينهما، حتى قامت بينهما اليوم هوة فكرية رغما عما بينهما من تقارب واتصال جسماني. كلما أصبحت انكلترا أكثر اقترابا من الهند بفضل ما طرأ على وسائل المواصلات من تحسينات، عمد الانجليز إلى الابتعاد عن كل شيء هندي. وكان البريطانيون كلما ازدادو انكماشا وانطووا على أنفسهم اتسعت هوة التباعد بينهم وبين أصحاب البلاد.

وكان فريقا من طلائع الأوروبيين أبدوا استعداداً للتهند. وإن فريقا من الهنود انساقوا إلى كل شيء بريطاني. ولكن ما أن استقرت الحال بالبريطانيين حتى عمدوا إلى حياة قومية منعزلة. وقد أحدث انزوائهم هذا رد فعل في البلاد. فهناك مقارنة

والانصراف عنه. ولئن كانت الأفكار الغربية فى يوم من الأيام مصدر توجيه لاتجاهات جديدة من التطور، ولكنها فى الوقت الحاضر موضع رفض لمجرد كونها مستمدة من الغرب. وكثيرا ما يتحول الاهتمام وينصرف عن الضرورى الجوهرى ويأخذ بالتافه الثانوى من الظواهر.

ومهما بدا ذلك متناقضا، فان الرأسمالية مع تعبيرها السياسى فى السيطرة الملوكية تبالغ فى أهمية القومية. والرأسمالية تقوم على ملكية الأفراد لوسائل الانتاج. والملكية الفردية تهدف إلى الانتاج بقصد الربح بدلا من الانتاج للاستعمال. وكلما ازداد نطاق الانتاج واتسع ازدادت معه فرص الأرباح. أما النتيجة الطبيعية لعمليات الانتاج الواسعة النطاق فهى خلق اتجاه نحو الاحتكار العالمى. وتقوم الرأسمالية العصرية فى صميمها على الاستيلاء على الأسواق الخارجية واستغلالها. أما الأرباح الناشئة من هذا الاستغلال الذى يجرى على نطاق عالمى فمقصورة على الطبقة المالكة. ولتحويل اهتمام الطبقة غير المالكة من أبناء جنسها فهى تعمد إلى تمجيد الوحدة القومية. وقد أدى هذا بدوره إلى قيام نوع من الوطنية المتطرفة بين الشعوب

الاوروبية . ومن عادة هذه القومية أنها تستر الخلافات الداخلية أمام الأجانب وراء ستار الوحـــدة . والواقع أن البريطانيين اصابوا نجاحا باهرا فى استغلال الشعور القومى . وقد اسفرت محاولاتهم لتطبيق نفس الأساليب عـــلى الهند إلى تطورات وأحداث مثيرة للدهشة .

إن الاتجاه نحو الوحدة لازم تاريخ الهند عبر القرون والأجيال . وقد أدى هذا الاتجاه فى الحقبات القديمـــة من التاريخ الهندى إلى تنسيق أنواع مختلفة من الشعوب والثقافات فى ظل نظام دينى . وقد نشأ عن هذا التنسيق قيام وجهة نظر مشتركة موحدة تخطت بدورها جميع الحواجز الجنسية والاقليمية . ومع أن الرغبـــة فى تحقيق وحدة سياسيـة كانت قـد بدأت تتبلور ، ولكن اتساع البلاد وضخامتها ، وعدم توفر وسائل المواصلات اعترضت هذا السبيل . أما انعدام فرص الاختلاط والمعاشرة فكان موافقا لاقتصاديات البلاد الزراعية حينئذ . وقد شجع هذان العاملان معا على قيام الحكم المستقل المحلى . وقـد لا نغالى إذا قلنا أن نظام المجالس القروية الذى عرفته الهنـد لا تضاهيه أنظمة أخرى فى العالم . عبرت وحدة الهند عن نفسها

14

چکری "چه جاییکه شما میروید" وازچشمانش "تپ تپ"
اشک ریختن گرفت،
"تف تف، دیوانه"

جزءا واحدا، وتاريخها عبارة عن محاولة متواصلة نحو وحدة لم يكتب لها أن تتحقق. وكانت الهند كلما تحققت الوحدة السياسية عمها السلام فى الداخل والخارج. وقد اخفقت المحاولات الرامية إلى تجزئتها إلى دويلات مستقلة صغيرة، على نفس النحو الذى أخفقت فيه المحاولات لتوسعها ماوراء حدودها الطبيعية. وعلى هذا، فان تاريخ الهند دائم التأرجح بين طرفى النقيض. أحدهما يهدف إلى تجزئة البلاد فى عـــدة دويلات، والآخر يعمل لتوسيع الهند ماوراء حدودها الطبيعية. وما كان للهند أن تحتفظ بتوازن بين الاتجاهين إلا عندما تعاونت العوامل التاريخية مع العوامل الجغرافية وانسجمت معا.

وما كان لهذا التوازن فى الماضى أن يتحقق بسبب انعدام وسائل المواصلات وما ينطوى على ذلك من انعدام وسائل الاشراف والمراقبة. وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف التى تنعدم فيها وسائل الاختلاط والمعاشرة أن يتعذر الاتصال بين أجزاء هذه المنطقة المترامية الأطراف. أما اليوم فقـــد تبدل الحال بفضل تغلب الانسان على قوى الطبيعة. فقد تيسر للسكك الحديدية أن تشق طريقها إلى مختلف أرجاء البلاد،

بواسطة لغتها وأدبها وعاداتها ودينها وفنها وفلسفتها ولكنها لم تجد سبيلا سياسيا راسخا.

ويلاحظ أن العملية نفسها قد تكررت خلال العصور الوسطى مع تعديلات طفيفة. فقد استمرت خلالها المحاولات الرامية لتحقيق وحدة سياسية كما أن نظام الطبقات أخذ تدريجيا يزول ويتلاشى ليفسح المجال أمام نظام اقتصادى. وكذلك طرأ على العادات الاجتماعية تبدل جوهرى، وأسفرت التجارب الجديدة فى ميادين الفن عن قيام معان جديدة من معانى الوحدة. وتعرضت اللغات والعادات والأزياء إلى تغييرات تحت تأثير عوامل جديدة وتحقق نوع من التنسيق بين الأديان والفلسفات المتضاربة. ووقع تفاعل تحت خمير جديد أحدث وعيا جديدا فى نفوس السكان. ولكن حركة الوحدة بقيت غير مكتملة الشروط. ومع أن البلاد شاهدت ثقافة خليطة إلا أنها لم تحدث انقلابا جوهريا فى صميم الحياة الهندية، إن العناصر المختلفة تماسكت بعضها ببعض إلا أنها لم تندمج بعد.

لاحظنا فيما سبق كيف كانت طبيعة الهند الجغرافية عاملا هاما فى تأمين وحدتها. والواقع أن الطبيعة شاءت للهند أن تكون

المتواصل بهذه الأرجاء والاشراف عليها . وكان للتقدم الحديث الذى أحرز فى الميادين العلمية والتحسينات التى طرأت على وسائل المواصلات أن أصبح تنظيم الهند كدولة واحدة ليس من الأمور الممكنة فحسب بل والضرورية أيضاً . وقد تيسر لشعور الوحدة فى هذه الأيام أن يجد الهيئة السياسة للتعبير عن نفسه . والواقع أن حداثة الوعى القومى الهندى لم تأت عفوا أو من باب الصدف .

وعلى هذا فان فكرة القومية الجغرافية هى إلى حد كبير من التطورات الحديثة العهد . وقلما عمد الهنود فى السابق إلى التفكير فى أنفسهم من جهة القومية . قد نسلم بأنه قامت فى البلاد وحدة ثقافية من النوع الرقيق المنحل ولكن الهند لم تتمكن من التنظيم السياسى ، ذلك أن عظم اتساع البلاد وانعدام وسائل المواصلات العصرية اعترضت سبيل توحيد البلاد سياسيا . والعامل الآخر الذى يعادل هذين العاملين فى الأهمية ، هو أنه لم يكن يتوفر للهنود فى ذلك الوقت أية فكرة عن القومية بمعناها الحديث . وكانت الرأسمالية والدولة القومية قد نمتا وتطورتا إلى جانب بعضها بعضا . وإذا قيل أن الهند ليست بدولة قومية فهو

واقتربت أطرافها المترامية فيما بينها .

ودخلت البلاد فى طارة حديدية . والسيارات تدعمت العملية إلى الأمام ونجحت الطائرات اليوم فى التغلب على مشكلة المسافات داخل القارة الهندية . أما البوسطة والهاتف والأسلاك البرقية فقد ساهمت بدورها فى هذا العمل بوسائل وطرق أخرى .

ولأول مرة فى تاريخ الهند تهيأت الظروف التى تساعد على قيام وحدة سياسية مستقرة الدعائم . على أن الفضل فى هذا لا يعود إلى الاحتلال البريطانى . وما كان البريطانيون ليختلفوا عمن سبقهم من ولاة الهند وحكامها إلا بفضل تسخير قوى الطبيعة . وقد تسنى لهم بفضل هذا التغلب أن يؤمنوا اتصالهم ببلادهم وينعزلوا عن سكان الهند . وكانوا كلما ازداد اقترابهم من جهة الوقت والمسافة كلما شعروا بقلة الحاجة إلى اختلاط انسانى مع الهنود . وقد مكنهم هذا فى نفس الوقت من إقامة دولة مركزية وتكميلها . وفى الماضى كان نفوذ الملك لا يتعدى المدى الذى كان يمتد إليه سلطانه . أما فى الأيام العصرية ففى وسع الدولة أن تبلغ إلى ماوراء ما يحلم به حتى اسكندر . وليس هذا فحسب بل وفى وسعها أن تؤمن اتصالها

فقد قصد من ورائه فى بادئ الأمر أن يكون أداة ديموقراطية. إن هذا النظام فى اهتمامه وتأكيده لأهمية العمل مكن الأفراد من النهوض والترقى اجتماعيا، على أن نظام الطبقات انحرف عن جادة الطريق الديموقراطية عندما بدأ يركز اهتمامه بأرومة الفرد ومولده بدلا من مهنتـــه وعمله. فكانت البوذية قبل الاسلام أول من شن الحرب على معقل نظام الطبقات، ومع أنه لم يكتب لها النجاح الكامل إلا أنها تركت آثارها على النظام الاجتماعى الهندوكى. ومع أن التغيرات التى وقعت كانت عامة شاملة إلا أنها كانت أشد وقعا وأوسع مدى فى المناطق الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من الهند.

إن النظم الديموقراطية التى حملها الاسلام متحديا بها العالم ليس لهـا ما يضارعها فى الديانات والنظم الاجتماعية الأخرى. ومن تأثيرات ظهور الاسلام على مسرح الهند أنه هز الوعى الهندى من جذوره وأعماقه، وغير معالم النظام الاجتماعى فى طول المناطق الشمالية من الهند وعرضها. أما النجاح الذى صادفه فى المناطق الشماليـة الشرقية منها فكان مدهشا حقـا. وهـــذا يحملنا على الاستنتاج بأن تأثيرات البوذية فى أوائل

بمثابة الحقيقة المسلمة أن الرأسمالية فى الهند ستستكمل فى المستقبل.

إن الفكرة القومية أثرت تأثيراً عميقاً على الوعى الهندى، وكان أثرها أشد ما يمكن على الجيل الجديد، وعلى الأخص الطلبة منهم. ذلك أن هذا النفر يتلقى التأثيرات الفكرية الجديدة بصورة مباشرة كما أن كفاءتهم الذهنية تمكنهم من التفاعل مع التأثيرات التى قد يتعرضون إليها. أضف إلى هذا كله أنهم على وجه العموم يتحررون نسبيا من تحفظات ذوى المصالح الثابتة. وبوصفهم طلابا فانهم لم يوفقوا بعد إلى الاندماج فى المجتمع على وجه معين. وهم يطالعون ما حصل من المجد للدول القائمة على القومية فى الغرب. فيتراآى لهم أن الانتصار الذى احرزته هذه الدول إنما يعود إلى قبولها لمبدأ القومية. ويتراآى لهم أنه بمجرد تحويل الهند إلى دولة قومية يستفتح أمامهم أبواب مقدورات لا تحصى.

ومن تأثيرات الأفكار الغربية على الهند أنها عززت الاهتمام بالديمقراطية. ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن الديمقراطية لم تكن معروفة فى الهند. لأن المجالس القروية التى عرفتها الهند منذ القدم تعكس نظاما ديموقراطيا لا يضاع، وحتى نظام الطبقات

لم تساعد الهند على اكتساب العقلية العلمية، وقد قدمت الهند عدداً من العباقرة من أفرادها الذين توصلوا إلى اكتشاف حقائق هامة. ومع أنه كان من المتوقع قيام نظريات علمية عظيمة إلا أن الهند كانت لم تعرف العلوم بمعناها العصرى. ولعل عدم المبالاة بالأفراد وعدم الاهتمام لهم هو من بين العوامل الرئيسية التى اعترضت سبيل تقدم العلم فى الهند. إن الديموقراطية ليست بشىء إلا إذا اعترف بأهمية الفرد. أما فى الهند فان الديموقراطية سارت ضمن إطار ضيق. وإنها تترعرت فى المناطق الريفية حيث العلاقات والاتصالات الشخصية تخفف من حدة الأفكار المجردة. وعلى هذا فان الديموقراطية فى الهند عندما وجدت نفسها تعمل خارج نطاق دائرة الاتصالات والعلاقات الشخصية بقيت مجرد فكرة عارية عن الجسم.

إن الهند بحكم ضخامتها واتساعها قد افسحت للديموقراطيسة الريفية والاتوقراطية الاستعمارية مجالا للنمو والتطور جنباً إلى جنب. ورغما عن قيام مدى عظيما من الحرية المحلية إلا أن الهند وقفت موقفا أميل إلى التسامح منه إلى الاعتراف بها. ويلاحظ أن السلطة العسكرية تغلبت على الرأى العام غير المنظم

مراحلها كانت من العوامل التى ساعدت على الفوز الساحق الذى حققه الاسلام فى المناطق الشمالية الشرقية من البلاد.

رغما عن كل هذا فان الديموقراطية لم يكتب لها أن تكون عاملا حاسماً فى حياة الهند السياسية. إن العقلية الهندية تستهويها الأفكار المجردة التى تنطبع بطابع الشمول، وقلما تفكر فى وجود الفرد. ويتجلى ميل العقلية الهندية إلى إبراز العام على حساب الخاص فى دياناتها وفنونها ومذاهبها الفلسفية. إن الديانات الهندية تبدى تسامحاً إزاء الفوارق الاجتماعية وتتساهل إزاء عدم المساواة القائمة بين الأفراد. فهى تنظر إلى الفرد على اعتبار أنه جزء فان من المطلق وإن المطلق فوق كل أذى وإهانة. ومع أننا نعثر بين اللوحات الهندية على رسم للشجرة. ولكن قلما تقع أعيننا على شجرة ذات طابع أو شكل معين وحتى رسوم الآدميين فانها لم تسلم من هذا النقص. وكذلك الحال فى الفلسفة الهندية فان الخاص لا يكتسب أية أهمية إلا كعامل للمجموع العام. وصفوة القول فان العقلية الهندية كانت ميالة لتمجيد النوع وتجاهل الفرد.

ولعل هذا التجاهل الشديد للخاص يفسر لنا الأسباب التى

٤ — الصراع

بقيت القومية الهندية مدة تتأرجح قلقة بين أساليب الحياة الغربية والأساليب الاجتماعية القديمة الملغاة. وهذا الارتباك قد أثر على العقلية فى ذلك العصر. وكان هذا الاضطراب أشد تأثيرا على الشبيبة الهندية. وبقى الاضطراب متواصلا لأن العالم فى ذلك الحين كان يتخطى إلى مرحلة وراء المراحل القومية، إلا أن الهند اضطرت أن تجتاز فى آن واحد جميع المراحل التى سبق للدول الأوروبية أن قطعتها على أدوار متعاقبة. وقد أشرنا فيما سبق إلى فشل محاولات الرأسمالية فى الهند. وكذلك فان حركتها القومية وديموقراطيتها قد تعرضتا إلى نفس التطور المحدودة. وكان لا مفر لها قبل أن تنمى قوميتها وديموقراطيتها على أسس كاملة أن تنظم حياتها على أسس من المشايعة الاجتماعية.

إن النظام الرأسمالى يؤدى بطبيعته إلى مطالبة الاحتكار العالمى. وهذا بدوره يثير قضية توزيع الأرباح على شتى أعضاء

فى كل مرة وقع منها اشتباك أو اصطدام. وعلى ذلك فان اهتمام الاوربيين بالديموقراطية التأسيسية جابه الوعى القومى الهندى بشيء جديد. ومن بين العوامل الجديدة التى فوجى بها الشعب الهندى تغلب الانسان المتزائد على قوى الطبيعة. والتحسينات التى أدخلت على وسائل المواصلات، كانت أوضح مثالا من أى شيء آخر. والواقع أن الروح الديموقراطية وجدت الآن فى هذه المواصلات أداة صالحة. وأخذ مبدأ المساواة يغزو الضواحى والأرياف عن طريق القطارات فى بادئ الأمر وبالتالى عن طريق الأوتوبيسات.

من تحد قوى للملكية الفردية وأهداف الربح لا يمكن لأى مجتمع أن يتجاهله أو يتغاضى عنه. إن رغبة أصحاب رأس المال إلى الاحتكار وصلت إلى نتيجتها الطبيعية. فقد حولت أهداف الاحتكار ولو على الأقل بصورة نظرية من خدمة الذات إلى خدمة المجموع.

وقد ساهمت الحربان العالميتان عقول الشبيبة فى العالم فى على خروجها من الاغتراء بإمكانيات الرأسمالية. وإن تهديد البطالة والفقر يؤدى إلى الأذهان تذكارا شديداً عن فشل النظام السائد. على أن الرأسمالية فى الهند ليست بنظام بالمعنى المفهوم فهى لا يخرج عن كونها نظاما خليطا نمو الطبقة الوسطى متواصلا تحت ظله. ومع أن الطبقة الوسطى تمكنت من التوسع إلا أنه لم يؤمن لها الرفاهية، أو يضمن لها الكفالة. ويلاحظ أن الطلبة الذين ينحدرون من هذه الطبقة يجدون أمام أعينهم شبح البطالة المخيف طيلة مدة دراستهم.

وفى حين أن الطبقة الوسطى فى مختلف أنحاء العالم بدأت تدرك بأنها لا مستقبل لها. فان مستقبلها فى الهند أدعى إلى الرثاء. ذلك إن الرأسمالية فى البلدان الأخرى ضمنت لأفراد هذه الطبقة

المجتمع . ويمكن للنظام الاقتصادي الفطرى أن يتركز فى العائلة أو القبيلة ، فالأب يتولى حراثة الأرض فى حين أن الأم تتولى أعمال الطهى والغزل. والأولاد فيعاونون فى المزرعة أوالمنزل، فكل عائلة عبارة عن مجتمع مصغر. والقبيلة أو القرية تحل محل الأسرة أو العائلة عندما يكتسب طابع العمل ميزة التخصص والمهارة فى مختلف أنواع العمل . على أن القبيلة أو القرية رغما عن كل هذا تبقى مستغنية فى ذاتها .

وعندما تنمو التجارة خارج حدود القبيلة فحينئذ يتقوى اعتماد أفراد المجتمع بعضهم على بعض إلى حد يتعدى تأثيره على عقلية عامة الشعب.

وقد هزت الحرب العالمية الأولى أسس ثقافة الغرب السائدة. فكشفت النقاب بصورة واضحة عن التناقض الذى يلازم القومية والرأسمالية . وقد استهوت الأفكار الجديدة ذلك النفر من ذوى العقول المتيقظة . والاضطراب الذى وقع فى معتقدات الانسان المألوفة وعاداته انتهى فى الانقلاب الاشتراكى فى الروس . ومن المبكر حقا أن نقدر ونوازن تأثيرات هذه الثورة على مختلف نواحى الحياة الاجتماعية . على أن ما حملته فى طياتها

شعور اليأس ويدفعهم إلى كثرة الكلام الفارغ. ويندر أن يكون هذا الصراع حافزا على شحذ العزائم ومضاعفة الجهود. العناصر الثلاثة التى تؤدى العقلية الشبيبة الهندية المعقدة البدائية اليوم، هى القومية والاشتراكية وشعور خيبة الأمل وانعدام الهدف.

وانتشر التبرم وعم الاضطراب فى تربة صالحة، على أنهما بقيا مستترين إلى حين، نظرا لأن نظم التعليم الغربى فى مراحلها الأولى ضمنت لهؤلاء النجاح المادى. ووقفت الشبيبة فى بادى الأمر وقفة المجاملة الخالصة. ولكن ما كان لتدوم ولم تدم حالة الميلان هذا طويلا. فسرعان ما تلاشت موجة الاعجاب وبدأ وطأة العوامل الاقتصادية تعمل عملها. ولم يعد فى وسع التعليم الغربى تأمين الرفاهية إلا إذا بقى عدد العاطلين من القلة والضآلة بحيث يتسنى للجهاز الاقتصادى امتصاصهم. وعندما تزايدت أعدادهم لم يعد هناك مفر من تعديل هذا النظام الاقتصادى. ولكن الصعاب التى تعترض هذا السبيل بقيت قائمة. وقد استمرت الخطة الصامتة الرامية لشل الحياة الصناعية فى الهند لمدة طويلة دون أن ينتبه إليها أحد. ولكن تجاهلها لم يعد فى المستطاع فى هذه الحالة. وما كان تفشى البطالة بين

مكانا فى الاقتصاد الاجتماعى . أما فى الهند فقد قاوم البريطانيون الرأسمالية المحلية بمختلف أنواع الضغط السياسى والاقتصادى. ومع كل ذلك فمازال ولا يزال اليسر النسبى الذى يتمتع به أفراد هذه الطبقة يجذب أفراد الطبقات الأخرى إليها . والذى حدث أن الطبقة الوسطى التى قامت قد كثرت عددها بحيث تعذر على الجهاز الاقتصادى السائد أن يساهمها . والمعروف أن أفراد هذه الطبقة يرفضون الرجوع إلى مستوى وضيع من المقدرة الاقتصادية . هذا رغما عما يعترض محاولتهم إلى الرأسمالية من ألف صعوبة وصعوبة . ونتيجة لذلك ، فقد اشتدت وطأة البطالة كما ازداد التبرم والاستياء .

إن خيبة الأمل التى منيت بها كثير من الأحيان الشبيبة الهندية هى نتيجة مباشرة لهذه الأحوال . إن الاشتراكية ومبدأ العدالة الاجتماعية الذى تروج له الفرص المتساوية التى تنادى بمنحها للجميع تقف موقف المتحدى لايمانهم وجهودهم. والظروف والأحوال التى يعيشون ويعملون فى ظلها تبدو أبعد ما يكون عن تحقيق تغيير اجتماعى جديد . والصراع القائم بين أمانيهم وآمالهم وبين البيئة التى يعيشون فيها يبعث بين أغلبيتهم

قد جردت من ثروتها. وبديهي أن الأراضي الزراعية لا تقوى على سد حاجات جميع السكان إلا إذا كان المجتمع ما يزال في أطواره البدائية. والذي حدث في الهند أن عقارب ساعة الحضارة قد أرجعت إلى الوراء. على أن الاتصال بالغرب كشف للشعب عن إمكانيات عظيمة. وقد وقف مستوى الحضارة الغربية المادي الفائق متحديا الجمود ومهيجا لهم. وأدت عملية إفقار البلاد إلى بعث شعور الحقد في نفوس أولئك الذين توفرت لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب الموفق بالدهشة. وقد تزايدت موجة الاضطراب وعمت بفعل ما طرأ على وسائل المواصلات من تحسين وإزالة النظم الاجتماعية القديمة. وعمت البلاد والأهلين معا موجة من القلق وحب الاستطلاع.

ولعل الأفكار الغربية والافتقار المتزايد الذي تعرضت إليه البلاد، هما العاملان المسؤولان عن إشاعة روح التبرم في عقول الشعب الهندي. ومن آثار تزايد وسائل الاقتصاد والمواصلات أنها جعلت هذا التبرم أعمق غورا وأعم انتشارا. ومما ساعد على تفاقم الحالة وزاد في الطين بلة تلك المحاولات الرامية لشل حياة الهند الاقتصادية. ولو أنه كان لانهيار النظام الاقطاعي المغولي

المتعلمين بأعدادهم المتزايدة وازدياد الضغط المتواصل على الزراعة إلا من عوارض هذا المرض الآخـذ بالاستفحال.

ولازمت الافقار المتزايد فى البلاد مطـالبـة تحسين مستوى المعيشة. وقد يبـدو هذا متناقضاً ولـكننا لن نعجز عن تعليله التاريخى. الرأسمالية الأوروبية عندما اتصلت بالهند كانت قـد بدأت حياتهـا الموفقة. ولسنا فى حاجة فى هـــذا المقام لأن نستعرض ما كان للاسواق الهنـــدية من فضل التعجيل من نمو الرأسمالية هذه والمحافظة عليها. كما أننا لن نعمد فى هذا المقام إلى تبيان تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية. وعندنا أن تفاعل القوانين الاقتصادية الذى أدى إلى قدوم البريطانيين إلى الهند، هو الذى أدى إلى اخضاع الهند لسيطرتهم السياسية.

وقـد وقفت الصناعات الهندية البدائية وجها لوجـه أمام رأسمالية الغرب الجائعة التى ما لبثت أن دمرتها وعادت بالبلاد إلى عهد الاقتصاد الزراعى الذى حرصت الهند أن تستخلص منه. وكان الاستئنـاف لاقتصاد الزراعة فى البلاد مضافا إليه حلول فترة من سلام مفروض أن ضاعفت من المتاعب القائمة وقامت مشاكل جديدة. أن عدد السكان قد تزايد ولـكن البلاد كانت

جميع العالم أن أفرادها قلقون وناقدون وأصحاب الأنانية وهم طبقا لأحوالهم لا ينعمون بالاستقرار الاقتصادى. ويعملون بدافع النهوض بأنفسهم إلى طبقة الرأسماليين ولكن كثيرا ما يحدث العكس فتطوح بهم مغامراتهم إلى الحضيض. وهم يحسون بأنه يليق بهم أن يعيشوا عيشة الرفاهية التى وراء مقدرتهم. وهذا الصراع الاقتصادى المتواصل يصبغ وجهة نظرهم إلى الحياة. إن أفراد الطبقة الأرستقراطية عادة لا يسعون إلى تأكيد ذاتيتهم بحكم ثقتهم بأنفسهم وكما أن سواد الشعب فهم قانعون بنصيبهم — أما أفراد الطبقة الوسطى فهم لا يعرفون القناعة، وكثيرا ما ينقلبون إلى فئة جامحة صاخبة همها الأكبر تأكيد ذاتيتها وإبرازها. وهم يسعون فى تزكية أنفسهم بانتقاد الآخرين.

إن أفراد هذه الطبقة لا يقصرون انتقادهم على الفئات والطبقات الأخرى بل تراهم ينتقدون بعضهم بعضا. ذلك أن التجانس والوئام غير معروف بينهم. وقد لا يتوفر التجانس بصورة كاملة لطبقة من الطبقات الاجتماعية على أن الدرجات فى أفراد الطبقة تتجلى أكثر من غيرها فى الطبقة الوسطى. ففى أقصى جهة نجد أولئك الذين قد زحزحوا عن الطبقة الفقيرة. وفى أقصى جهة أخرى

أن يؤدى إلى نمو الرأسمالية فى الهند فى ظروف طبيعية. وقد كانت الرأسمالية البريطانية قوة تقدمية لأنها ساعدت على تقويض دعائم العهد القائم ولكن صبغتها التقدمية تلاشت عندما شرعت تقاوم بحكم مصلحتها تطور الرأسمالية ونموها بحرية فى هذه البلاد. وقد أسفرت الطريق الوسط الذى اتبعتها فى هذه المقاومة عن خلق طبقة وسطى ذات قوة وحول. وكانت تهدف إلى استغلال هذه الطبقة البورجوازية فى العمل على تصريف البضائع فى طول البلاد وعرضها، وأن تكتفى هذه وتقنع بنصيبها الضئيل من الأرباح التى أخذتها رأسمال البريطانى. على أن هذه الطبقة سرعان ما أبت الاذعان لادارة البريطانيين وأخذت تطالب بنصيب أوفر من الأرباح كما طالبت بنصيبها من التراث السياسى الثقافى البريطانى. ونظرا لتشعب المصادر التى كان أفراد هذه الطبقة ينحدرون منها، فان مهمتها لم تقتصر على تصريف البضائع بل تعدتها إلى نشر الأفكار وإشعاعها. وقد أخذت عقليتها مع مرور الزمن تسيطر على المجتمع الهندى وتتحكم فيه.

ويعتبر قيام الطبقة الوسطى ونموها الطفرى من أهم الأحداث التى شهدتها الهند الحديثة، والمعروف عن الطبقات الوسطى فى

التقدم الاجتماعى وقوة الاستمرار الاجتماعى فى دروب متناقضة. على أن كفة القوى الرجعية ما لبثت أن رجحت نظراً لانعدام وسائل المواصلات الصالحة. ولما استحسنت وسائل الاختلاط والاتصال فيما بعد كان لها أثرها فى التعجيل من الاتجاهات نحو التغيير والتقدم، ولم تساعد هذه التحسينات على تصريف البضائع فحسب بل وعلى نشر الأفكار. إن المدن تمتاز عادة بعدم الانسجام والتجانس والميل نحو الشك والنزعة إلى التحارب فى حين أن القرى تمتاز بالوداعة الساذجة والسذاجة والرجعية. ومن تأثير المدن على القرى أنها زعزعت فيها تلك التقاليد القائمة على الرضا والقناعة فقربت المدن من القرى. والمدن تمتاز عادة بعدم الانسجام وتميل إلى الارتياب والتحارب. والقرى تمتاز بالهدوء والسذاجة وتميل إلى الرجعية. ولما صدمت المدن بالقرى فقدت الأخيرة انبساط معيشة المألوفة.

نجد أولئك الذين يصعب تمييزهم من طبقة الأغنياء المؤسرين. فلا تتجلى تعاظم اجتماعى فى أى طبقة كما تتجلى فى الطبقة الوسطى. فلا تقع عينك إلا على جو من الحسد والوجل، حسدا لبعضهم بعضا، وخوفا من بعضهم بعضا. ثم تتوفر الأنانية إلى حد كأنها مرض. فتوسع الطبقة الوسطى هو نذير لانهيار النظام الاجتماعى القديم.

قد تغيرت هيئة الاجتماعية فى الهند بسرعة بفضل تأثير الغرب من طرق أخرى أيضا. وكثيرا ما كانت النتائج متضاربة متناقضة. إن النظم الاجتماعية الغربية بانحرافها عن الأساليب الهندية قد زعزعت إيمان الشعب بأن قيام نظام معين من الأنظمة أمر من الأمور التى لا مفر منها. ولقد استوجبت الغارات المتعددة التى شنتها السلالات المختلفة على الهند منذ القدم، إجراء تعديلات متكررة على الأنظمة القائمة. على أن قوى الرجعية طالما قاومت محاولات التكييف هذه. وكان المجتمع كلما تهدد بوقوع حرب أو غزو أجنبى كلما عمد إلى الرجعية واتخذ منها سلاحا للدفاع عن نفسه، وكانت المطالبة بتغير الأوضاع عادة تحمل الهنود على التمسك بأهداب الماضى بصورة عمياء، وطالما سارت أهداف

على الأحوال المادية للعيشة بدأ يحدث تغييرا عميقا فى وجهة نظر العقل والفكر .

إن التأثيرات الأوروبية قد فرضت على الهنود طرازا جديدا من التفكير والسلوك . ولما كانت الأفكار الغربيـة تجريبية فى الصميم ، فانها كانت فى صراع مستمر مع الأفكار والعقلية الهندية السائدة . أما النواحى الدنيوية والعمليـة من التفكير الهندوكى فكانت قد تبخرت من أمد بعيـد ، وحتى الاسلام نفسه ، فانه بدوره قـد فقد فى البيئة الهندية قوة النضال والكفاح التى تلازمه عادة . أما العلوم الأوروبية من ناحية أخرى ، وهى معنية بالظواهر الطبيعيـة ، فقد عملت على تقويم وتفهم كل ما يقع تحت طائلة النظر ومراقبته والسيطرة عليه . على أنها لم تدخل فى حسابها عالم ماوراء المرئيات إن لم تكن قد أهملته وتجاهلته على الأقل .

وعلى ذلك فان النزعة الهندية للاهتمام بالدائم قد اصطدمت بحب البريطانيين للوقت . وفى حين أن الهنـد ميالة إلى إهمال حاضرها ، فان بريطانيـا كثيرا ما تهمل المستقبل . ذلك أن البريطانى يهتم بمصائب يومه الحاضر . وهو عادة لا يجد مجالا

٥ – الدائم ضد الموقت

لقد ساعدت حدة الصراع الاقتصادى المتزايدة على زعزعة روح القناعة والاستسلام . فالعهود القديمة التى سادها الراحة وهناء العيش ولت وذهبت . ولم تعد الحرف والمناصب الموروثة تضمن لأصحابها نصيبها من الرزق والمؤاساة . وتتجـه أنظار الناس من كل حسب ونسب إلى أشكال جديدة من الوظائف . ونظرا لما يلازم المدن عادة من انعدام الذاتية فان سبل الاختلاط والاتصال بين الفئات والجماعات المختلفـة أصبحت أقرب منالا وأيسر تحقيقا . وها نحن نشاهد اليوم ثورة صامتة تقوم أمام أعيننا . فالقيم الأخلاقية القديمة أخذت تتغير بحيث تنطمس معالمها . وما ينطبق عليها ينطبق أيضا على نظام الطبقات التى يعتبر بمثابة حجر الزاوية الذى يقوم عليه المجتمع الهندى . فانه بدوره أخذ بالانهيار والتداعى . وأصبحت المعايير والقيم الاقتصادية القديمـة هباء منثورا . والتحول والتبدل الذى طرأ

البقاء والاستمرار. ولقد كان المجتمع الهندى فى أواخر العهد المغولى إذ ذاك مهددا بالتجفيف الداخلى. أما ما كتب للأوروبا من ظفر لم يكن إلا مظهرا خارجيا للانحلال الداخلى. ومن تأثيرات أوروبا على المجتمع الهندى أنها قضت على الجمود القديم، وأرغمت المجتمع على إعادة النظر فى الأسس القديمة. ومع أن الأفكار الأوروبية كانت مختلفة عن الأفكار الهندية، ولكن لم يكن من السهل تجاهلها نظرا لما سجلته وأحرزته من انتصارات باهرة. وكان لتصادم الأفكار الأوروبية والهندية وتعارضهما معا، أن انبعث فى البلاد اتجاه جديد يقوم على حب الاستطلاع والتنقيد، وإن كانت أهدافه مبهمة غير واضحة إلى الآن.

إن حب الاستطلاع هو المحور الذى تدور عليه المعرفة. وبدونه لا يتسنى لأحد أن يرتقى. ومن الطبيعى والحالة هذه، أن يكون حب الاستفسار والاستطلاع من الطبائع الملازمة للشبيبة. وأدى ظهور حركة النقد إلى بعث الحياة إلى الهند من جديد، رغما عما ينطوى عليه هذا البعث من أخطار. ذلك أن المراهقين من عادتهم رفض كل شىء. فهم يحلمون برسم معالم هذا العالم من جديد، كما أنهم لا يحسنون التمييز بين الطالح وبين

فى ذهنه ووقته للتفكير فى مصائب المستقبل، أما الهندى فيرهق ذهنه بالتفكير مقدما فيما عسى أن يقع من حوادثات. وكثيرا ما يؤدى به حرصه على تفادى أخطار المستقبل إلى إفلات الفرص من أيديه. وكذلك فى حين أن الهند تفاخر وتعتز ببعد نظر أبنائها وصفاء تفكيرهم، فان بريطانيا تباهى بمقدرتها على مقاومة الصعاب ولو مع الخطيئات. والواقع أن صبر الهنود على حاضرهم التعس أملا بثواب مستقبل قد وجد نقيضه فى موقف البريطانيين. وكان لانتصار البريطانيين فى تصرفاتهم الدنيوية وتجاربهم أن بدأ الهنود يعيدون النظر فى اتجاهاتهم الفكرية والأسس التى تقوم عليها.

والواقع أن المرونة الاجتماعية التى أخذت تتجلى فى مختلف نواحى الحياة الهندية لن تخرج عن كونها تعبيرا عن الاتجاه التجريبى المتزايد. وهو العامل الذى كانت تفتقر إليه الهند عندما دخلها الأوروبيون. فكانت قد أخذت بادعاءات جامدة بدل المبادرة إلى اعتناق الظروف المتغيرة. ولما كان مجاراة الظروف والتكيف معها سنة من سنن الحياة لا يمكن مقاومتها إلا بالتعرض إلى خطر الموت. فان انعدامها يعنى فقدان القوة على

لتخلقا جواً مفعماً بالتعصب والغليان .

ويلاحظ أن الاعراض عن الغرب ونبذه بصورة عمياء هو الشعور السائد بين طبقة هامة فى المجتمع الهندى . وقد جاء هذا الاعراض كرد فعل نتيجة طبيعية لما وقع فى الماضى من من إقبال الهنود على الغرب وتقليدهم الأعمى للغربيين . والذى يجب ألا يغرب عن البال هو أن استنكار الباطل ودفع المنكر هو شىء ، وتأكيد الحق والدفاع عنه هو شىء آخر . فان إنكار الهنود للاشياء الغربية دونما تمييز وبصورة عمياء من شأنه أن يضر بالهند أكثر من اضراره بالغرب . إن بعض القيم التى تعتبر من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الهند قد تتعرض إلى الزوال دونما داع أو مبرر . وإذا ما قدر لهذا الاتجاه أن يستمر فقد تجد الهند نفسها منفصلة عن تيارات الحضارة العالمية ، الأمر الذى يؤدى إلى عزلتها وبالتالى إلى ركودها وجمودها . وعندنا أنه ليس من الحكمة إنكار تفوق الغرب حيثما يكون الغرب فى الواقع متمتعاً بهذا التوفق . كما أنه لا يليق بنا المغالاة فى تمجيد العناصر الهندية لمجرد أنها هندية . ولا يخفى أن الشعور بالنقص يتجلى وينعكس أيضاً فى المغالاة بشعور الانسان بالتفوق .

الصالح من تراثهم الاجتماعى . فهم يركزون انتقاداتهم فى المظاهر والقشور غير عابئين بالجوهر الأساسى من العيوب والنقائص ، وقد تعكس حركة البعث وتطوراته آثارا من المراهقة الزائدة .

ويتحتم على الهنود أن يجابهوا مشاكلهم ويعالجوها فى روية ونفاذ بصيرة ، هذا إذا كانوا حريصين بأن لا يؤدى هـذا الغليان الاجتماعى ويتحول بالتالى إلى نوع من الفوضى والبلبلة . وعندنا أن العقل هو الكفيل الوحيد بأن يصنع من أنقاض الماضى المتداعية تراثا يروق للأجيال الهندية الآتية حتى ترتاح إليه وتفتخر من أجله . وترجع الأهمية إلى العقل أيضا بسبب العوامل الخارجية التى ظهرت على المسرح . ذلك أن تعرض الهنود لسيطرة الأجانب السياسية جعلتهم شديدى الحساسية بالاهانة . وكذلك فان تفسير التاريخ الهندى تفسيرا خاطئا قد أثار البغضاء وسوء التفاهم بين الطوائف المختلفة . ويستقبحون الانتقاد ولو كان صحيحاً لمجرد استقباحهم المصدر الذى صدر منه الانتقاد . ونظراً لما وقع من خلط بين مقومات النهضة ومقومات الحركة الرامية إلى بعث القديم وإحيائه أن زاد الموقف تعقيداً على تعقيد . فقد اختلطت الطائفية بالراديكالية[1] المتطرفة واندمجتا

1 Radicalism.

٦ — الفنون والآداب

درجت الهند الحديثة على النظر إلى الغرب والتطلع إليه من منظار إنجليزى، فقد تأثرنا فى مادئ الأمر بالأفكار الانجليزية، أو على الأغلب بالأفكار الغربية التى آلت إلى الهند بأيدى البريطانيين بعد هضمها، ويذهب البعض إلى حد القول إن اللغة الانكليزية وآدابها هى أعظم ما جادت به بريطانيا على الهند. إن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هذا القول ينطوى على شىء كثير من الصحة. إن تأثير البريطانيين على أزيائنا وعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية كانت محدودة، وأما تأثيراتهم على عقليتنا وعلى شعورنا الروحانى كانت بعيدة المدى.

وقد نسلم أن اللغة الانكليزية يسرت لنا الاتصال بالآداب الغربية الأخرى. ولكننا بالغنا فى تأكيد أهمية الانجليزى لدرجة حملتنا على التقليل والانتقاص من أى شىء آخر. ولما كانت الآداب الاوروبية الأخرى لها ميزاتها الخاصة التى

إن قبولنا القيم حيثما وجدت وتوفرت والمبادرة فى التالى إلى العمل على امتصاصها فى بوتقة التراث القومى هى خير برهان على صحة القومية وسلامة عقلها. وإذا تخلفت الهند عن الركب العالمى فى سيره الجبار إلى الأمام فهى تعرض نفسها إلى جسيم الأخطار.

إن محاولة كهذه التى تهدف إلى تأخير عقارب ساعة الزمن لن يكتب لها النجاح. ذلك أن العزلة التامة تعتبر بحكم المستحيل فى عالم مترابط متساند كعالمنا العصرى. أضف إلى هذا أن العزلة تجر فى طياتها كورات سياسية واقتصادية. فاذا ما تعمدت الهند هذه العزلة أصبحت كريشة فى مهب رياح وأعاصير لا تملك السيطرة عليها بدلا من أن تصبح قوة داعية بسيطة تساهم فى التطورات العالمية مساهمة إيجابية إنشائية. ومن السهل علينا أن ندرك الأسباب والعوامل التى تحمل ذوى الوطنية من الهنود على التردد فى قبول القيم الغربية والاقبال عليها، ذلك أن هذه القيم تعيد إلى ذاكرتهم ما تعرضت إليه بلاده فى الماضى من استعمار ثقافى وإهانة قومية.

المكبوتة هذه تجـــد لها منفذاً فى فنونهم . والواقع أن العاطفة تحلق عاليـا لتبلغ أسمى الدرجات، حتى أصبح الشعر الانكليزى من أعطف ما عرف فى العالم.

وقد ساقتنا خصائص البريطانيين هذه وفنونهم إلى فهم القيم الأدبيـة على غير حقيقتها ، ذلك أن العاطفة الانسانية لهى جزء من العناصر الجوهرية بالنسبة إلى الآداب ولا تعتبر غاية فى حد ذاتها . ولا يوجد فى الآداب الانكليزية الوضوح الذى يميز آداب اللغات اللاتينية . فقد أثر هذا بدوره على تفاعلنـا مع الشعوب الأخرى من غير البريطـانيين . وآية ذلك أننـا نحكم على حرارة الأمريكيين وإخلاصهم فى ضوء المعايير الاجتماعيـة عند البريطانيين . كما أننا نتوقع أن يتوفر الأسلوب المطلق عند الفرنسيين أو القانون الفنى عند الصينيين بنفس الوفرة من العاطفة التى نجدها فى الشعر الانكليزى .

إن الآداب المحلية كانت قد بدأت تنمو وتتطور حتى قبل حلول البريطانيين . ففى العهدين الباتانى والمغولى بلغ الشعر البنغالى مستوى عالياً من النضوج ، وكذلك فان الأشعار الروحية عند « الماراتيين » تتمتع بقيمة وإعجاب خالدين . كما أن كبيرا[1] وأتباعه

1 Kabir

تبعدها عن الطابع البريطانى، فان محاولاتنا لتقويمها ووزنها بمعايير الانجليزى قد باءت بالفشل، وإننا نسعى أن ننظر إلى الآداب الشرقية بالعيون الانجليزية. وكانت النتائج أحيانا مزرية تدعو إلى الرثاء، كأننا قد نسينا أننا لن نقدر أن نصبح إنجليزيين كاملين فى أفكارنا وشعورنا ووجهة نظرنا. وإن جل ما نستطيعه من هذا السبيل هو أن نصبح إنجليزيين نقليين، ولا يسمح للنقالين حقوق أبناء بلد العالم.

وجدير بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ناحية خاصة من التاثير البريطانى. إن البريطانيين من جهة تقاليدهم الاجتماعية وعلاقاتهم الذاتية أصبحوا أكثر شعوب العالم تحفظا وانكماشا. الرجل البريطانى العادى بفضل ماينفرد به من برودة الطبع والميلان قدأصبح مضرب الأمثال. إن الحيطة وعدم الاستعجال لهى من العوامل التى تتحكم فى حياة الفرد البريطانى الشخصية والاجتماعية. والواقع أن البريطانى له قدرة عجيبة على ضبط عواطفه بل وكبتها. ولقد ذهب نابليون[1] فى وصفهم إلى حد القول بأنهم مجموعة من أصحاب الحوانيت الذين يزنون الأشياء بالميازين الدقيقة، على أن هذا الوصف صورة لجهة واحدة، لأن عواطفهم

1 Napolean

فوائده فقد اقتصرت على الميادين الفنية بفضل ما كان له من أثر فى بعث روح الخلق والابتكار. إن الطبقـة المتوسطة فى البنغال بعد توسعها قد أنجبت نخبة من الأدباء قلما نجد لهم مثيلا فى الهنـد الحديثة وفى مقدمتهم الشاعر رابندرناث طاغور بشخصيته العالمية.

وقد ساعد ميدان المعرفة بالشعر الانكليزى على إنعاش الآداب البنغالية. على أنه من المغالاة أن نقرر هنا أن النهضة الحديثة مردها إلى هـذا الهيجان فقط. والواقع أن التربة كانت قد تهيأت وأصبحت صالحة بفضل الانقلابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحدثتها غزوة الرأسمالية الأوربية. ويعتبر تأثير الأشعار الانكليزية حاسما فى هذا المظهر الخلق فقط. ولقد سبق لنا وأن نوهنا بطابع العف الذى يلازم الاختبارات والتعبيرات اللطيفة الانكليزية. إن الشعر الانكليزى يتميز بإبرازه للعواطف والأحاسيس الشخصية أكثر من تميزه بالاتزان والكتمان، وهما العاملان اللذان يعتبران محكا للكياسة والنظام الاجتماعى. إن الفردية التى ينفرد بها البريطانى لتتجلى فى نواح أخرى أيضا. فالبريطانى عادة ينظر إلى منزله كحصن لا ينازعه

بلغوا حظاً كبيرا من العرفان والفصاحة . وملحمة « رامايانا » التى وضعها تولسى داس[1] ما زالت تحتل مكانتها عند الأسر الهندية . وجلى ما فعله البريطانيون أنهم أطلقوا العنان لقوى اجتماعية جديدة وأسرعوا فى بعث أدب جاء أوسع مدى وجديدا فى روحه .

وقد ساعدت الانقلابات فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية على هذا الاتجاه . فقد سبق لنا وأن شاهدنا ما تعرضت إليه طبقات المجتمع فى البنغال من هزات كان لتعاظم الطبقة المتوسطة واتساع نفوذها أن ازداد الفراغ . كما أدى هذا التوسع بدوره إلى تأمين الطلب والفرصة للفنون . وإن نظام الملكية الدائمة قد أوجده طبقة متوسطة دائمة النمو والتوسع . وقد ألحق هذا النظام أضراراً بالغة فى إقليم البنغال من الناحية الاقتصادية ، وبفضل ما ألحقه من شلل للنشاط الفردى وتحويل وسائل الاستثمار من التجارة والصناعة إلى الزراعة . أما فى الناحية الاجتماعية فقد خلق طبقة من أصحاب المصالح الثابتة التى اعترضت بدورها تقدم البلاد بأجمعها . وفى الناحية السياسية أقام هذا النظام حاجزا مابين الطبقات الفقيرة والمستعمرين المستغلين . أما

1 Tulsidas

بعيدا عن أقرانه وحسب بل وغريبا عن نفسه أيضاً. على أن انعدام التنسيق والترابط هذا لم يكن ليقتصر على الأشعار الغنائية فحسب، ولكنه يتجلى في مختلف ميادين الفن الهندي المعاصر.

إن الاهتمام بالفرد يؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية على عكس التقاليد والعادات، فهي تساعد على ترابط المجموعة وتماسكها. وإن الشرط الضروري لتأمين التماسك الاجتماعي ينحصر في خضوع الفرد لأهداف المجموعة. وأما إذا ترفع الفرد عن المجموعة عند ذلك تبدأ الأنظمة الاجتماعية الفردية بالازدهار. وكثيراً ما تنعكس ظاهرة الانحلال الاجتماعي في أحداث الآداب والفنون بصورة طفرية. وذلك أن الفنون على أنواعها هي في الواقع تعبير عن ذاتية الفرد. وقد يكون للأشخاص من نخبة فنية والطعن في جودتها أن يقال إنها أثر من منتج عادي أو عام. يستنتج من هذا أن البيئة الاجتماعية التي تفضل من التقاليد على منهج الفردية كثيراً ما تهيء الجو لانتعاش الفنون وازدهارها. ولعل ما لازم توسع الطبقة الوسطى في الهند في محاولات وتجارب في ميادين الفن المختلفة لم يأت عفواً ولم يكن من باب الصدف

فى ملكيته منازع. وهذه الفردية هى أيضا من الصفات الملازمة للطبقات المتوسطة، وكما لا يخفى فى ذلك فان الحضارة البريطانية هى أيضاً بورجوازية على مستوى الطبقة الوسطى.

إن توسع الطبقة الوسطى بصورة غير طبيعية قد أوجد الظروف التى أدت بدورها إلى انهيار الأنظمة الاجتماعية الهندية القديمة. فقد شهدت البلاد قيام نزعة فى الجيل الجديد للحرية وميل للثورة على السلطة والتألب عليها. وأخذت الطبيعة القومية تنكشف عن روح جديدة من قوامها الفردية والاثارة والتشكك. وقد وجد الجيل الجديد ضالته فى الأشعار الانكليزية التى جاءت معبرة عن أمانيه بحكم إبرازها لحرية الفرد وتأكيدها لها. وكان هذا الغليان الفكرى أشد وأقوى ما يكون فى الاقليم البنغالى. إن الأشعار البنغالية بدأت منذ قدوم الأوروبيين تعكس طابع الفردية والاثارة والتشكك. وجذور الفردية هذه تغلغلت واستأصلت فى هذه الأشعار لدرجة أصبح معها الشاعر وحيداً فى عالم غريب. وتعتبر أشعار طاغور بما يتخللها من شجن وانكماش خير معبر عن هذه الروح. وقد استمرت هذه العملية إلى أن بلغت مرحلة غدا معها الفرد ليس

تستمد أسسها من النشوة الفردية. أما الهندسة المعمارية فمكتوب لها ومحتم عليها فى جميع مراحلها أن تعتمد على الاعتبارات الاجتماعية. ذلك أن إقامة وتشييد أثر معمارى ضخم تستدعى تضافرا وتعاونا من عدد كبير من الأشخاص. ولا يكفى للمعمار الرئيسى أن يكون حاملا الشعور الفنى فحسب، بل ولا بد لزملائه أن يكونوا مثله. كما تقتضى أن يكون المجتمع بأسره مشبعا بوحدة الأهداف والأغراض. ويلاحظ أن أروع ضروب الهندسة المعمارية فى التاريخ وأضخمها إنما شيد وأقيم عندما بلغ المجهود المشترك الجماعى أقصى حدوده. وما الكنائس التى بناها القوط فى أوروبا والهياكل المنحوتة فى الصخر التى تشاهد فى جنوب الهند أو المساجد العظيمة التى أنشأها العرب إلا رمزا يعبر عن مجتمع موحد ينعم بالطمأنينة والسلام. والثابت أنه كلما تعرض التضامن الاجتماعى إلى الزعزعة فإن الهندسة المعمارية كانت فى طليعة الفنون التى تضررت. وكذلك الحال فى التمثيل فإنه للأسباب نفسها ما عرف انتعاشا وازدهارا إلا حينما كان المجتمع متأثرا بمبادئ وأهداف مشتركة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفن الهندى فى جميع مظاهره العصرية جاء خلوا من عظمة الهندسة البنائية، ويضاف إلى ذلك من عظمة الدراما. على أن هذا لا يرجع إلى نقص فى طبيعة الهنود، فان آثارهم المعمارية القديمة تشهد بتذوقهم الذهنى للجمال. إن طابع التعقيد الذى يتجلى لنا فى مبانى المعابد فى جنوبى الهند يضارعه ما تعكسه هذه المبانى من متانة وعظمة. كما أن خطوط البناء التى تتجلى فى أضرحة الأباطرة المغول قد قصر وعجز عن تحقيقها وبلوغها عباقرة المهندسين المعماريين فى العالم أجمع. والواقع أن إخفاق الهنود فى التعبير عن ضخامة البناء وجسامته على وجه لائق ممتاز هو حديث العهد. ويعود السبب فى ذلك إلى طبيعة الهندسة المعمارية نفسها. وما ينطبق عليها ينطبق أيضاً على فن الدراما، وهو الميدان الذى لم يتسن للهنود فى الأعوام الأخيرة أن يحققوا ما سبق لهم أن حققوه فى الماضى من روائع.

إن الهندسة المعمارية تنفرد من جميع الفنون باعتمادها على التذوق الاجتماعى للجمال. إن فى وسع الشاعر أن يسبح فى عالم الفردية سعيا وراء فكرته، وقد يتسنى للرسام أيضا بلوغ درجات الكمال فى عزلته. كما تتعالى الموسيقى عن الفرد، ولكن كانت

الشغب والخروج على النظام الذي يستدعي الأمن أو يحملهم على السير بالمدفعين لتأديب المظاهرين الذين يخشى الهدوء. ومع كل الأمر فإن موقف أفراد الجيل القديم ليس له ما يبرره أو يسوغه إذا ما قيس على أضواء الاعتبارات التاريخية القائلة أن الأفكار السياسية القديمة قد تهاوت، والقيم الاجتماعية قديمة فقدت سيطرتها على النفوس، وأخذ النظام الاقتصادي القديم يتداعى والانهيار إلى آخر المرحلة. وكانت بداية أحد مصادر عزاء أو سلوى كما حدث في الشرق والدين والتربية والفن مسيطرات على أفكار الناس وأعمالهم في كل مجال. والحق أن الشباب بعد أن الاشتراكية العلمية، والثورات في القديمة أصبحت قوة جائرة وأحيانا مرائية للشعب.

وما أبداه الجيل القديم من قوى ضد الثورات لم يكن بغير متوقع أو غريب في بابه. ذلك لأنهم عاشوا وترعرعوا في بيئة تقوم أسسها على الطاعة للسلطة. وكانت الطبقية تحكم العلاقات السياسية والاقتصادية. والحياة كانت ثابتة تقريبا في طبيعتها نفسها. وحتى الأديان فهي تفصل لأنها تؤكد على أنها موحدة ومصدقة ساعدت على الاحتفاظ بالحالة السائدة. ورغما عن أن

٧ — الشباب الثائر

من خصائص الهند الحديثة التى تسترعى الانتباه، موقف التحدى الذى يقفه أبناء الجيل الجديد، وهذا لا ينحصر فى طبقة أو طائفة أو منطقة معينة. فان موجة ثورية جامحة اكتسحت البلاد وتركت أثرها فى الرجال والنساء من كل بيئة. والليثة المشهورة التى تنفرد بها طبقة الفلاحين إما أنها زالت أو أنها فى طريق الزوال السريع. وطبقة العمال الهنود دأبت على المطالبة بمستوى إنسانيـة من المعيشة والمعاملة، وكثيراً ما تمكنت من الحصول عليه. وطبقة الطلبة نلم تعد تدين بالطاعة والاحترام للآخرين. وحتى النساء فقد أخذن يناضلن فى سبيل مساواتهن فى الحقوق مع الرجال، وقصارى القول فان قافلة الجيل الجديد بدأت تسير قدما غير حافلة أو عابئة بحدود العهد الماضى وامتيازاته.

أما الشيوخ أو رجال العهد القـديم ومن بينهم رجال الحكم فكثيراً ما ينظرون إلى تحدى الشباب للسلطة، على أنه نوع من

انتشار الاسلام بفضل قيام سلطة المسلمين فى دلهى . وفى الأوانى الأخيرة جاءت المسيحية على أعقاب النجاح الذى صادفه البريطانيون فى بسط سيطرتهم على الهند .

إن الاسلام أو المسيحية فى تسربهما إلى الهند لم يعتمدا على مساندة عسكرية . على أنهما لم يجدا مكانة هامة فى البلاد إلا بعد النجاح الذى لقيه أتباعهما فى بسط سيطرتهم العسكرية ، وكان نتيجته التعسة أن اختلطت التأثيرات الروحية والمادية . والواقع أن المكائد السياسية التى كان الملوك المسلمون المتنافسون يحيكونها ضد بعضهم بعضاً ، قد حجبت التعاليم الجوهرية فى الاسلام . وكادت المسيحية بدورها تعرف بأخلاق الطبقات البريطانية الحاكمة ، وعلى ذلك أصبحت الديانات منخرطة فى سلك حكومة إمبراطورية ، ولا تترك حكومة إمبراطورية مجالا لأى وجهة نظر عقلية نقادة أن تنمو وتترعرع . إن التعليم يصوغ عقول الناس ويحدد طبائع الفرد والمجتمع على السواء . فقد عمدت النظامات الامبراطوريان إلى إقامة التعليم على أسس التسليم المحض ومقاومة حركة النقد والاستطلاع .

بيد أن السنوات الأخيرة شاهدت تغيراً خفياً ولكن

الاسلام تمكن بفضل ديمقراطيته الثورية أن يهز دعائم نظرية المصادقة والوحى إلا أنه لم يوفق إلى هدمها. على أن تأكيد الاسلام لخاتمية الوحى شجع بدوره على قيام روح الاستبداد فى نفسه، وكانت الاتجاهات الرجعية والاستبدادية أكثر تجلياً فى المسيحية. وخلاصة القول فان جميع الديانات الهندية قد تضافرت معاً فى المساعدة على تحكيم النظام الاجتماعى المستبد. وطبيعى لكل من شب وترعرع فى بيئة كهذه أن تمر به الانقلابات والتغييرات الهادئة التى كانت تجرى من حوله دون أن يعيها أو يشعر بها. ولم يكن مثل هؤلاء أن يشعروا بالتطور إلا بعد أن قرب اكتمالها، وعندها بدأوا يدركون فى كثير من الدهشة الفرق الذى طرأ ما بين العهد القديم والعهد الجديد.

وهناك تعليل آخر للاستكانة التى تلازم وجهة النظر التقليدية الهندية. إن الاستعمار لا يتفق مع النزعات الرامية لتحدى السلطة. وكلما دخلت ديانة جديدة فى الهند فقد لازمتها دائماً أبداً قيام امبراطورية جديدة. ففى العهود الهندية كان انتعاش البوذية والبراهمية أو زوالها، يتوقفان على ما يصيب أية أسرة إمبراطورية منافسة من نجاح. وفى القرون الوسطى ازداد

الحديثة أو الأجنبية، وكذلك صعدت القوى البرجوازية القوى الإقطاعية، فأحدثت اختلالا حديثاً للتوازن. ومع أن الاستعمار الجديد كان يسعى لخلق طبقة متوسطة كبيرة الحجم، إلا أنه لم يشجع على قيام رأسمالية محلية. وظهر هذا التناقض الجوهري في التنظيم الذي أنشأته الأولية للطبقة المثقفة حسب الأوضاع السياسية. وهذا سرعان ما جعل المجتمع بأسره، يتحول إلى قلق عام وميل إلى نقد القيم القديمة.

وحالة الغليان الموجودة في الهند الآن، هي صورة معبرة عن الحالة السائدة. إن القوى التاريخية التي تتحكم في مصير الهند تقف موقف التحدي من أسس المجتمع والنظام السياسي على السلطة. وكما أن الصورة الأولى من هذه التحديات الفكرية تؤدي عادة إلى الإقدام على أعمال منظمة عنيفة في شتى النواحي والميادين، فإن رد الفعل الذي تحدثه يكتسب عادة نفس الطابع من الحـــدة والعنف، وقد استمرت على ذلك عملية التأرجح والتردد بين طرفي النقيض ومضت دون أن تقف عند حد. ولا مندوحة في مثل هذه الأوضاع والظروف لقيام قوة انتقال بين عقلية تقوم على أساس الطاعة للسلطة وأخرى تقوم

ملحوظاً فى هذه الاتجاهات. ذلك أن الاكتشافات العلمية قضت على القديم من وسائل الانتاج وتوزيع البضائع على الأسواق. وكذلك فان استخدام الانسان للآلات أسفر عن زيادة كبيرة فى الانتاج واستطاب أسواقا بعيدة. وقد أسفر الانقلاب الذى طرأ على وسائل الانتاج عن ثورة أخرى فى وسائل المواصلات والاختلاط. كما أن الاتجاهات الدينية والثقافية اكتسبت نفوذاً واسعاً جديداً. ولما تزايدت حركة التنقل بين المدن والقرى أخذ نفوذ المدن بالنمو المتواصل. وبما أن المدن بطبيعتها هى المصدر لعمليات الاختمار والتغيير، فقد أدى تعاظم أهميتها فى بعث قوة ديناميتية متينة جديدة فى المجتمع. وتيسر للاتصال والاختلاط الذى تم بفضل السكك الحديدية ودوائر البريد والمطابع إزالة الحواجز الدينية والاجتماعية وكما أضعف من نفوذ السلطة.

وفى نفس الوقت فان نمو الطبقة المتوسطة قد أشاع جواً مفعما بروح التمرد والفوضى، وقد أدى هذا بدوره إلى مزيد من المعارضة لسلطة التقاليد القديمة. وإن الأهلين وعلى الأخص الجيل الجديد من بينهم، أصبحوا أكثر تجاوبا مع التأثيرات

٨ — النهضة وحركة البعث

إن ما وقع فى الهند الحديثة من خلط بين القومية والاتجاهات المبهمة الغامضة طالما استرعى الأنظار. ولعل الظاهرة الأخرى التى تعتبر أشد مدعاة للاستغراب هو الجمع بين اشتراكية نظرية وطائفية متشيعة متطرفة. إن المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية هى الدعامة التى تقوم عليها جميع النظريات الاشتراكية، ولكن فى الهند قد جردت الاشتراكية من هذا وصرفت لتوافق الفئة ذات مصالح ثابتة التى تستغل الطائفية لخدمة مآربها. والدعوة إلى الشيوعية لم يعد لها تلك القوة التى تجمع بين الفئات المختلفة من الطبقات الكادحة المستغلة. فقد أصبحت بدلا عن ذلك وبفضل ما تسرب إليها من عوامل واعتبارات دينية خارجية، أداة للمحافظة على مساوى النظام الاجتماعى القائم.

ولذلك فان النهضة وحركة البعث تسيران فى اتجاهات متعاكسة فى الهند العصرية. فقلاع التقاليد القديمة قد قوضت

على المساواة العقلية عن أن يلازمه عوامل الاضطراب والثورة.

وعندنا أن هذا التحول من حال إلى حال إنما هو نتيجة حتمية لعملية طويلة من الانقلابات والتغييرات الانتقالية. ولم تأت الانقلابات والتغييرات مفاجأة ولم تكن وليدة الصدف، فقد سبقها فترة طويلة من الاستعدادات، ومضت نحو أهدافها بصمت وهدوء دون أن تسترعى انتباهاً أو تلفت نظراً. أما الصدمة التى أحدثها هذا الانقلاب فاقتصرت على اولئك الذين قد كانت تحجرت عقولهم وعاداتهم. على أننا لانسوغ لأنفسنا المبالغة فى مدى هذه التغييرات. إن العادات الاجتماعية دائمة التغير والتبدل إلا أن المعتقدات الاجتماعية بقيت إلى حد بعيد على ما هى عليه لم تتحول ولم تتبدل. وحركة النقد وتدقيق الأمور على أضواء العقل والمنطق لاقت انتشاراً أكثر من اكتسابها شدة. وإنه لمن العجب أن الاتجاهات الفكرية العصرية اختلطت وتمازجت بأحاسيس بالية قديمة. إن الهنود المعاصرين يفكرون ويتحسسون ويعملون على مسطحات عديدة فى آن واحد. فيرون الماضى والحاضر والمستقبل فى طراز عجيب يخيب عمل التحليل والوقوف عليه.

مصممة على التخلى عن الروابط القديمة . أما الانقلابات التى وقعت فى الهند خلال القرنين الأخيرين ، وعلى الأخص ما وقع منها خلال الثلاثين والأربعين الأخيرة ، فانها تختلف اختلافا كلياً عن سابقتها . فتراءى كأنها لا صلة لها بالماضى وتحمل فى طياتها جميع بوادر بداية جديدة بالكلية .

ومن الخطأ أن نعتقد بأن كل ما هو حديث جديد بالمرة ذلك أن المراحل الحالية هى نهاية بل خاتمة لعملية بدأت من زمن بعيد واستمرت عبر القرون . ومع كل ذلك ، فلا سبيل للانكار بأن هذه الانقلابات أدت إلى تخلى الهنود عن ماضيهم . وإن وقوع مثل هـذه التطورات لا يختص بالهنـد فقط . فالانقلابات التى وقعت خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، قد أحدثت تغييرات فى الحياة البشرية والثقافة على وجه لم يسبق له مثيل فى التاريخ المقيد . والواقع أن سرعة الانقلاب قد زادت إلى حد مخيف منذ أوائل القرن الجارى .

إن العهد الحديث فى الهند لم تشهد انقلابات سرية فحسب بل شاهدت أيضاً عمليات التوحيد على مدى ونطاق لم يعهد به من قبل . ولقـد عرف العالم فى المـاضى حضارات متعددة ،

من أركانها وأصبحت السنة القديمة القائمة على التسليم غير صالحة كأساس للحياة الاجتماعية الهندية . والضمانات القديمة لتأمين مستقبل الفرد تلاشت بدورها وتلاشت معها المبادىء القديمة المعروفة . والترابط القائمة من الشئون العالمية واتصالها مع بعضها بعضاً قد جعل المحاولات الرامية للمحافظة على العزلة والانطواء غير ممكنة . ذلك أن فريقاً من الناس ممن ليس لنا بهم أى اتصال أو ممن لا مجال لنا للاتصال بهم هم الذين يحكمون بمصير حياتنا . كما أن بعض القرارات التى لا تمت بصلة ما لأمانينا ومطالبنا قد تكون بمثابة الموت والحياة بالنسبة إلينا . فلا غرابة ، والحالة هذه ، أن نلمس مظاهر الاضطراب والفوضى تعم الشعب على جميع طبقاته .

ويستدل من كل هذا أن حالة عدم الاستقرار والغليان هما من العوامل المميزة للهند المعاصرة . فشعبها العريق فى قدمه سائر قدما إلى الأمام ، ورغماً عن أن الهند الحديثة لم تجدد مبادئها بعد ، إلا أنك تلمس بوادر حركة بعث جديد فى كل مكان . لقد تعرضت الهند فى عصورها القديمة والوسطى إلى الانقلابات ذات أثر بعيد . على أن هذه لم توح بأن الهند

إلى استعباد الانسان . لقد أخذ أصحاب العقول الحادة المتقدة من رجال ونساء يحلمون بنظام اجتماعي جديد . وإن هذا الحلم أخذ يتبلور ويتحقق نتيجة لتغلب الانسان على قوى الطبيعة .

ولما تم للانسان التغلب على الطبيعة انفتحت أمامه آفاق جديدة لم يحلم بها من قبل قط . وآية ذلك أن أشد أفراد المجتمع فقراً يتوفر لديه اليوم من الموارد ما كان ليحلم أو ينعم بها سابقاً أعاظم الحكام في العالم . ففي وسع الرجل العادي الآن أن ينعم بمستوى من المعيشة لم يكن في متناول أقوى السلاطين في العالم . وأصبحت اليوم الأشياء التي كانت تعتبر في الماضي في عداد الكماليات من أبسط الضروريات . ويمكن الحصول على كل هذا على نطاق عالمي حتماً . واتساع المجالات والفرص لا يقتصر وجوده على داخل البلاد فحسب ، بل على ما بين الدول كذلك . فالأشياء التي كانت في يوم من الأيام حكراً على طبقة معينة من طبقات الشعب في بلد من البلدان أصبحت اليوم في متناول البشرية بأسرها .

وبقدر ما توسعت الحضارة وغدت في عصرنا الحاضر على نطاق عالمي فان النكبات والأخطار التي تتهددها قد اكتسبت

ولكنه قلما شاهد قيام حضارة عالمية . فثقافة الهند القديمة كانت موضع اهتمام الهنود فحسب. والثقافة الرومانية فقد اقتصرت على حوض البحر الأبيض المتوسط . وكذلك الحال فى الحضارة الصينية لم تكن لها سمعة تذكر خارج حدودها ، حتى الحضارة العربية ، فهى رغم عن أنها كانت أعم انتشاراً ، إلا أنها كانت إقليمية أكثر منها كونية . والواقع أن الظروف المادية الضرورية لقيام حضارة عالمية بالمعنى الصحيح لم تتوفر بعد فى ذلك الحين ، على أن تغلب الانسان على الطبيعة وقهره لها قد أوجد وخلق للمرة الأولى ظروفا لحضارة قد تعمل على أسس عالمية .

إن أهم العوامل المميزة للحضارة الكروية تتجلى فى حنينها وتعطشها لتحقيق العدالة الاجتماعية ، فهى إلى جانب التحدى لنفوذ الاستعمار والاستغلال . فهى تهاجم على عدم المساواة وتندد بانعدام العدالة فى مصدرهما . أما السلاح الذى تستخدمه فى هذا السبيل فهو الماكينة التى تطلق قوى البشرية وتهيء الفرصة لكل فرد للتمتع والترفيه عن نفسه . ولأول مرة فى التاريخ يلاحظ أن استعباد الطبيعة قد أدى إلى عدم حاجة الانسان

عجز الاستعمار رغم الجهود التى يبذلها للتراضى عن تحقيق توازن دائم . إن الاستغلال الاقتصادى وما يلازمه من شعور الأذية ، هما جزآن متلاصقان بطبيعة الاستعمار . ولا يمكن تجريدهما منه إلا بالغاء الاستعمار نفسه . إن مبادئ العدالة واعتبارات البقاء تلتقيان فى الدعوة إلى إعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة .

أما الخطوة الأولى لاعادة التنظيم فهى تحقيق استقلال الهند . فالهند التابعة ليست بهند محقرة فحسب ، بل هى هندكئيبة كذلك . ويعنى ذلك عدم الانتفاع من مصادرها الانسانية والمادية الجبارة . إن النظام الاقتصادى القائم على العسر من شأنه أن يؤدى إلى قيام مجتمع مضطرب . إن ما يلازم المجتمع الهندى الحاضر من عوامل الالتهاب إنما يرد إلى العسر الاقتصادى . وإن ما يتراآى لنا فى الظاهر بأنه حزازات طائفية واختلافات إقليمية لهى فى الواقع محاولات ومجهودات لتأمين البقاء . إن الصناعات الهندية قد دمرت والزراعة الهندية لا تقدر أن تعول السكان المستمرين فى التزايد وغدت الوظائف السبيل الوحيد الذى يضمن للفرد راحته ومستقبله . وهذا ما سبب منافسة غير طبيعية للحصول على الوظائف لأجل البقاء . وفى هذا النزاع للبقاء يمسك

بدورها طابعاً عالمياً. وقديماً كان تدهور حضارة ما لا يتعدى تدهور طبقة معينة فى أى بلد من البلدان، ولكن رغماً عن تدهور هذه الطبقة لم تفقد الآمال بقيام طبقات أخرى فى ذلك البلد أو غيره على الأقل، تتولى حمل شعلة الحضارة وتعمل على المحافظة على تقدم البشرية، ولكن قد فقد هذا الامكان نظراً لتغلب الانسان المتزايد على عالم الفضاء والزمن، والانقلابات الثورية التى طرأت على وسائل الحروب والهجوم، ونظراً إلى التبدل الذى طرأ على وسائل ونطاق الانتاج وتوزيع البضائع وتكميل الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية فى مختلف البلدان والمناطق فى العالم. إن عالماً موحداً هو الآن فى طريقه إلى التأسيس إن لم يك قد تأسس فى الواقع. العالم وقد قدر لمصيره أن يكون واحداً كذلك. أن تقدم العالم شانه شأن الحرية والسلام أصبح الآن جزءاً لا يتجزأ.

تنشأ المشاحنات بشعور الأذية. فاذا لم يبادر للعمل على إزالة أسباب المشاحنات تعرض كيان الحضارة العالمية بأسره إلى الانهيار. إن الحربين العالميتين اللتين شاهدتهما البشرية فى بحر خمسة وعشرين عاما تذكرنا بتلك الخطرة. فلقد برهنتا على

أن تمكك وتنهار فان نظم الحياة التى يفترض فيها أن تصونها من العبث تغدو مهددة أيضاً. وإن ما قد يبدأ كصراع طائفى قد يؤول فى النهاية إلى حرب أهلية. والحروب الأهلية سرعان ما تنتقل إلى الحروب الملية. ومع أسلحة الفتك والتدمير العصرية، الحروب الملية تنذر بالقضاء على الحضارة البشرية نفسها.

وعلى ذلك فان قضية حصول الهند على استقلالها وسيادتها لا تعتبر من المشاكل التى تهم الهند فحسب، التيارات العالمية بلغت شواطئها وأرغمتها على السير فى طريق الوحدة والتنسيق التى كتب عليها أن تسير فيه. إن خضوع الهند سياسياً للسيطرة الأجنبية يجعل دورها سلبياً للقوات العالمية أكثر منه عملياً على مسرح العالم. وفى هذا ما فيه من أخطار لا تهددها فحسب، بل وتهدد العالم أيضاً. فخضوع الهند للسيطرة الأجنبية يهدد السلام العالمى لأن ما تتعرض إليه من السيطرة والاستغلال قد يشجع دولا أخرى غير الدولة التى تستغلها أن تجرب حظها فى عملية الاستغلال. وهى مهددة بالأخطار لنفسها. لأنه يحول بينها وبين تقدمها ونموها نمواً حراً طبيعياً. فهى بحكم ما ترزح تحته من اضطهاد وما يحز بنفسها من ألم فهى فى نزاع دائم مع نفسها، بل هى من

الفرد والجماعة اول وسيلة يجدونها حولهم . أما أرباب المصالح الثابتة فنى وسعهم تأمين ترفههم وانتزاعه من فم العهد القائم . فنى مقدور المليونير مثلا ، من أى جنس أو لون كان ، أن يتمتع دائماً بخيرات الحياة وأطايبها . أما الهتافات والصيحات الطائفية فتحول أنظار الطبقات المستغلة عن عدم المساواة الفاحشة . إن الطائفية بالنسبة إلى أرباب المصالح هى آخر معقل من معاقل الدفاع .

وقد يمكن تحويل الأنظار هكذا من البليات إلا أن هذا لن يساعد على حل المشاكل . فالنفرات الطائفية باقية مستمرة تغلى وتعمل عملها فى الصدور . أما الروابط الاجتماعية فآخذة بالانحلال . وأصبحت قواعد النظام والكياسة القديمة التى شيدت بعد قرون من الجهود وضبط النفس مهددة بالخطر . وإن المجتمع المدنى هو أشبه ما يكون بالخزان الذى يحبس مياه التيار . وطالما بقى الخزان قادراً على الصمود كلما كان غليان التيار عديم الجدوى والفائدة . أما إذا نجح التيار من إحداث ثغرة مهما كانت ضئيلة فان الأخطار الناشئة لن تقتصر على الخزان نفسه فحسب ، بل تتعداها إلى المناطق التى يفترض فى الخزان وقايتها من أخطار الفيضان . وهكذا مسئلة الحجزات التى وضعتها الحضارة . فاذا ما قدر لها

الزوال إلا أنه ليس هناك ما يضمن قيام بعث جديد.

إن الهند العصرية تمكنت فى الميادين الحسية من بلوغ شأو جدير بماضيها التليد. والفنون هى فى الصميم طلب الفرد فى أرجاء روحه الوحيدة المنقفرة. والفن المعمارى والتمثيلى، حيث الفن ما زال قائماً على اعتبارات طائفية، لم يولد بعد. وحتى فى ميدان الرسم والشعر فإن الروح التى تكتنفها الوحدة الموحشة سرعان ما يعتريها الكلل والملل، إذا لم توفق إلى تجديد قواها وحيويتها بما تستمده من أعماق الفكر القومى. إن فن الرسم والشعر الهندى فى نموه أشبه ما يكون بشجر الصنوبر الذى ينمو فى أكناف الجبال على تربة قاحلة ليست عميقة الغور. فهى رغم روعتها تبقى دخيلة لا تنفذ إلى روح الشعب.

ولعل ميدان الفلسفة هو أكثر الميادين برهانا على إخفاق الهند أن تحقق ما هو جدير بها. ذلك أن الفلسفة من عادتها أن ينظر إلى ادعاءات المعتقدات السائدة. فهى تخضع قواعد المدنية المتفق عليها إلى عملية من التدقيق والتمحيص. وصفوة القول أنها تقيد المرء لما تضمنه دينه. فلا مندوحة من وجود حضارة وثقافة عريقة ليتسنى للفلسفة أن تنتعش وتزدهر. وإذا ما حدث وكانت

هذه الناحية مصدر عدوى للعالم الخارجى . فالهند المتمتعة بالحرية والسلام بمثابة معقل من معاقل السلام العالمى . فهى تساعد على ضبط الغليان فى القارتين الآسيوية والأفريقية وكبح جماحه فحسب ، بل ستُرمى قوتها الجبارة مع القوى العاملة من أجل السلام العالمى .

إن الهند بما يتوفر لها من ثقافة هى مزيج من ثقافات مختلفة مستمرة تجمعت لها عبر القرون ، فى وسعها أن تغذى العالم بالغالى النفيس ، فقد أيقظت المؤثرات الغربية الهند من سباتها العميق وأخذت دم الشباب الجديد يسرى فى عروقها . كما أن مشاكل جديدة أخذت تحرك وتثير وعيها من أعماقه . ناهيك عن أن الصراع القائم بين الآراء الشرقية والغربية قد بعث فيها يقظة دينية واجتماعية جديدة . ولا تقتصر هذه النهضة على تحرى الحقيقة الروحية والسعى ورائها فحسب ، بل تتعداها إلى التخفيف من حدة النظم الاجتماعية الاستبدادية القديمة . ولقد شاهدت الهند خلال القرن التاسع عشر ظهور عدد من رجال الاصلاح وإن كانت تاثيراتهم قد بقيت سطحية لم تتغلغل إلى أعماق الحياة الهندية . ويلاحظ أن نفس القصة تتكرر فى الميادين السياسية والاقتصادية أيضاً . ومع أن الأنظمة والتعاليم القديمة كانت قد آلت إلى

دورها اللائق فى هذه العملية . وعليها أن تحافظ على كل ما هو غال وثمين من حضارة الماضى المتداعية مع العمل فى نفس الوقت على جمع وتحديد ما تتطلبه الحضارة العالمية المنبثقة من مطالبات، وعلى عواتقهم تقع المسؤولية فى تحقيق عملية تنسيق جديدة ما بين تراث العالم بعهوده القديمة والمتوسطة والحديثة وتكسبه ثروة على ثروة .

يوليو ١٩٤٦

هذه الحضارة فى دور الانحلال أو الثقافة فى دور الصهر فليس لنا أن نتوقع للفلسفة أن تنمو وتزدهر. وعندنا أن ندرة الانتاج الفلسفى خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة إنما يقيم البرهان على ما تعرضت إليه الثقافة والحضارة الهندية فى هذه الفترة من ضحل وعقم.

إن هناك الآن بوادر حركة بعث جديد فى جميع النواحى والمرافق. ذلك فان الغليان والاضطراب الذى يضطرم فى جميع نواحى الحياة الهندية وفكرها إنما يرمز ويوحى بقيام عهد جديد. ولا بد للاجرام أن تصطدم وتتفتت إلى أجزاء صغيرة لكى يتسنى لشمس جديدة تأتى فى حيز الوجود. كانت الهند القديمة رائعة فى خلق جو من التنسيق والوفاق.. أما العالم العصرى فتحدده رغبة كمينة بخلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر. إن الآثار القديمة اكتسحت مع حياة موحدة حركة تطالب بتحقيق المساواة والعدالة. ولا مندوحة للقيم القديمة والحديثة أن تصدم قبل أن تشهد الهند قيام إنسانية جديدة. إن هذا المهد القديم للعالم قد تحولت مرة أخرى إلى ميدان الصراع بين قوى وعوامل متناقضة متباينة. وواجب للشبيبة الهندية فى مثل هذه الأحوال أن تلعب

لولا أنها قد أدت بالتالي إلى تقسيم البلاد وقيام دولتين منفصلتين عن بعضها بعضاً

إن الثورة الصامتة التي كانت اختمرت في الهند خلال المائة عام الماضية فأكثر، قد أسفرت بالتالي عن بلوغ الهند درجات الاستقلال السياسي. وقد امتازت هذه الفترة من تاريخ البلاد بكليتها بالاضطرابات والغليان. وفي حين أن هذه النهضة كانت تتجلى وتعبر عن نفسها بالتمرد والخروج على المعايير والقيم القائمة، إلا أنها أحياناً ما عبرت عن نفسها في ازدهار وانتعاش في الميادين الفنية أو حركات الاصلاح الديني أو الاجتماعي. ومن المظاهر المشتركة فيها جميعاً حب الاستطلاع أو النزعة إلى الثورة إن هذا التبرم جاء في حد ذاته برهاناً على أن البلاد بدأت تبعث بعثاً جديداً.

إن الغليان والاضطراب والانحلال زادت حدة وتفاقمت منذ حصول البلاد على استقلالها. ذلك أن الهزات العنيفة التي حققت للهند استقلالها لم تهدأ. ولم يتسن لها بعد، إيجاد توازن في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهناك ما يوحي بأن عمليات التوفيق والتنسيق البناءة بين القوى والعناصر المختلفة

ملحق

ما كادت الهند تتبوأ مراتب الاستقلال حتى بدأ فصل جديد من قصتها الطويلة. ولقد استمر نمو الهنادكة والمسلمين زهاء تسع قرون، على وجه التقريب، قائما على عوامل الاتصال والامتصاص والتوفيق. وكان أول عامل دخول الغرب أن بدأت الاتصالات تنقطع بين الطائفتين. فكأن الثقافة التى اشترك فى بناءها الهنادكة والمسلمون فى بحر ألف عام غدت مهددة بالانحلال. وقد قامت كل طائفة من الطائفتين من ناحيتها بمجادلات لاحياء الأساليب والنماذج الأصلية لثقافتها. ولاقت هذه الحركة أحيانا عن قصد — ولعله كثيرا ما عن غير قصد — تشجيعا من جانب حكام البلاد البريطانيين. ولكن ما أخذ عهد الحرية والاستقلال يدنو ويقترب حتى بدأت آمالهم وخشياتهم تتعاظم، ولا نجدنا فى حاجة إلى التعرض إلى تلك الفترة المضطربة المؤسفة من تاريخ البلاد التى كانت مزحومة بالتناحر والمؤامرات فى السنين الأخيرة. وكفانا

المؤسسات الفردية . فالهند عاملة فى سبيل إقامة جهاز اقتصادى مزدوج يعتمد على المجهودات العامة والمجهودات الفردية ، كما أنها تقوم بتجارب لاستنباط الطرق والوسائل التى يتسنى معها الجمع بين الصناعات الصغيرة والصناعات اليدوية فى ظل نظام يؤمن إنتاج الأشياء اللازمة فى جو صناعى معملى .

ومن الناحية السياسية فان الهند قد اختارت لنفسها نظاما جمهوريا ديموقراطياً . وقد ضمن لجميع الرعايا حرية القول والعمل والتفكير والاعتقاد . وأنها تعمل جاهدة للقضاء على العوارق المبنية على الامتيازات . وإلى أن يتسنى لها تحقيق المساواة فقد أقدمت الهند على بعض التدابير للنهوض بأفراد الطبقات المنبوذة والأخذ بيدهم . أما مجموعة الشعب فان شعورها بكرامتها ومسئولياتها أخذ بالازدياد . وتجتهد الدولة من ناحيتها لتقديم الخدمات لخير الشعب مع ضمانة الحرية الفردية . ومن مميزات سياسة الهند الداخلية عنايتها بالمصلحة العامة على نفس النحو الذى تعنى به بتأمين الحرية الفردية . والواقع أن محاولتها للجمع والتوفيق بين المبدئين تعتبر من أجل الخدمات التى أسديت للسياسة الخارجية . ذلك أن الأهمية الدولية التى اكتسبت الهند مردها إلى الادراك

التى قامت فى العهود الغابرة ما زالت نشطة فعالة . وقد كان التسامح الذى كانت الهند القديمة تبديه يحمل على محمل الخنوع والاستسلام . أما الهند الحديثة فتحدوها رغبة كمينة بخلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر . والجو يبشر ببوادر عهد جديد .

وعمل إعادة تنظيم الجهاز الاقتصادى الهندى من أسسه ، قد بدأ . فبدلا من النظام الاقتصادى السائد فى البلاد إلى الآن مع كل ما يلازمه من القلة ، بدأت الهند تبذل جهدها بقيام نظام اقتصادى يؤمن لها الوفرة بحيث يمكن لكل فرد من أفراد المجتمع أن يساهم فيه وفقاً لكفاءته وطاقته ويجد جزاءه وفقاً لاحتياجاته . لقد أفادت الهند من الاختبارات التى اكتسبتها أوربا الغربية فى تطبيقها بمبدأ حرية التجارة والعمل به ، كما أفادت من أوربا الشرقية وأنظمتها الدكتاتورية المركزية . والهند تعمل جاهدة على إقامة نظام اقتصادى متوازن يتيح مجال العمل لخطة الشعب والنشاط الشخصى على السواء . وستخضع عدد كبير من الصناعات الأساسية تحت سيطرة الدولة وإشرافها بصورة تدريجية . أما الصناعات الثانوية والأخرى التى تعتبر من الدرجة الثالثة التى تتولى إنتاج سلع الاستهلاك فستترك ادارة العدد الأكبر منها إلى

الأراضى القاحلة . ولأول مرة يجرى تنظيم الخدمات الصحية على نطاق ومدى قومى . وتبذل أقصى الجهود لتعويض القرويين عما فاتهم من نعيم بسبب الاهمال الذى عانوه لقرون .

فلقد بدأ الريف الهندى يتحول ويتمدن أمام أعيننا بفضل الوسائل الحديثة الرامية لتحسين طرق الزراعة والرى والسهولة فى المواصلات والنقل والشئون الصحية والتعليمية

إن هذا التقدم يعتبر مهما فى حد ذاته إلا أن ما يكسبه أهمية عن أهمية ما يبديه أفراد الشعب من نشاط للواجبات والمسؤوليات الجديدة. وصحيح أن الدولة هى التى أخذت على عاتقها فى كثير من الأحيان إعداد المشاريع الانشائية والشروع بها ، ولكن المهم فى الأمر أن تجاوب الشعب معها وتعاونه كان دائماً فى نطاقه . وقديماً كان الشعب دائماً أبداً يتطلع إلى الدولة ويعتمد عليها فى كل خطوة من خطوات الاصلاح . أما اليوم فان الشعب نفسه كثيراً ما يتولى زمام المبادرة ، سواء فى إعداد مثل هذه المشاريع أو فى تنفيذها . إن نهضة جديدة فى مختلف نواحى الحياة اجتاحت المدن والمناطق الريفية على السواء. ووقفت على ذلك الجمود الذى كان يلازم القرويين ويسيطر عليهم. وها هو الشعب الهندى

المتزايد بأن عالمنا الحاضر يفتقر أشد الافتقار إلى هذا الطراز من المجتمع .

إن ما تم من التقدم السياسى والاقتصادى لعلى جانب من الأهمية . والنهضة التى حققتها الهند فى الميادين الفنية والحرفية ، انها بعثت نشاطاً كبيرا فى شتى النواحى والميادين الأخرى . وأعمال إحياء الاتصالات الثقافية القديمة جارية العمل ، لاقامة اتصالات جديدة أخرى . وأن أكبر برهان على نهضة الهند الحديثة يتجلى فى الجهود التى تبذلها لاعادة بناء الحياة الريفية وتنظيمها . ولم تكن قد وقع أى تبديل فى القرى منذ قرون . فقد كانت الأحوال السائدة فى المناطق الريفية قبيل عهد الاستقلال آنفاً ، لاتختلف أحيانا فى شىء عن الأحوال والظروف التى كانت تخيم على الريف الهندى منذ ثلاثة آلاف من السنين . أما الآن فهناك مساع جبارة لقلب طراز الحياة الريفية رأسا على عقب . من ذلك الجهود المبذولة فى سبيل بناء طرق جديدة فى أماكن لم يك فيها طرق من قبل . ولأول مرة فى التاريخ الهندى المقيد بدأت المدارس تبنى وتقام فى أماكن بعيدة نائية . وهناك مشاريع الرى التى توفر المياه وتؤمن إحياء الملايين من الأفدنة من

العريق سواء فى المدن أو القرى قد استأنف سيره نحو ما يصبو إليه من الأهداف الجديدة الرامية لتحقيق السلامة الاجتماعية والعدالة الاجتماعية وتحقيق شخصية الفرد وذاتيته .

١٥ اغسطس ١٩٥٥